منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

ابراهيم عبد المجيد

المسافات

رواية

دار الشئون الثقافية العامة

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

ابراهيم
عبد المجيد

رواية

المسافات

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

الإحتفال

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

الأطفال

أمام البيوت العشرين ، بالضبط أمام العشش الصفيح التى تتقدم البيوت العشرين ، والوقت مغرب تعجلت فيه شمس الخريف الرحيل ، كان الصبية ينسحبون . انتهوا من لعب البلى والنحل ، وكما تعودوا طوال الصيف المنصرم ، لم يستطيعوا التأخر فى الخارج .

لم يسهروا طوال الصيف تحت ضوء القمر . أو يستمتعوا بهذا الضوء وهو ينسكب فوق سطح البحيرة أمامهم فتشتعل بالبريق ، وينعكس فوق وحول نباتات « الحلفاء » فتبدو كرماح لامعة . لم يروا الضوء وهو يرتاح باتساع الأرض الفضاء أمام العشش ، وعلى يسارها ، فيكشف وجهها الجامد ، ويوسع لهم فى الأمان . ولا وهو يصل الجهة اليمنى بالصحراء البعيدة ، فيتقطع البصر خلف النهاية ولا يصل . لعب الظلام بالقلوب الصغيرة لعبة الخوف والإنكماش ، والقلوب الصغيرة هنا تعشق القمر . فتحت ضوئه يجرون خلف بعضهم إلى محطة السكة الحديد القائمة خلف البيوت العشرين . ولولاه تبدو المحطة كالعفريت ، ويبدو « البلوك » شحيح الضوء ، كمياه البحيرة فى الليالى المعتمة ، غامضا .

ومخيفا . أما أعمدة النور الشاحب ، الممتدة مع القضبان شرقا وغربا ، وأعمدة أسلاك التليفونات الكثيفة ، فهى بدون ضوء القمر ، أشباح ومردة .

لم يتعودوا أن يروا شيئا بالليل غير مقرون بضوء القمر . لكن الصيف المنصرم ، لم يلعب فيه الأطفال العابهم . لم يصطادوا القنافذ الملتصقة بالقضبان ، ولا سمك البحيرة الجميل . لم يبلغ فيه صبى ، لم يعض على وسادة أو يرتج سرير . لم ترقص جنيات البحر لأحد . ولم تأت عصافير الغرب أو تنصب فخاخ .

لم يبق إلا لعب البلى والنحل حتى المغيب . فى لعبة البلى ينحنون فوق الأرض فى منطقة صغيرة ، فلا يرون كل الأرض ، ولا شيئا من السماء . فى لعبة النحل تضرب النحلة الأخرى وتدور فوق الأرض . يرفعها الصبى على كفه بحركة رشيقة بالأصبعين الوسطى والسبابة . تدور النحلة فوق الكف ، تظل عيناه معلقتين بها وهى تدور ، تدور عيناه ، يدور رأسه ، يدور الزمن فيدهش كيف مر الصيف بلا صيف ! ، ويتساءل متى يأتى القطار فينزاح الكرب كما قال الكبار .

لكن الشمس كانت تسقط فى الغرب وتموت . ينام الظلام فوق الكون ثقيلا كالرصاص . يغرق القمر فى جوف مياه البحيرة . وكل الأمهات ، بلا سابق اتفاق ، قلن للأطفال « ناموا مع المغيب ، وإلا فاضت البحيرة وأغرقتنا ، فمياهها بالليل تصل للعتب » .

وفجأة كف الصبية عن الإنسحاب . رأوا الأمهات خارجات من الدور ، مقبلات نحوهم .

□ □ □

ليل وسعاد

كانت النساء قد قررن الإحتفال ، فليلة مجىء القطار بعد غياب عام كامل ليست ليلة عادية . ووجه سعاد كان يتألق بالفرح ، ينتشى بالتحفز . وعيناها تهزمان العالم . أما وجه ليلى فكان فلقة قمر حزين . والشمس الآن تقف عند الأفق الغربى مشتعلة بالحنق ، فقد ضجرت من رحلة الدوران القديم ، أو ربما من إطلالتها اليومية على هذه البقعة بالتحديد، بينما كان وجه سعاد يشتعل بالبهجة ، والقمر يصعد حبيا من خلف ماء البحيرة ، وتتكسر على وجه ليلى أولى موجات الظلام .

توقفت سعاد فى المنطقة الفضاء أمام العشش . تركت يد ليلى. دارت بعينيها فى المكان . تاهت . انتشت . إهتز عطفاها . رانت على وجه ليلى غبطة كانت منسية وضحكت عيناها بدمعتين لم يعرف سرهما أحد . زغردت سعاد . إهتز نبات الحلفاء . صدح كروان غريب مبكر . طارت أسراب الغر من مكامنها . تقافزت الأسماك فوق الماء . حلقت طيور النورس فملأت الفضاء ، وبدت كما لو كانت تسرع لتلحق بالكروان فى الفضاء السحيق .

تقاطرت النساء . برزت الدفوف . الطبول . الأكف . الأصوات . الضحكات . تمت الحلقة التى لم تنصب منذ عام . جلسن فوق الأرض فى دائرة واسعة . الأطفال بين أفخاذهن . الصبية جوارهن .

سعاد هى التى تبدأ . هى التى تنهى . تقف وسط الحلقة التى لم يتخلف عنها سوى زوجة المفتش والعجوز أم جابر وزينب . لم تندهش النساء من عدم خروج زوجة المفتش ، فهن يعرفن أن زوجها رجل قاس . كما يعرفن أن عدم مشاركة أم جابر حدث بسبب غياب إبنها منذ خرج فى الصباح، وكذلك زينب فحامد زوجها لم يعد فى موعده مع بقية العمال .

شامخة سعاد تتألق عيناها الواسعتان . تدور حول نفسها كغزال سعيد . جلبابها قصير لم يفلح الشيخ مسعود أن يصله للقدمين . لم يرغب . تركه ينتهى عند الركبتين ، يكشف عن ساقين لدنتين ، تلمع ربلتاهما عند الحركة بأضواء هامسة ، بينما ينطق العقبان المدوران ، والقدمان الحافيتان ، اللتان انسلتا من خفهما الرقيق الملون ، بالدعوة والنار .

ابتسمت سعاد ليرى النورس أسنانها البيضاء النضيدة . دارت بابهامها من داخل طوق جلبابها الواسع ، الذى ينطلق منه النحر السامق ، يحمل الوجه المستدير ، والذى تحته يكاد يقفز النهدان إذ يتلمظان !! .

— كأنها لم تمر بالصيف . !
— ولم يضايقها غياب القطار !
— وتضحك طول الليل والنهار !
— وتقابل فريد فوق السطح !
— وزوجها هارب من الموت !
— لماذا تقفين يا سعاد !؟
— إنها تبكى من الفرح !
— ندق الطبل تتحرك !

رشقتها ليلى نظرة غير واضحة بعد أن جلست . إهتز عطفا سعاد . تهدل غطاء الرأس الأبيض . سقط إلى كتفيها وإلى الأرض فى نعومة . انسدل شعرها . انسكب على جانبى وجهها . كتفيها . ظهرها . كاد يصل إلى قدميها . بدا وجهها كشمس استقرت وسط مياه البحيرة بليل شديد الظلام .

اتسع طوق صدرها أكثر . طارت ذراعاها البيضاوان فى كل اتجاه . والشمس غابت تماما ، بينما ظل القمر يصاعد واهنا مبتعدا عن مياه البحيرة إلى السماء . وكان مصباح شحيح الضوء أمام بيت المفتش يبدد الظلمة قليلا .

طارت سعاد كالفراشة . انتظم الإيقاع . قوى . التهبت الأكف بالتصفيق مع دقات الدفوف والطبول . دارت سعاد بقوة . تقافز العرق من مسام الوجه . برزت حمالة قميصها الباهت الزرقة من طوق الجلباب . طار ذيل الجلباب مع دورانها .

— ليلى . ليلى . ليلى .

غلفها الخجل . أمها جوارها تبتسم . أول مرة تبتسم منذ غياب القطار . انقضت سعاد عليها تنهضها . انسحب طفل ناحية البحيرة يتبول . لن يغرق الماء العتب كما قالت أمه . لن تخرج الجنية كما قال أبوه . انسحب صبى إلى البيت يفتش عن فخاخه القديمة . غدا سيصطاد طائر « أبو ذيل » . الطائر الأحمق الغريب . سيصفر له يغريه . سيضع فخاخه فى دائرة واسعة . سيجذبه بصفيره داخل الدائرة . وسيصحو من النجمة إلى البحيرة يحفر طينها ليستخرج حشرة « الحفار » ، الطعم الذى لا يقاومه طير . وانسحب ثالث ليصلح شصه القديم . ابتسم واتسعت عيناه . وهو يرى السمك الملون يتقافز فزعا وحزينا ، وهو معلق بسنارته لحظة جذبها من الماء . وأكلت الغيرة قلوب النساء جميعا . حتى أم ليلى تذكرت صباها وتحسرت . تشابكت ايدى سعاد وليلى .

— كأنهما اختان !

لكن عينى سعاد سوداوان ، وعينى ليلى زرقاوان . وجه سعاد مستدير ، ووجه ليلى مستطيل قليلا . شعر سعاد أسود ، وشعر ليلى أصفر كالكهرمان . ليلى جلبابها أطول ، عاشت عاشقة للجلباب القصير ولم ترتديه . يوم هبطت المدينة مع أمها ، انفصلت عنها عيناها . طافتا تلهثان وراء بنات المدينة . فراشات المدينة الطائرات . سيقانهن المرتعشة السريعة . عيونهن النارية . رؤوسهن المكشوفة . اثدائهن المتبدية . وقرأت ، فهى لم تزل تعرف القراءة القديمة ! ، « صائدة الرجال » ، وامرأة ممتلئة ، مكشوفة الصدر والساقين ، كانت تستلقى على ظهرها ، ويرتفع نهداها بدعوة صاخبة ، وأسفل الصورة كان اسم السينما . دارت النار فى صدرها . ارتعش ثدياها . أحست ان ساقيها تلتصقان . ضحكت . مما تخاف ؟ .

الواقفات . عادت سعاد ضاحكة متهالكة إلى النساء الجالسات ، تشعر بحبات العرق تجرى هابطة بين نهديها وساقيها ، وتتجمع فى سرتها تحرقها ، ويحرق الدفء إبطيها . « ويلى وويلك الليلة ياشيخ مسعود » . وضحكت بقوة . لم تفهم النساء سر الضحكة . وسقطت ليلى فى الحزن .

غدا ستقفز بين العربات . فوقها . تنبش وسط الكنسة كالجرذ . سيطاردها العسكر . وهى تعرف أن فريد لا يكرهها إلا لذلك . لكن هل هو بالفعل يكرهها ؟

حدثها ليلة أمس حديثا طويلا . ستقابله الليلة قبل انطلاق آذان الفجر ، وتعطيه نفسها . تعرف الآن أنه يريدها ، ولن تخاف . سوف يكون لها وحدها أو ستجعله كذلك . لكنها على يقين أنه لن يقبلها ، إلا إذا كانت يداها فى نصاعة ثدييها ، وقدماها جزأين من أعلى الساقين . لكن كيف . يأتى القطار غدا فينقضى حزن ، ويبدأ حزن .

وظهر الرجال قادمين من خلف البيوت . لقد انتهوا من صلاة العشاء . تفرقت النساء بسرعة ، وخلفهن الصبية والأطفال . أخذت سعاد ليلى من يدها . ابتعدتا فى اتجاه البحيرة لأول مرة . جلستا على حافتها . وضعتا اقدامهما فى مياهها الباردة . رفعت كل منهما جلبابها إلى فخذيها . انسكب ضوء القمر الواهن بين سيقانهما فأضاءت . قالت سعاد .

— هل تتناكح الأسماك ؟

لكن لم يبد أن ليلى سمعتها . قطعت ساقا من نبات الحلفاء ، وجعلت تقطع به خطوطا فى المياه ، ثم سألت نفسها ، هل حقا تعشق سعاد فريد ؟ . لم يقل لها ذلك صراحة ليلة أمس .

□ □ □

زيدان

كانت نعمة زوجة زيدان ، قد انسلت من بين النساء فى الحفل ، وذبحت ديكا . حين أقبل زيدان ، بعد صلاة العشاء ، ابتسم وزام سعادة . بعد ساعة كانوا أربعة حول الطبلية . هما وابنهما مصطفى وابنتهما أحلام .

وضعت نعمة اللمبة الغازية على جانب الطبلية . لابد أن يظهر الديك واضحا . قال زيدان فى نفسه « طبلية واسعة عريضة ، وديك صغير وحيد ، تتربص به ثمان أياد ، وأكثر من مائة من الأسنان والأضراس والأنياب » وظهر وجهه الأسود الخشن ، ممتلئا بالحفر الصغيرة .

زيدان يقول دائما « كانت الكوليرا تجتاح مصر كلها ، والجدرى ينفرد بقريتنا . والنتيجة كانت فوز الجدرى بالجولة » ويضحك زيدان ويزوم سعادة بعد كل قول .

ينظر إلى وجه أبنه الحسن ، الذى يشبه وجه نعمة ، فيضحك ويزوم سعادة . ينظر إلى وجه أبنته القبيح ، الذى يشبه وجهه ، فيضحك ويزوم سعادة .

حين تكشر له زوجته ، يضحك ويزوم سعادة . ما أكثر ماقالت له « أنت رجل عديم الدم » فضحك وزام سعادة . حين غاب القطار تشاجرت معه ، فضحك وزام . تركت له البيت ، فتعلق الطفلان بزيل جلبابها يبكيان ، تعلق هو بذراعها ، فطرحته على عتبة العشة فوق ظهره ، رغم أنه يزنها مرتين . ضجت النساء بالضحك والرجال ، وصرخ هو كالأطفال « لاتتركينى يانعمة » . وبالليل ضحك وزام سعادة حين كانت تتمنع عليه ، وكان هو يتذكر ماجرى .

قالت نعمة .

— هذه الطبلية من نعم القطار .

زام زيدان . مد يده ليمسك بالديك يقسمه . مدت يدها . تراجع زائما. قالت .

— هل رأيت قطار الجيش . ؟

هز رأسه فلم تفهم مايعنى .

— لماذا كان هناك قطار يتجه إلى الغرب ، وآخر يتجه إلى الشرق ؟

لم يرد .

— هل رأيت الجنود والسلاح فوق القطارين ؟

لم يرد

— أنت لا تعرف شيئا أبداً .

— أنا جائع . ثم إنك تشغلين نفسك بالقطارات كثيرا ، نحن لم نمت بدون القطار .

لاحظ أنها أعطته نصيباً كبيراً من الديك . وقالت بوداعة .

— كل يازيدان ، بالهناء .

قال

— لا أعرف فيم يفكر الولد جابر . إنه حزين هذه الأيام أكثر من أى وقت .

لم ترد . لم تأبه .

— ينفرد كثيراً بحامد زوج زينب . يتهامسان . حين يقترب منهما أحد ، يفترقان أو يصمتان .

— لا شأن لنا بأحد .

— سمعتهما يلعنان الشيخ مسعود أمس . أما اليوم فلم أرهما .

— كل يازيدان . لا تتحدث كثيرا .

قالت ذلك بضيق . لكن زيدان لم يستطع أن يأكل بنفس الشهية التى أقبل بها على الطعام . أحس أن شيئا ما لايفهمه ، كان عليه أن يفهمه . تساءل فى نفسه ، ما هو سر السعادة التى هو فيها دائما ؟ ثم قال .

— خير على كل حال أن يأتى القطار غداً . حالة الناس كانت صعبة .

أيكون ماحدث سببه غياب القطار ؟ . لقد حاول صيد السمك طوال الصيف فكان يفشل . جاب كل مناطق البحيرة ، القريبة والبعيدة،المرة الوحيدة التى أحس فيها أن سمكة كبيرة قد علقت بسنارته ، وقام واقفا ، مستجمعا كل قوته ، وبذل جهدا خارقا فى إخراجها ، وأحس بالسعادة يرقص لها بدنه ، لم يدرك أنها لم تنتفض حين قابلها الهواء فوق الماء . حين لامست الأرض ، لم تتقلب أو تتقافز . حين أمسكها وجدها ميتة . أدرك أن الرائحة النتنة التى ملأت الفضاء فجأة ، كانت تنبعث منها . تركها وهرول ممسكا معدته التى كادت تقفز إلى فمه . جلس على الأرض وجعل يتقيأ بعنف .

فى ذلك اليوم ، استخدم أجود أنواع الطعم . ذلك الدود الثعبانى الرفيع الذى يعيش تحت طين الشاطىء . الدود ذو الجلد البنى اللامع ، الذى يبرق تحت الماء ، فتأتيه الأسماك من الأعماق السحيقة . لم يعد بعد ذلك يخرج للصيد عصر كل يوم ، ولا فى صباح الأجازات . أمضى بقية الصيف يخرج فى الأصيل يسير بين مزارع التين فى الصحراء ، ولا يعود إلا حين ينهره أصحابها . ثم يقطع رحلة أخرى إلى مزرعة حكومية مهجورة ، يتأمل فيها طواحين الهواء العالية . ويظل واقفاً تحتها ، رافعاً بصره إليها لأوقات طويلة . تبدو له الطواحين وهى تدور ، فيدور حولها حتى يسقط فوق الأرض . يقول « دورى دورى يا طاحونة وابعثى قطار المؤونة » . ويفهم معنى ذلك الآن ، أنه ليس هو . إنه هم » . أجل ، هم ، هم ، هم .

— ما هى «هم» هذه يازيدان؟ انك لا تأكل

قالت نعمة بدهشة ، فاشتبك مع الصدر بسرعة . نزع منه قطعة لاكها فى فمه . كانت مرة . بصقها . قام وجلس فوق الأريكة . كانت نعمة قد انتهت من اطعام الطفلين . انهضتهما ليناما فى الحوش الليلة .!

أحضرت بعد ذلك «الفورايكة» من أمام العشة فى الخارج . دخلت بها مسرعة تلفح النيران وجهها . وضعتها وسط الحجرة . خرجت الى المرحاض . غسلت اليدين والقدمين . مسدت شعرها بالماء والعطر الرخيص . توقفت قليلا وسط الحوش المعتم ، حيث نام الطفلان فوق فراش على الأرض .

غدا ستقفز فوق القطار . ستطاردها الشرطة من عربة الى عربة . ستضع فى يد الشرطى قطعة نقود . سيتركها . لا ، لن يحدث ذلك . سيحميها عرفة . ستنهش قلب العربات . هل ستجد شيئا فى السبنسة ؟. فيها تخبىء الشرطة قطعا ضخمة من السبائك المعدنية . سمعت مصطفى يقول «اسقينى».انه لم ينم بعد . ملأت كوزا وناولته . كانت تود لو شابه أباه وشابهتها البنت .

كان مصطفى ينظر اليها من فوق حافة الكوز وهو يشرب . أعاد لها الكوز . مسحت له فمه . قبلته . غطته وهى تبكى . هل يفهم مصطفى ؟ اذا كان لا يفهم ، فلماذا يكره حضور عرفة ؟.

فاجأها وهى تتسلل الى السبنسة . أغلق بابها قبل أن تهرب . كان الباب الثانى مغلقا من قبل . لقد أعد كل شيىء . قال لها لن تستطيعى الهروب من النافذة . وقفت متنمرة . كم ودت ساعتها لو وجدت قطعة واحدة من الحديد ، وشجت بها رأسه . تقدم منها . حرك ترباس بندقيته الى الخارج والخلف . قالت «سأصرخ» قال «سأقتلك والحق معى ، أنتم لصوص» . قالت «إنه قطار كنسة» . قال «القانون هو القانون» . توسلت اليه مرة واحدة ، ثم قالت لنفسها «ولو» . مالت نحوه بسرعة حتى انه ظنها ستخدعه . تراجع وقال اخلعى ثيابك أولا . وجدها طيعة . رفعت له جلبابها من الأمام . لم يكن تحته شيىء . قال لها لم أعرف مثلك على طول ماسافرت مع

القطارات . ضحكت بسخرية . أخذ يحدثها عن شفتيها المكتنزتين . ردفيها المكورين . ساقيها المخروطيتين . ثدييها الغاضبين . قدرتها العالية على التحكم فى أعضائها . ووعدها بالقطار القادم كله . هبطت من السبنسة وهى تسوى شعرها . وجدت مصطفى تحت السلم واقفا يبكى . لم يأت القطار بعد ذلك . أستقر عرفة فى المنطقة وصار صديقا لزيدان .

كان مصطفى قد نام . أقبل زيدان يغسل يديه . تذكر أنه يفعل هذا رغم أنه لم يأكل . حين عاد الى الحجرة كانت قد سبقته واستلقت فوق السرير عارية تماما مندوفه العانه . لم يخلع زيدان ثيابه . صعد جوارها . لم يشعر بالنار تحته وهو يجاورها الى الداخل على غير عادته . ولاها ظهره .

— زيدان .

لم يرد . رفعت جلبابه الى أعلى . التفت حوله .

— زيدان . الليلة عيد . القطار غدا .

كانت عيناه مركزتين على السقف .

— زيدان ماذا جرى .؟

كانت قد بدأت تمطر فى الخارج . خافت . غطاها بالحرام الصوفى حتى عنقها . قال وهو ينظر الى وجهها بإمعان .

— اتركينى يانعمة . أنا لست أنا . والقطار لن يأتى .

□ □ □

عبد الله

الليلة يحتفلون بوصول القطار غدا . عشرون دارا متقاربة ، ملتصقة ، تكاد تكون متكومة فوق وجوار بعضها . الناظر اليها من بعيد ، يقول أن وداً عظيما

يجمعها ، والخائض فيها قد يلعن الدور ومن بها . قد يبكى أو يصاب بالجنون . عشرون دارا على هامش المدينة ، يحدوها ماء البحيرة والصحراء ، تمر خلفها قطارات وقطارات ، ومن بينها جميعا كان لهم ، مع قطار واحد ، شئون وشجون كما يقال !.

يهيئون الليلة أنفسهم للاستقبال . والمطر صار شديدا . الليل يتباطأ . ومضت ساعات على احتفال النساء . نامت بعض حجرات على آمال غامضة ، لكن حجرات بعينها كان فيها عصف ريح مكتوم .

فى هذه الليلة كانت «الفواريكة» جوار الآمال والأحلام ، هى القاسم المشترك بينهم . الفواريكة اسطوانة الصفيح سميكة الجداران ، متسعة الحلق واطئة الارتفاع ، التى يركبون لها اذنين من شرائط الصفيح السميك ، ويقسمونها الى نصفين ، يملأ جدار النصف السفلى بالثقوب ، ويبطن جدار النصف العلوى من الداخل بالطمى الأصفر فهو الذى سيوضع فيه الخشب والكوك . الفواريكة خفيفة الوزن سهلة الانتقال ، خرجت الليلة من مكامنها الصيفية فى العشش . ظهرت أمام البيوت تقاوم السنة نيرانها نسمة المساء الطرية . صنع دخانها موجات كثيفة ، شفت أمام بيت ، وكثفت أمام آخر ، ثم شفت كلها ، وصفت نيرانها فتألقت بالاحمرار . وخرجت لها أيادى النساء طويلة مدببة مسننة الأصابع ، أو أيادى الرجال المربعة ، متسعة الراحة ، متشققة الجلد . عمال السكة الحديد مشققوا الجلد دائما ، ينام فى مسام جلودهم بقايا المازوت اللعين . تقف تحت وأمام أيادى الرجال ، الأقدام العريضة نافرة العروق ، ناتئة العظام ، الإبهام ضخم متورم من ضيق الأحذية الثقيلة ، أسود دائما له ظلف قوى محنى على الأصبع من أمام ، يحفظ ما تحته من تراب ووسخ . فوق الأقدام تقف السيقان الضامرة ، يتناثر فوقها الشعر متفرقا بلا اتساق ، تبرز قصبة الساق كمستطيل من الخشب ، يتهدل جلد الربلة الى الخلف ، يهتز لكل حركة ، فيبدو مضحكا . وفوق الركبتين يبدأ السروال العبك ، الواسع القاتم ، تتدلى وسطه تكة من الحبال الخشنة . فوقه يتجلى الصديرى البنى أو الأسود ، المقصب بخطوط رأسية بيضاء ، تبرز من

تحته الفانلة الصفراء أو البنية ، طويلة الأكمام . وحين انتصف الليل كانت الجمرات انطفأت فى بيت عبد الله . وكان يسأل نفسه «لماذا لا نتزوج الارانب ؟» .

عبد الله لا ينام إلا بعد أن تنطفىء الجمرات . لا يفكر أن يطفئها بالماء اذا غلبه النوم ، أو يلقى بها فى الخارج . يظل يقاوم النوم حتى تنطفىء . فمنذ عشر سنوات ماتوا . قام يتثاءب كالعادة . توضأ خارجَ المخزن ، ثم عاد ليصلى الصبح ، بعد أن سفع هواء الشتاء وجهه بإبر رفيعة . جعل وقفته أمام النائمين الخمسة من زملائه . فى الركعة الثانية لم يستطع أن يرفع وسطه . قطع الصلاة مستغفرا . استدار . لم يسمع همسا ولا نفسا . تزلزلت ركبتاه . استعاذ بالله من الوساوس . التفت ليعاود الصلاة . لم يستطع . استدار . كانوا بالفعل موتى . فسر الموت بعد ذلك أنه جاء نتيجة للاختناق الناتج عن استمرار الكوك مشتعلا طول الليل فى الفواريكة . من يومها لا ينام الا بعد أن تخمد الجمرات تماما . وحين خمدت الليلة ، أخرج الفواريكة إلى العشة وهو يسمع صوت دقات المطر فوق السقف . عاد ليجد زوجته لاتزال ترتق مقطفا كبيرا من الحبال ، بالحبال .

— لقد انتهيت من ثلاثة مقاطف . ألا تكفى ؟
— انها عودة بعد غيبة يا عبد الله .

رأى صغيرتين نائمتين فوق الاريكتين بلا حركة . تذكر أن هناك أربع أخريات نائمات فى الحوش . ردد السؤال فى نفسه «لماذا لا نتزوج الأرانب ؟» ثم مال رأسه بحزن طافح .

— لا تغتم يا ولدى .
— انه الولد يا شيخ مسعود . الولد وقد تجاوزت الخمسين .

وسمع العجوز أم جابر تقول :

— القطار القطار ، فى عودته النجاة ، وفى غيبته البلاء .

وكان القطار قد انقطع عن المجىء منذ شهر ، وفشلوا أن يعرفوا سر انقطاعه . بالضبط كما لا يعرف أحد منهم سر حضوره . وأخذه الشيخ مسعود الى الجامع

الصغير خلف البيوت . توافد العمال . حكى كل رجل منهم حكاية عن زوجته ، وكيف أنها أجهضت ، وفى ولد بالذات ! شجعوه بأن الصحة موجودة . وكان هو يشعر بتسرب الصحة . صلى معهم . سقطت دمعة على الحصير . رآها تتزلق بين عيدانها الصفراء والخضراء .

تطلع الى وجه زوجته الضخم . الوشم فوق جبهتها مستدير كبير مزركش المحيط،على ذقنها مستدير مستو صغير ، على أنفها نقطة خضراء صغيرة جوارها خال ضخم ناتىء متدل . سألها .

— ستأخذين سميرة معك .؟

— ربما . انها لم تتكلم اليوم . وفى الحفل كانت مغتمة رغم أن الجميع رقصوا وهللوا .

قال :

— لو كنا سألنا عن أسرته . لو عرفنا أين أهله . انت ياامرأة !؟

سكتت قليلا ثم قالت .

— أقول لك الحق ياعبد الله . مرسى قال إنه مقطوع من شجرة . وأنه يعمل «مسفرا» على القطارات ، والقطارات منزله وأهله وبلاده .

وضحكت

— لماذا تضحكين ؟

— انى أبكى وأضحك معا . كان يحضر كل أسبوع مع القطار . لابد سيحضر غدا ومعه هدايا كثيرة لسميرة .

قال .

— أريد أن أسألك عن النساء والشرطة .

نظرت اليه فى عجب . قالت .

— لاأحد يقترب منا . وحكاية نعمة وعرفة كذب فى كذب .

— ومن أيضا .؟

— اذا كان لابد ، فهى سعاد ، انها لاتخرج الى القطار ، لكن الكل يعرف

ماذا تفعل مع ابن المفتش فوق السطح .

قال مطرقا ..

— لا تأخذى سميرة معك غدا .

لا يعرف لماذا قال ذلك . لكنه على كل حال تحسس عنقه ، فوجده رفيعا يكاد ينكسر . قال .

— هل تعرفين حزنى وبلواى .؟

قالت .

— انك سوف تقتل نفسك ، هذا كون منظمه صاحبه .

انه يسير وراء القضبان ، التى تمتد الى لا نهاية ، يحمل فوق كتفه مقطفا معلقا خلفه على عتلة ، فى المقطف جاكوش وبعض مسامير ومفتاح فرنساوى ، يلف ذراعه اليمنى على العتلة من أمام ، يوازن بها ثقل المقطف المعلق خلفه ، ويمضى وراء القضبان . يسير دائما من الشرق الى الغرب صباحا بحثا عن أعطاب بالسكك . الأعطاب الصغيرة يقوم باصلاحها بنفسه . الكبيرة يضع فوقها علامة بالطباشير وحين يعود آخر النهار يخبر العمال أو المفتش بها فيصلحونها فى اليوم التالى مسترشدين بعلامة الطابشير . قرص الشمس دائما خلفه . حين يعود فى المساء ، يكون قرص الشمس أيضا خلفه . تتركز الشمس على قفاه ذهابا وايابا . كم ود أن يرى قرص الشمس مرة واحدة . يعرف أن الشمس تخرج من الشرق الى الغرب ، وهو أيضا يفعل ذلك ، فهل هو أسرع منها حتى تظل خلفه دائما ؟. لو استطاع أن يمسك بها يفتح قلبها ليرى أى نار فيه . مرسى خطيب سميرة الغائب ، لاشك يلحق بها . انه يسير بالقطارات . قد يصطدم بها أو يمر عليها !. عشرون عاما والشمس تطارده . عشرون عاما يتساءل لماذا تدور الشمس وتعود ؟ لماذا لا تموت مثلنا وتأتى غيرها قد تخرج من جهة أخرى ؟ وكم حاول وهو يسير فى الصباح أن يلتفت عائدا وخانته قدماه . رفضت قدماه الدوران الى الخلف . إنهما لا تدوران الا فى موعدهما الذى تعودتاه عشرين عاما ، حين تكون الشمس فى الغرب ، فتظل خلفه .

— خذى بالك من العسكر ياولية .
غدا سيكونون شرسين .
لم ترد . سمعت صوتا مختنقا بالأنين قادما من الحوش . نهضت واتجهت إليه .
سمعها توقظ ابنتها
— سميرة . سميرة .

هزتها بيدها . قامت سميرة الجميلة كما تقول عنها أمها ، وكما تقول هى عن نفسها . كانت فزعة . ناولتها أمها كوب ماء . شربت والأم تقرأ «قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس» ومسدت رأس ابنتها وهى تتلو ذلك . ثم نامت سميرة على جانبها الأيمن كما نصحتها أمها . غطتها الأم باللحاف القديم . عادت لتجد زوجها صعد السرير . صعدت جواره بعد أن جاوزته الى الداخل.سمعا صوت زخات المطر بوضوح . قالا معا .
— المياه تنساب على الجدران .
نزلا . حركا الأريكتين بعيدا عن الحائط . أحكما لف الطفلتين . عادا الى السرير . قال عبد الله
— حسبت أن نظرى ضعف ، لكنها اللمبة نمرة خمسة . لماذا لاتشترى نمرة عشرة ؟

وقف الكلام على شفتى زوجته . ان اللمبة نمرة عشرة . استدارت على جانبها الأيمن . استدار على جانبه الأيسر . جذبا فوقهما الحرام الصوف الخشن . وضعت ذراعها حول وسطه . جذبته اليها . وضع ذراعه حول وسطها . جذبها امتدت يدها تحت جلبابه تنزع سرواله . امتدت يده . قالت فجأة ...
— ماهى حكاية قطارات الخواجات التى تمر كل يوم ؟
لم يرد .
— اليوم قالوا أنهم رأوا خواجة يقبل امرأة خلف النافذة .

— الولد يارقية .
— الولد ياعبد الله .

ولم تكن ليلة شتوية . كابدا كثيرا وغرقا فى العرق وانفصلا . كابدا وانفصلا . انفصلا . أعطته ظهرها وهى تبكى بحرقة . ولاها ظهره صامتا . رأى أمامه خطوط الماء المنسابة فوق الجدار ، رسوما غير مفهومة ، بدت له مرة كأشعة الشمس ، ومرة كقطار . كفتاة تحيط بها أياد كثيرة ، أو كرجل يمشى وحيدا وراء القضبان فى الصحراء . جعل قلبه يدق بعنف . تمنى لو أذن الشيخ مسعود للفجر الليلة .. تمنى لو ظل الشيخ مسعود يؤذن طول العمر . وكأنه كان يعرف ، خاف كالطفل الصغير ، وتساءل لماذا قبض الريح ؟

□ □ □

على

كانت ليلى قد عادت ، فى الوقت الذى كان على يسأل نفسه ، لماذا تخرج حين يقترب الفجر ، وأين تذهب ؟؟. لماذا خرجت الليلة وأمس قبل ذلك بكثير ؟ ولماذا عادت متأخرة ؟. لم يفكر أن يسأل أخته من قبل ، ولن يسألها الآن أيضا . لكنه يشعر منذ زمن أنها تعانى شيئا ما . يشعر بذلك حين تخرج دائما ، ولا تعرف أنه يقظ . وهو نفسه لا يعرف ، لماذا حين يقترب الفجر يستيقظ . والآن استيقظ مثل أمس ، قبل الفجر ، وشعر بخروجها الذى اختلف موعده . وبعد قليل سيسمع آذان الشيخ مسعود يتسرب رفيعا مختنقا . أبوه لا يخرج لصلاة الفجر . إنه يغط دائما بصوت عال ، ويملأ غطيطه الحجرة ، وقد ينفذ الى الفضاء الخارجى . ربما كان ذلك سبب استيقاظه . حين يسمع الآذان ، ينتهى غطيط الأب . يجثم سكون ثقيل على الحجرة . يشم على رائحة الأثاث والفراش القديم . تنقلب الأم فيطرقع السرير تحت ثقلها . ربما تزوم أو تغط

بأنفها مرة أو مرتين ، ثم تعود الى الصمت . والجدار دائما أمامه خطوط وصور كثيرة ، وليلى توليه ظهرها . سريرهما ضيق لا يترك مسافة معقولة بينهما . يقرفص ويضم ركبتيه الى صدره . لا يبتعد عن الجدار . ركبتاه تلامسانه دائما . لا يصدق أن الغطاء الصوفى ، الذى يلفه أبوه حول ركبته كل مساء ، يداوى آثار جدار قديم !. لن يحتاج لهذا الرباط حين يكبر . لن يؤثر فيه الجدار ، ولا أى شيء . هم الذين جعلوه ينام الصيف مبكرا بالقوة . يذكر دائما الصيف الأسبق . كان يسهر تحت المصباح الوحيد ، أمام بيت المفتش ، يجهز الشص لصيد الأسماك صباحا ، والفخاخ لصيد العصافير عصرا فى المساء كان يذهب الى البحيرة غير وجل يستخرج دودها ، ويضعه فى « حق » مع نفس قطع الطين السوداء حتى الصباح . يعود إلى المنزل فيغتسل . يعود الى أترابه فيلعب ، ويشارك فى فصولهم المضحكة .

انقلبت أخته الصغيرة من فوق الأريكة . هبطت ليلى لترفعها . لم تنم بعد . كل ليلة تهبط ، لا يهبط أبوه ولا أمه . ينتظر سقوط أخته الصغيرة ، وهبوط ليلى اليها . فى هذه اللحظة يتقلب الى الناحية الأخرى بسرعة ، ثم يعود إلى وضعه الأول . يشعر بسعادة لأنه أراح جانبه !.

بعد أن تصعد ليلى ، تظل منطرحة على ظهرها . عيناها شاخصتان الى سقف الحجرة . لا يعرف فيم تفكر . والآن فعلت ذلك . سمعها تتمتم . لم يميز كلامها . دائما بعد أن تصعد ، بعد أن تفكر كثيرا ، تضمه اليها .يترك نفسه بين يديها كميت . يعض شفته السفلى ويغمض عينيه فلا يرى الجدار . يضع يديه بين فخذيه . يتألم ألما حقيقيا . لا تعرف إنه كبر . فى أول الصيف الماضى ، تألق النهار . أصبح يغتنم فرصة خلو البيت لينام فوق بطنه . لم تعد تفارقه رائحة كثيفة ، تتسلل اليه من سرواله . فى بداية الصيف لم يصدق كلامهم عن القطار ، وما حدث بسببه . بعد ذلك صدقهم ، وان كان مايزال يشعر بشيء غير واضح فيما يقولون . يغيب القطار فتموت الأسماك . لماذا ؟ لا يستطيع أن يتحدث مع أحد فى ذلك . يموت الدجاج . لماذا ؟ تختفى القنافذ . لماذا ؟.

لا يستطيع أن يسأل أحدا ، فليلى لا تعرف أنه كبر . ولا أحد يعرف أن الصيف الذى لعنوه ، كان صيفه هو . ليلى الآن ، بعد عودتها من الخارج ، لا تشده اليها . هل هى سعيدة بحضور القطار فى الصباح .؟ يكره القطار . يكره الشرطة . يكره النساء وماتفعله . والرجال وغفلتهم . إنه يذهب مع إخته ولا يتركها . يقفز فوق العربات كالقط . يظل فوقها قابعا كالقنفذ . القنفذ الذى لم يصطده طوال الصيف الماضى . لا ينسى أنه اشترى بطارية ، ليسبق اترابه فى الكشف عن القنافذ . دائما يكون القنفذ تحت التحويلة . تحت عامودها الحديدى الممتد بين القضيبين . أو بين قضيبى التحويلة المتجاورين . ويدهش كيف لا يخاف أن ينطبق عليه القضيبان فيموت . ذات مرة سأله أحد الصبية عن ذلك . وجد نفسه يجيب بسرعة .

— هذه التحويلات أرضية ياغبى ، وكى تتحول لابد أن يأتى من يحولها . فيشعر به القنفذ ويهرب .

تعجب من نفسه كيف أدرك ذلك ، وهو ما كان يسأل نفسه عنه . لقد كان يعرف الإجابة ولا يدرى بها . أحس بالزهو . ان التحويلات التى يجدون القنافذ بينها ، كلها لا تعمل إلا باليد . لم يجدوا مرة قنفذا بين تحويلة تتحرك من البلوك . فى هذه الحالة يجدونه تحت العامود الممتد بين القضيبين . حين يتحرك العامود ، يتحرك فوق القنفذ فلا يؤذيه . أما تحويلات اليد فتحتاج لمن يحولها كما قال . وأقدام عمال السكة الحديدأحذية ثقيلة كبيرة ملطخة بالمازوت والتعب ، والرجال معوجون فى مشيتهم كأبيه .

على يعرف أنه مميز عن أقرانه . إنه بالكاد فى الثانية عشرة . لكنه طويل . أطول منهم جميعا . وقوى . أقوى منهم جميعا . وذكى رغم أن أباه منعه عن التعلم . وأبوه متدين جدا ، رغم أنه لا يخرج لصلاة الفجر . يظل أكثر الليالى يقرأ القرآن ويسبح . يقول دائما يالطيف يالطيف

يالطيف . أمه تخاف من تسابيح أبيه . قالت أنه فى ليلة ، هبط عليهم ملاك ضخم ، شق السقف وفرد جناحيه على أبيه ، وصرخ على ، النائم جواره فى ذلك الوقت . وهو لا يذكر أنه رأى الملاك أو صرخ . وأمه تؤكد أنه رآه والا ما كان صرخ ، ولا تعرف أنه لا يحب الصراخ ولا الحزن . فهو لا يحزن وهو يرى أباه حزينا من شدة المذلة والفقر كما يقول . يحزن فقط حين يرى ليلى حزينة . حين يحس دموعها فيحبس دموعه . لكنها الليلة لم تفعل ذلك . ولم تلتف حوله رغم أنه متقنفذ حول نفسه !.

إنه يسلط ضوء البطارية على التحويلة من بعيد للحظة سريعة ، فالقنفذ يحس بالضوء . يطفىء ضوء البطارية . يبتعد عن القضيب . يدور كالضبع فى دائرة واسعة . أبوه قال أن الضبع يدور كذلك . وهو لم ير الضبع . لكنه يصدق ما يقوله أبوه عن الشوكة التى فى عنقه ، والتى تدفعه الى ذلك الدوران الواسع . ويسير على أطراف أصابعه . إنه حاف ، لكنه ينظف قدميه قبل النوم . قدما أبيه نظيفتان دائما . أبوه يتوضأ كثيرا . هو لايتوضأ . توضأ مرة وذهب الى الجامع . انقطعت جلدة القبقاب فى الطريق . أخذ القبقاب فى يده وسار حافيا كان الشيخ مسعود يؤذن أمام الباب . قطع الآذان وشتمه . على لا ينسى أبدا أن الشيخ مسعود قال « حى على الصلاة امشى يابن الكلب يانجس . حى على الفلاح » . ولى هاربا الى المنزل يبكى . قالت أمه « قطيعة تقطع الشيخ مسعود واللبؤة زوجته معا . صل فى البيت ياولدى » . لكنه لم يصل ولم يتوضأ بعد ذلك .

فى أول الصيف الماضى حين تألق النهار أراد أن يرى اللبؤة هذه كما لم يرها من قبل . حلم بها . رضع حلمة ثديها فى المنام ، وبكى على صدرها . هدهدته . وظل طوال الصيف ينتظر الشتاء ، فسعاد فيه لا تستطيع النوم وحدها فى البيت . فى أكثر الليالى يتركها الشيخ مسعود وحيدة ويمضى الليل فى الجامع يتهجد ، فتأتى وتصطحب ليلى لتؤنس وحدتها ، وسيأخذانه معهما هذا الشتاء كما كانا يفعلان

دائما . وكانت ليلى ماتزال تتمتم ، وهو مايزال متقنفذا . ظهر أبيه مهلهل كظهر القنفذ . كلما رأى ظهر صديرى أبيه قال لنفسه ذلك .

بعد أن ينهى دورة الضبع . يصبح فوق القنفذ . يمد يده الصغيرة دون أن يمسكه . شوك القنفذ مشرع . وحين تصبح كفه فوق ظهر القنفذ مباشرة ، ويكاد النفس المحبوس فى صدره أن ينفجر ، وتؤلمه الزلطة الحادة التى تحت قدمه كثيرا ، يمسك بالقنفذ الذى يتكور مشرعا شوكه فيحمله برفق بين يديه . يضحك ولا يفزعه صريخ القنفذ . يجرى مهللا إلى عم عبد النور ملاحظ البلوك . الرجل أسود الوجه ، الذى يهوى شراء القنافذ وأكلها كما يقولون . يعطيه عم عبد النور قرشا أو اثنين ، بحسب حجم القنفذ . ينزل من البلوك ليرى محطة السكة الحديد الخالية . لا قطارات تأتى بالليل . لكن الصيف الماضى حفل بالقطارات الليلية . هكذا سمع الكبار يتحدثون . قالوا ان ببعضها جنودا ، وببعضها خواجات . تسلل مرة فوجد قطارا به اناس حمر الوجوه . رجالا ونساءا . اقترب من القطار أكثر مختفيا وراء حجرة ناظر المحطة . سمع كلامهم . لم يفهمه. قال انهم فعلا خواجات !. ورأى خلف النافذة رجلا يضحك بفم واسع ، وخلف نافذة أخرى امرأة عارية ، تخرج ثدييها من فوق الزجاج . وفى ليلة أخرى ، تسلل ليرى الخواجات . رأى قطارا أسود مزدحما بالمعدات الضخمة والجنود . لم يسمع شيئا هذه المرة يفهمه أو لا يفهمه .

وهو الآن لا يفهم تمتمة أخته . فى البداية حسبها صوت حبات المطر الهزيلة فوق السقف . لكن المطر اشتد . واستدارت ليلى فانكمش أكثر . قبلته فوق كتفه بحنو .عادت فاستدارت وولته ظهرها . نامت . قال لنفسه لا داعى لأن ينكمش أكثر من ذلك . فرد جسمه . لكنه سمعها تقول لنفسها ، « كان خطأ كل مافكرت فيه . سيحفظه الله لى . لن يقرأ أوراقه أحد غيرى . وسأفهم » .

لم يفهم شيئا مما سمعه . ازداد دهشة . عن من تتكلم ليلى ؟ . ودوى رعد عاصف زلزل الجدران ، وسطع ضوء ملأ الحجرة قادما من خلف الكوة الزجاجية

الصغيرة العالية . وظل الرعد مدوياً كأنما السموات تقع فوق بعضها وفوق الأرض ، تذكر علي أصغر قنفذ اصطاده ورفض عبد النور شراءه . كان ذلك منذ عامين . وكيف انه بعد أن تركه لم يجر . بل تكور حول نفسه فاردا شوكه خافيا وجهه ذا الفم الطويل ، وأصبح مثل كرة من الشوك . كم ود ليلتها لو أخذه إلى المنزل وتركه فيه . فالقنفذ يأكل الحشرات كما قالت أمه . لكن أباه يكره رؤيته . ويقول أن فمه يشبه فم الفأر رغم طوله ، ويشعره بالقرف . لذلك أطلق سراحه . وظل طويلا يتعجب للقنفذ الجبان الذى لايريد أن ينهى تكوره ويجرى . ويتعجب لعم عبد النور الذى يشترى القنافذ ويأكلها . ولكن عجبه ازداد ، حين سأل عم عبد النور ، فقال انه يشتريها لأنها تأكل الحشرات ، وأن الحشرات استشرت فى كل مكان ، وهو يريد أن ينظف الدنيا منها . لكن القنفذ الجبان عاد فأنهى تكوره وجرى ، وكان شكله مضحكا ، وهو يقفز جوار جدار حجرة ناظر المحطة النائم ، وفوق الرصيف حيث تركه علي .

تذكر علي أشيــاء أخــرى . لم يعرف لماذا تذكـر أنه سمع أحاديث كثيرة عن أختفاء حامد وجابر ، فأحس بأن صباح هذه الليلة سيأتى مختلفا ، وانكمش ليصير فى حجم ذلك القنفذ المذعور .

□ □ □

الشيخ مسعود

حين بدا أن الليلة توشك على الأنتهاء . أن السموات تقع فوق الأرض من قوة الرعد ، تبددت الآمال ، أو كادت ، فى أكثر من منزل . شعر الجميع أن نيران الفواريكة ، تبدد دفأها ، ولزم البرد الحجرات كعدو مكتسح . التفت الأجساد حول بعضها ، انسحقت الرغبات . وبدا أن البحيرة فاضت بمياهها ، وأن الصحراء ماجت بالرياح ، وتذكر كل واحد خطاياه . وصرخ الأطفال من فزع

مهول . نادت أم جابر العجوز ربها « ارفع مقتك عن عبادك الخلصاء » ، وصارت ترددها بلا توقف وهى تبكى بحرقة لغيبة ابنها الذى لم يعد منذ الصباح . قامت زينب واحتضنت أطفالها الثلاثة وهى تبكى لغيبة حامد الذى لم يعد منذ الصباح أيضا ، تذكرت حضور جابر فى منتصف ليل أمس وخروجه بسرعة بعد أن أسر ببعض كلمات لم تسمعها لحامد فى العشة ، كيف خافت حين سمعت الطرقات فوق باب العشة وكيف أمسكت بيد حامد بضراعة وهى لاتدرى لماذا تفعل ذلك.قالت والحزن يطبق عليها ، « لماذا فعلتها ياحامد ؟ » وكأنها كانت تعرف كل شيء . وقام زيدان مهرولا الى المرحاض . وصرخت أم سميرة بدعوة أن يعود مرسى لابنتها ، بحق البرق والرعد والزلزال والطير السابح فى الفضاء . انفجرت دموع سميرة ساخنة مرة . استدارت ليلى لتأخذ علي فى حضنها بقوة ، وهو لأول مرة يخاف وينكمش أكثر من القنفذ الصغير . أما عبد الله ، فقد ابتهل الى الله أن يكف الشمس عنه ، وأن يرزقه بالولد ، وأن يصل دعاؤه من بين أبواب السماء ، التى انفتحت بالغضب . وقال ياربى ليس لى خطيئة واحدة تأخذها علي . ودعت نعمة على عرفة أن يموت ، وعلى مصطفى أن ينسى . فزعت سعاد ، فهرولت من فوق سريرها ، فاصطدمت بالطبلية ، التى يقرأ زوجها عليها القرآن ، وسقطت على الأرض ، فأصيبت جبهتها . سال الدم وهى تزيد ضوء المصباح الغازى وتهتف فى نفسها « أين أنت ياشيخ مسعود ؟ » . ابتهلت لله أن يحفظه ، وهى تدور فى الغرفة مرتعشة مزعورة ، تقول « اللهم اجعله خيرا ، لأم ولا أب لى ولا ولد » . أدركت أنها أفاقت من حلم جميل كان يرافقها فيه الغلام علي . وأيقن الجميع أن الحفل غضب .

لكن أشواك البرد ، كانت قد انهزمت فى الجامع الصغير . وكان الدفء يملأ المكان ، حتى أن الجامع صار صغيرا جدا حول الشيخ مسعود .

يانار كونى بردا وسلاما على المؤمنين .

هكذا كان يردد . اللهم أدفىء قلوب عبيدك بالإيمان . ونهض بعد أن أغلق كتابه

بيمينه . يعلم السر وأخفى ، وهو علام الغيوب . وضع الكتاب فى مخلاة قديمة ، وعلقها على مسمار فى الحائط . استعد ليؤذن الفجر .

دار فى الجامع الصغير ، شيخا منحنيا تتهدل لحيته البيضاء ، وتقاوم عيناه الضيقتان ، النوم الثقيل . الوحل ياشيخ مسعود سيسد عليك الطرق . أنت ماتعودت أن تؤذن الفجر فى المسجد . دائما كنت تؤذن وأنت تدور حول البيوت . ترجع الآذان أكثر من مرة . خيوط النهار كانت تقوى مع ترجيعك . آه . انه الصيف . لكن أين هو ؟ . الشتاء هذا له طعم شرس . أقبل مبكرا فبدا كأنه يريد أن يغتصب الدنيا من الفصول . وهذا الليل الثقيل ، لن تتفتح أستاره عن كوى الإشراق . حين كانت روحك تبلغ أعلى عليين . تتعدى المقامات . تتجاوز البراذخ . تفنى . تأكل النار فلا تحرقك . لا يسيل دم . يسيل رضابك باللبن والعسل . لا ترى البيوت ولا البحيرة . لا الأرض ولا السماء . ولا ذلك الصياد الذى كنت تراه كل مساء فى الأصيل ، بعيدا بعيدا وسط الماء على زورق رفيع ، فيبدو كعصفور وحيد . لا حركة الفوارب المسائية حين يغيب الصيادون خلف النباتات ، ينصبون شباكهم وأكياسهم السلكية ، التى يتركونها حتى الصباح . ولا محطة السكة الحديد ، وما أكثر ما رأيت من محطات فى حياتك ، ولا البلوك شحيح الضوء . يصبح الكون نورا على نور . ينخطف البصر . يتركز فى بعد سحيق باهر . يغمرك النور . تلحق بسر الأسرار . تنهار باكيا معفرا وجهك بالتراب . ضارعا ، ياولى النعم ، خذنى على جناح جبريل . احبك ياسيدى . وترى سيدنا الخضر يخاصمك . ينهرك . تسأله إلى أين تنتهى الأمور . يصرخ صه . تصرخ يا أهل الحى صه . ياحامد ياولدى لا تقنط من رحمة الله . يا عرفة ياملعون ، أيغرك شاربك الأصفر ، شعرك الأشقر ، عيناك الخضروان ، ارفع يدك عن زيدان ، اننى معك وحدى الآن ، والله يراك دائما . اتركوا الأولاد لا تخيفوهم . الأرواح تسكن البحيرة ياشيخ مسعود ! . كفوا عن العبث بعقول الصغار . لا تجعلوهم مثلنا . وما عيبنا ياشيخ ؟ . أولاد زنى . جميعا أولاد زنى . اخص عليك شيخ ....

لكن القطار لم يعد يأتى . العصافير انقطعت . الأسماك ماتت . علامات الساعة ياشيخ مسعود . وكاد يحدثهم عن السمكة الذهبية ، التى خرجت له من بين الماء حين اصطاد آخر مرة . كيف تحدثت السمكة الذهبية . كيف رقصت وهى تتحدث . كيف أسرت إليه بأن الأيام تدور دورة عنيفة . أن الطير سيتوحش . الوحوش ستتعفن . القضبان سوف تلتوى صارخة فى الفضاء . سيرون قطارات جديدة لا تسير على الأرض ، يركبها بشر حمر الوجوه . عسكر يطير الشرر من عيونهم . كبيرهم سيطغى . وأن الله سينصرف عنهم الى حين . رقصت السمكة الذهبية وهى تقول ذلك . ثم قالت أن النجاة ضيقة ثقبها . ودمعت دمعة كبيرة بللورية كأنها الزئبق ، طفت على وجه البحيرة . وسقطت السمكة الذهبية فى الماء . اتسعت دمعتها فغطت ماء البحيرة . عم المساء فخرج من بين نبات الحلفاء جيش من الخفافيش البشعة ، تبحث عن وجوه تلتصق بها ، يطير حولها طائر السلو الأسود بجناحيه الطويلين الرفيعين ، وامتلأ الفضاء بصراخ رفيع حاد .

عيونهم كانت السخرية منذ أحضر سعاد .
ينقمون عليه زواجه بفتاة تصغره بكثير . وظلت عيونهم نهمة لزوجته الجميلة التى ملأت لياليه بالدفء والمتعة ، يتضوع جسدها الأملس بعبير سرمدى الشذى . تدخل فى صدره ناعمة كالمخمل . تتلوى . تسقيه شرابا طهورا بلسان عصفور صغير .

كم مرة وهو فوقها أحس بعيونهم حول الفراش . تحت الفراش . حتى حين يسرى الدفء من بين فخذيه نارا إلى رأسه . حين يهتز طربا وجنونا ، وهو الشيخ العجوز ، كان يرى عيونهم . لكن القدر صعب . كأنما تعلم الدين وتفقه ، مرت عليه السنون ، نضج ، شاب ، اكتهل ، شاخ ، عاش تجارب مرة وقوية ، ليقع فى النهاية بين قوم كفار . قتلوه طوال الصيف المنصرم . قاوم كثيرا . لم يفلح .

— لقد تشردنا ياسيدنا .

— نحن نجوع .
— هل فينا بذرة نتنة لا نعرفها ؟ .
— نحن بشر ياسيدنا .
— مؤمنون .
— نساؤنا عرايا .
— الأرض أكلت أقدامنا .
— القضبان شرخت أيدينا .
— الشمس أحرقت عيوننا .
— النساء أكلت أجسادنا .
— الأطفال أكلت أكبادنا .
صرخ .
— استغفروا الله . أذكروه يذكركم . قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا ، يأولاد الكلب يارمم ، من رحمة الله !
صرخوا ...
— انهم يسرفون علينا .

رأى الدم يخرج من عينى أم جابر . عرف أنها تعد الأحجبة للنساء كى يعود القطار . قال فى نفسه أنها البسوس ولا مزيد .

اته نعمة تشكو انقطاع زوجها عن الطعام . قال
— القلب يعرف وإن لم تر العين أحيانا . عودى إلى زوجك ! .
نظرت إليه فى دهشة . أفزعتها عيناه . قامت بعد أن فهمت مغزى كلامه . بعد أن خطت خطوتين راوغت . التفتت . قالت باكية .
— أتطردنى ياشيخ مسعود وأنا مثل أبنتك . ؟
لم يتمالك نفسه . صرخ .
— انت تفهمين ياقحبة ، وهذا رأى الله فيك .
طأطأت رأسها . قالت .
— سامحك الله ياشيخ .

انصرفت . كان يشعر أنها تبتسم . لعن الزمان الأخير .

جاءته زينب تشكو حامد . قالت أنه ينهض فى منتصف كل ليلة ويخرج لا تعرف إلى أين ويعود مع الفجر أو بعده . قال .
— وماتفسيرك ياطيبة . ؟
قالت .
— أخشى أن يكون أصابه شيء . يقولون أن الناس بعد أنقطاع القطار صارت تمشى وهى نائمة .
ضحك . قالت .
— حلمت أن القطار سيخطفه . أخشى عليه من الخروج .
ربت على كتفها يدعو لها . قال
— حين ينهض حامد انهضى . اسأليه إلى أين ؟ .

انصرفت مكسورة الخاطر . هل جاءت ليقول لها ذلك ؟ . كان يعرف أنها تقول لنفسها هذا . ود لو خاض مع حامد فى تفصيل الأمر ، لكنه كان يعرف أنه لا فائدة معه . يراه كل يوم يتضاءل شيئا فشيئا . تهرب منه القوة . ينظر إلى عينيه نظرة تأنيب وحامد يزوغ ببصره فى الفضاء حتى اختفى اليوم ولم يقل لأحد .

ود الشيخ مسعود لو يخرج إلى المنزل . لن يؤذن الفجر ، وأجدى له أن يعود إلى سعاد . لابد أنها خائفة . لكن الوحل صار بركا فى الخارج . الماء حاصر الجامع . الرعد قوى . المطر غزير . تساءل هل كانت السمكة الذهبية حقيقة أم وهما ؟ . أى قطار هذا الذى يسبب كل هذا الشقاء ؟ . يقولون أنه قديم منذ أيام اسماعيل باشا . لكنه لا يصدق . السمكة الذهبية قالت أن الذى صنع القطار هو الحداد الذى صنع صليب المسيح . القطار كان يأتى كل يوم جمعة . وغدا يوم جمعة . لكن المسيح لم يصلب . هل

هى نقمة الحداد بعد اكتشاف الخدعة ؟ أم نقمة اليهود !؟ . ورفع بعض الحصر . وضعها فوق بعضها . فتح صندوقا قديما أخرج منه بعض أغطية . جعل يعد لنفسه فراشا لينام الوقت القليل الباقى . استغفر الله لأنه لم يؤذن ، لأول مرة منذ وفد الى هنا . بدأ النوم يزحف على جسده الضعيف .

تذكر عشرات الكتب الصفراء التى قرأها . كتب الدين والشعر والجن والخيال . وأحباءه الذين خرج بهم من بين الموتى من البشر . لم يشأ أن يتذكر أحدا من الجن . انه لا يحب من الأحياء الآن غير سعاد . ابنة أمير مكة التى عشقها الصانىء ابن عربى . تمنى لو عاش فى عصر الرسول . لو كان سيفا فى صفوف الحسين العطشى . انه يعيش فى عصر السمكة الذهبية التى تتحدث . وأخذه فواق خفيف ثم سعل بقوة . ماذا كان العشاء . ؟. قطعة من الجبن القريش . كوب من لبن الماعز . آخر شربة هى شربة لبن . ليتها قالت ذلك السمكة الذهبية . لكنها تحدثت عن شمس يجرى خلفها الرجال فلا يلحقون بها . صحراء واسعة تطويهم فى بطنها . نيران ومياه لا تطفئها . مدينة من زجاج .

— اسمعوا ، آخر ماعندى لكم . انتم لا تعرفون الصبر ولا الجلد . اذهبوا إلى المفتش ثم لماذا تعلقتم بالقطار هكذا . ؟

لم يرد أحد . فى اليوم التالى سمع الأطفال يغنون « قال المفتش قاعد يفتش ، على ايه ياحسرة ويهمه ايه ! »

— انه قطار كنسة !

— ولو . انه لم يعد يأتى .

— ماذا تريدون بالضبط . ؟

— أن نعرف مالهم ولنا يفعلون هذا بنا .

انه يعرف سحنات أولاد الحرام . علمته السنون ذلك . هل يعقل أن عشرين دارا يسكنها أبناء الزنى !؟

فى الأيام الأخيرة ، سألوا عن معنى قطارات الخواجات . معنى القبلات خلف النوافذ . حكم الله فيهم . عن الجيش الذى يمر فى كل اتجاه . وكثرت

شكاوى أنقطاع الدفق . أمتناع الطمث . موت الدجاج. بكت بين يديه أم سميرة تسترحمه أن يعد لها تعويذه تعيد خطيب أبنتها المسافر فوق القطارات بالليل والنهار . رق لحالها ولذلك المسافر كالطير الغريب . قال لها التعويذة هى أن تنتظر عاما ، وإن لم يعد تتزوج غيره . قالت المرأة بأنكسار .

— نحن أولاد أصل ياشيخ مسعود .

قال .

— الدنيا لا ترحم ، ودوام الحال من المحال ، والله يغفر الذنوب جميعا ، ثم أنه لا جناح عليكم .

انصرفت وهو يعرف أنها لن تفعل ذلك . قال فى نفسه ، آه من الذئاب ! وتذكر أنه ترك المصباح مضيئا . قام ليخفض ضوءه . أحس بالعطش . حين كان يحس العطش فى منزله ، كانت سعاد تسقيه الشراب الطهور . سينام ظمآن الليلة . اخفض ضوء المصباح الغازى . عاد لينام . بعد أن لف نفسه بالغطاء باحكام ، تسللت اليه شفتا سعاد تحت الغطاء ابتسم فى دعة . رأى دمعة على خدها . أفعى ترقص حولها . استعاذ بالله . قال « يارب ألا أستحق منك غلاما يحمى ملاكى الصغير ؟ يارب لماذا صار أبناؤك أشراراً ؟ . » وحين تسلل ضوء الفجر منهكا بعد رحلة طويلة فى الظلام الثقيل ، كان الشيخ مسعود فى نوم عميق . وكان قد رآه قبل النوم ، اسود سد باب الجامع وملأ الفضاء ، أقبل وقد جحظت عيناه بالدماء ، وأغلق كفيه على عزم . وفى نفس اللحظة تذكر الشيخ مسعود أنه حدث زيدان عن السمكة الذهبية ، قال فى نفسه « لماذا اخترت زيدان من بين الناس جميعا ؟ . ويل لى وويل له » . وركز عينيه بلا خوف على القادم الأسود . وبعد أن نام النوم العميق ، الذى لم يكن يعرف أنه سيكون ، لا هو ولا أحد ، خرج القادم الأسود من الجامع وأغلق الباب . انهى ليلة وابتدأ صباح . وفى الصباح عرفوا جميعا ، كيف انتهت الليلة ، وكيف بدأ يوم عودة القطار !

□ □ □

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

التحولات

انتهى عام . ربما أكثر أو أقل . الأعوام هنا علامتها المطر . والمطر يهطل منذ أيام . والليلة هجع الكون فى صمت خائف . توجست بعض القلوب من الصباح ، تماما كالعام الماضى ، ولم يكن فى الليل حركة ، فالنوم أخذ بأغلب الحجرات .

وسعاد هذه الليلة ، لم تشأ أن تقطع ما اعتادت عليه طوال العام . انتظرت أن يرسل لها الله أحدا ، ومازالت تنتظر ، وكل شىء يخذلها حتى جسمها . هكذا تقول كل ليلة وتحدث بعلها . فجسمها مايزال جميلا . وتدعو بعلها أن ينظر إليه معها فى المرآة . تسأله هل يرى النهد الذى كان يتعلق به كطفل صغير ؟ . مايزال كما هو ، ناهدا كالحُق ، ناتىء الحلمة كالطفل الشرس يقطع طريق الأطفال الضعاف . تسأله أن يتلمس شفتيها . مافتئتا تتلمظان دون ارادة . دائما كانتا كذلك وجعلتا الجميع يظلمونها . هو فقط الذى كان يفهمها . لطالما قال لها ، أنها جذوة العشق التى لاسبيل الى اخمادها ، ولا سبيل لها على نفسها . جـذوة العشـق لم تـزل بطنها ضامرة . لم يزل ردفاها مكور

وهاهى عارية تماما كما كان يحب منها أن تفعل . وهو لا ينظر إليها الآن .

كل ليلة تتعرى سعاد وتقبل عليه . لكن السرير لم يعد عليه أحد . وهو لاشك يعرف ذلك . والجميع يعرفون ذلك . وازداد خوفهم منها . لكنها تقيم طقوس الحب معه وحده . هكذا كانت . وهكذا هى . شاء أم لم يشأ .

أراد منها أن تكون كذلك . ولم يحاول مرة واحدة أن يعلمها آية من القرآن ، الذى كان يحمله على صدره . كانت تسمعه يقول ، لو نزل القرآن على جبل لجعله دكا ! . أن حمل القرآن ليس ميسرا للجميع . وهكذا حال الدنيا ، ناس تحمل القرآن ، وآخرون يحملون الأوزار . ولم تشك فى لحظة ، أنه يقول ذلك بصدق . لكن عينيها ، لا يجب أن يلومها بعلها أبدا ، صارتا متعبتين . جفنيها صارا أكثر وسنا . ليس الوسن الذى كان يحبه ، انما وسن الحزن المكين . ومنذ مات ، ولا يدرى أحد كيف مات ، ولا كيف نام ذلك النوم العميق فى تلك الليلة ، وهى تصعد كل فجر ساعة الآذان ، تبتهل الى السماء ، أن تسقى العطاشى . أن يعود كل شيء إلى ماكان . وتبتهل مثلما كان يفعل بعلها ، عسى الكرب الذى أمسيت فيه ، يكون وراءه فرج قريب . تتساءل أين ذهب الشاب القوى جابر . ولماذا فعلت به مافعلته ؟ . أين ذهب الشاب الحزين حامد ؟ ولماذا فعلت به ما فعلته ؟ . ترك الأول أما عجوزا . ترك الثانى زينب وأطفالا ثلاثة . تماما كما تركها بعلها . كم كانت تحبهما رغم ما حدث . لكنها تعرف من الذى لها . ذلك الغلام الذى لم ينم معها بعد . والذى لم يأت مع أخته طول ليالى شتاء العام الماضى . تلك كانت ليالى حزن لا يحضرها الصغار .. لكن الحزن لم ينفض بعد . وتستغفر بعلها . وتحدثه .

انت قاسى يا بعلى . اننى أعرف مالم تعرفه .
انه الضجر . الضجر . هل عرفته يا بعلى الطيب ؟ . الضجر كان يطل من عيون

حامد وجابر . كان فى مشيتهما . لم يكن لهما شاطىء . استغفر لهما . أنت أقربنا إلى الله الآن . كلماتك تسمع . دعواتك تلقى الآذان . قلبى كبير كما تعلم ، لكن الله لا يرسل إلى أحدا . وفى الفجر يخيل لى أن أبواب السماء انفتحت . والدنيا طوال الشتاء الماضى ، الذى لم يمر عليك ، كانت تمطر على وحدى ، ساعة كل فجر ، يبتل فيها جسمى وثيابى . أخلع غطاء الرأس وأرتعش . أرى الأضواء البعيدة فوق الجسر ، فأقول هل هناك بشر حقا ؟ . أذكر أنى أراهم يسيرون كالخيالات بالنهار فأدعو لهم . أرى مصابيح المحطة . أرى المحطة الغافى ناظرها فأذكر القطار . أدعو بعودته من أجل سميرة الجميلة ، التى تعلق قلبها بمسافر فوقه . أضواء المدينة البعيدة أراها كالنجوم العالية . أقول ماذا يعانون ؟ على أى نار ناموا وعلى أى حزن يستيقظون ؟ . أتمنى لو أعرف . لو قالوا . لم أرهم الا مرة واحدة معك . لكنى أدعو لهم . وأذكر أن النجوم فى السماء ، فى الشتاء لا تحبنا ، لا ترانا . أهبط حزينة بعد أن أرى القمر الذى كانت تخفيه السحب السوداء يظهر باهتا منسحبا أمام ضوء الصباح . أخلع ثيابى المبتلة . أسعل . لكنى مازلت قوية . أنظر الى جسدى المهتز ، وأنام . ولا شيء يأتى إلى ..

طوال الصيف الماضى كانت سعاد تهذى .
رأت أحلاما كثيرة . بلادا عجيبة . رأت أباها الشارد . تذكرت حكاياته القديمة . وحكاية الجنية التى خاواها . التى غارت منها أمها كثيرا . ورأت أباها يجوس بلادا من الطين والملح . يعاشر بشرا من الهواء والدخان . مسكين أبوها . منذ شرد شردت هى وأمها ، التى رأتها تسير حافية فوق القضبان بين البلاد . القضبان والبلاد البعيدة . وفوق الترع وبين القرى تبحث عن رجل نسيت اسمه ، لا تعرف عنه إلا أنه زوجها . وسعاد فى يدها . تذكرها باسم أباها فتنهرها . تكذبها . حتى التقينا بالشيخ مسعود على رصيف محطة حزينة . تتذكر ذلك اللقاء الأول كل ليلة . كما تتذكره الآن . وتحدث بعلها .

أتذكر ؟ . انها القضبان والبلاد البعيدة والمحطات الغافية . كنا نائمين أنا وأمى على الأريكة الخشبية فوق الرصيف . الرصيف القديم ذو البلاط المربع دائما . وجئت أنت لتضع فوقنا غطاء كان لك ، وأخذتنا فى الصباح الى دكانة الفول والشاى . دكانة مثل الدكاكين التى فوق الجسر ، التى نشترى منها أو نراها ونحن ذاهبات لشراء السمك حين لا يصطاد الرجال . الآن ومنذ غاب القطار نشترى السمك من هناك ولا يصطاد الرجال ! . وزينب صارت تبيع السمك مع امرأة اسمها أم هنية . تحكى زينب حكايات كثيرة عن هنية وأمها . تقول انهما تعطفان عليها . وانها حين ذهبت الى الجسر حين نفدت النقود بعد اختفاء حامد ، لتبحث عن عمل ، نظرت هنية فى عينيها وقالت لها أنها تعرفها . وزينب لم تقل حتى الآن ، لماذا كانت تعرفها هنية . لكنها تعمل وتظل أم جابر تنتظر جالسة بالأطفال . لم تعد زينب حزينة . ولم تصبح سعيدة . أصبحت كالآيات الكثيرة التى علقتها على الجدران ، والتى لم تزل كما هى لم أنزعها .

أتذكر ياشيخ مسعود ، حين اطعمتنا فى دكانة الفول والشاى ؟ أتذكر كيف كانت نظرتك الى ؟ نظرة واحدة ، وأصبت منى القلب وأنت الرجل الذى كان كهلا وقورا ؟ وأخذتنى وأمى الى المأذون . تزوجتنى وأحضرتنى الى هنا . وتركت أمى هناك . لماذا فعلت ذلك ؟ . أين أمى الآن ؟. لقد أعطيتها الغطاء . قلت لها سنعود إلى زيارتك . ولم نعد .. لم يكن قد بقى لأمى مكان ثابت .. كنا مشينا بلادا كثيرة نبحث عن أب خاوى جنبة . ولم أعد أسمع شيئا عنها . لكنى رأيت وجهها كثيرا هذا العام . أبيض مشرقا . كانت دائما تأتينى ميتة رغم بياض الوجه واشراقه . لكنى أحببتك جدا اذ بدا أن الحياة تأخذ كل ماحولنا ، لتربطنا برباط لا ينفصم . أحببتك جدا وأخلصت لك حيا وميتا . وان كنت لم أستطع منع نفسى عن النزق .

رأت سعاد حلما تكرر أكثر من مرة فى الأيام الأخيرة ، وسبب لها ازعاجا شديدا . كانت ترى نفسها محمولة على براق .

البراق الذى حدثها عنه الشيخ مسعود كثيرا ، والذى لا تعرف صورته ، ولا تعرف الا أنه شيء بين الفرس والجمل كما قال لها . وانزلها البراق وسط بلاد جميلة . فيهاأشجار الليمون كثيرة ، والورد مزهر ، لكن حاكمها كان قاسيا . كان يغتصب كل امرأة تفد . حينما اقترب منها هربت . لكنها كانت تصرخ تحته ! . نظرت خلفها وهى تهرب ، فوجدت ليلى هى التى تصرخ تحت الحاكم !

هل تذكر ليلى يا بعلى . ؟ كنت تقول أنها خير صديقة لى ، رغم انها لم تكلمك قط ولم تكلمها . كنت تقول أن فوق وجهها عذابا غير مفهوم لإنسى .

وحين هربت سعاد من باب المدينة الكبيرة ، ركبت قطارا . كان قطار خواجات . جعلوا يتقاذفونها بينهم . هذا يتعلق بثدى . والآخر بثدى . والثالث يثوى بين ساقيها . انتفضت من بينهم هاربة . التفتت وهى تجرى فرأت ليلى هى التى ترقد مغلولة بينهم . صرخت فيها سعاد أن تخترس ، فلم ترد .

انها حزينة يا بعلى فحبة العين مات . فريد الذى كنت تقول لى أنه « فى حاله » وأنه مثقف . وانك رأيت مرة عينيه تحت نظارته ، فرأيت فيهما جذوة الذكاء . فريد الذى قلت لى انه برغم كبرياء أبيه الكاذب ، فهو متواضع رغم أنه لا يكلم أحداً . ظلت ليلى تحبه وهو لا يتكلم .

قالوا عنى أنى عشيقته . قلت لى أنت أنك لا تصدق أحدا لأنك تعرف أنى جذوة العشق التى لن يطالها أحد . وأخبرت ليلى بالحقيقة فبكت فى صدرى . الحقيقة التى يعرفها الجميع ، انى مثلهم لا يكلمنى فريد . فاطلب لى الغفران ان كنت أخطأت أو كذبت . انك أقربنا الى الله وتجد حولك آذانا تسمعك! واطلب من فريد أن يغفر لى اذا كان الموت قد جاء بسببى . أنا لازلت أذكر السؤال الذى سألك . حين قال لك « ألا يوحى اليك هذا المكان بشىء ؟ » ولم ترد . ثم قال لك « ما معنى أن نعيش هنا بين مياه البحيرة والصحراء والقطارات تمر علينا فلا نختار من بينها إلا قطار الكنسة ؟ » وقال لك « تخيل أن الصحراء بشمسها عقدت اتفاقا مع البحيرة بمائها العفن الثقيل . أى نار وطوفان سيكونان؟» وقال لك « أنا يا عمى لذلك لا أحدث أحدا » . ولم تفهم أنت كما قلت لى . لكنك عدت فرحا لأنه قال لك « ياعمى » . وبت تسألنى ان كنت أفهم معنى لهذا الكلام ، فقلت لك أن العلم أحيانا يجن ، فطلبت منى يومها أن أقص عليك آخر حكايات النساء والرجال. كنت تعرف أنى أدخل كل بيت . ان كل بيت ينفتح لى على خوف ، وينغلق خلفى على حسد أو شجار . وتقول لى « لا تتصورى أبدا أنى سأغار عليك . انى أعرف معدنك وأثق فيك . لقد قال لى سيدنا الخضر أن أتركك كما تبتغين لأنك جذوة العشق التى لن ينالها أحد »

ها أنذا على العهد . لكنى لم أكن أعرف أنى سأسبب كل هذا العذاب لحامد وجابر وفريد .

قررت سعاد أن تترك المرآة ، فدموعها وصلت الى قدميها ، وتصعد جوار بعلها فوق السرير ! ، تقبله وتقول له أن الحكاية بدأت منذ صباح تلك الليلة التى قالوا فيها أن القطار سيجىء فى غدها ! . والتى رقصت فيه رقصا كالنيران ، ورقصت فيها ليلى معها ، وغسلتا

سيقانهما فى ماء البحيرة ، وجاء الغلام على ليصطحب اخته الى البيت . رأته فى تلك اللحظة يتجه لأن يكون رجلا . لم تقل له ، وحتى الآن لم تقل له ، وهو يكبر أمام عينيها كل يوم ، وترى فى عينيه ضجرا ، أو شراسة ، أو ذكاء .

منذ تلك الليلة وذلك الصباح حين وجدوا الشيخ مسعود ميتا ووحيدا فى الجامع وطينا كثيرا فى فمه ، وآثاراً سوداء على وجهه ، وحتى الآن لا يعرفون ، ولا تعرف ، كيف جاء الطين الى فمه . من الذى وضعه ولماذا ؟ . وهى منعوها أن تراه وهو مسجى تحت الملاءة البيضاء . كانت تريد أن تحضر الغسل . أن تغسله بنفسها . تنام معه وتطهره . لكنهم قالوا أن غسل الرجال عمل الرجال . لطمت خديها ونسيت أنه قال لها أن ذلك حرام . تدبته كما لم تندب الندابات . نسيت أنه قال لها أن ذلك عذاب للميت لا يحتمله . والآن تشعر آن كل شىء خذلها . حتى المطر الذى كان ينسكب كثيرا ، وهى تصعد فوق السطح ، لم يفتك بصدرها . ولم يعد القطار ولا الغيّاب .

ازدادت قطارات الغرباء . ومساء منذ أيام شاهدوا بعضهم يصطاد سمك البحيرة الجميل . ويطلق الرصاص على أسراب الغر . كان السمك يخرج بكثرة ، والغر يتساقط بكثرة . لكن رجالهم حين يصطادون يفشلون ، وإذا خرج السمك لم يزل يخرج ميتا عفنا ، والغر يرتفع الى عنان السماء .

فى صباح اليوم التالى اختفى الغرباء . ركبوا قطارهم ومضوا . لم يعرف أحد من أين يأتون ، ولا الى أين يذهبون ، لكن عيونهم تنطق بالشرر والغدر . حين سأل الرجال ناظر المحطة ، لم يجبهم . ثم قال إنهم أيقظوه بالقوة ، وهو الذى ينام منذ سنين طويلة ، ولا يصحو إلا قليلا . أخرجه بعضهم من الحجرة ودخلوها ومعهم بعض النساء ثم طلبوا منه أن يعد لهم شايا . بعد أن خرجوا دخل الغرفة فوجد الأكواب ملقاة فى الأركان ، وبعض ثياب داخلية معلقة فوق الدواليب . وهو لا يعرف بالضبط ماذا حدث . لكنه قال ، سأقص يوما الحكاية من أولها .

ازدادت قطارات الجيش ، لكنها لم تعد تثير الرهبة . بعضها فى الأيام الأخيرة كان يمر محملا بالجرحى . ولا أحد يخرج اليها إلا الولد على ، الذى جاء منذ يومين ليقول لسعاد ، وكانت ليلى معها ، انه صعد القطار ، وشاهد الجرحى . وانهم فرحوا به كثيرا . وقالوا له « ياعلى لا تندهش . نحن نعرف اسمك . قل للأطفال اننا عائدون من أركان الأرض الأربعة . اننا حاربنا فى بلاد السود والبيض والحمر والصفر ، وضد كل الملل والاديان والحكومات والشعوب حتى كرهنا الجميع لأننا عجزنا عن أن نقول لأحد لماذا نحارب ؟ »

حفظ على العبـارة الطـويلة . وسأله الجنـد إذا كان يستطيع أن يعيدها عليهم فرددها أمامهم ، وعاد ليقولها لسعاد وليلى ثم الأطفال كأغنية منظمة . لكنه كان يضرب جبهته بكفه ، ويقول لماذا لا أفهم معنى هذا الكلام ؟ . سأل سعاد وليلى ان كانتا تفهمانه ، لكنهما لم تفهماه . قبلته ليلى ، ثم قبلته سعاد . حين قبلته وجدت خده دافئا . اضطرب الغلام ، أما هى فقد تزلزلت .

كانت سعاد قد صعدت فوق السرير .

وقالت لبعلها أنها ستسقيه من شرابها الطهور الآن . ثم قالت له باختصار مامرت به الأيام ..

لقد وجدوا الجندى عرفة بعد موت فريد جالسا فوق مقعد المحطة ، وفأس فى رأسه شقته نصفين ، وثبتت بينهما ، والدم قد أغرق وجهه وثيابه . وقالوا وهم يضحكون انه كان جالسا جلسة معلم !

أما المفتش فقد رحل بعد موت فريد . رأوه يمزق ملابسه الرسمية ويبكى صارخا ويقول « الحكومة قتلت ابنى » ولم يندهش أحد لكلامه . بل كانت الدهشة كبيرة حين رأى الناس أثاث منزله وهو ينقله فوق عربة صغيرة . كان هناك سرير

وأريكة ومنضدة مكسورة وحصير ومقعد بثلاث أرجل . قال الناس أنه كان يضيع نقوده على الأفيون . وسارت العربة يجرها حمار مريض ، يقوده حوذى أبله ، خلفها المفتش يجرى ويجرجر زوجته زائغة العينين .

وآخر ماحدث كان حضور خواجة طويل عريض بالمساء ، له شارب أصفر خفيف ، قال كمن بيده الأمر « لا تحزنوا سيأتى القطار غدا الجمعة . وسيأتى معه كل شىء حتى مربى خطيب سميرة » . قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة غريبة . وتعجب الناس كيف عرف ذلك . لكن ليلى قالت له « أنت كذاب . فريد قال أن القطار لن يعود » وقام الولد على وقال له « أنت كذاب » وهتف والأطفال وراءه « الكذاب أهه » وطاردوا الخواجة وهم يهتفون بذلك ، ويقذفونه بالأحجار ، حتى وصل الى المحطة حيث كان ينتظره قطار . لكن بعد قليل تردد بين النساء أن الرجال علموا بمجىء القطار .

لم تستطع سعاد أن تذكر لبعلها أكثر من ذلك . قالت له ربما غدا تستطيع أن تحدثه أكثر . فحديثها له كل وقت صلاة . ثم قالت بصوت مسموع « دعنى أحدثك عن شعورى الذى لا يخيب كما قلت لى دائما . إن لم يكن قبل عام ، ففى نهايته ، سيرسل لى الله أحدا من عنده ، لأن الله لا يمكن أن يتأخر أكثر من عامين . أليس كذلك يابعلى الطيب . أليس كذلك ياشيخ مسعود ؟ »

استدارت تلتف حول زوجها الذى مات . دفنت وجهها فى الوسادة فوق وجهه

□ □ □

زيدان

انجلى الليل عن نهار رائق ، خلت فيه السماء من الغيوم . كانت هناك فقط

بعض سحب بيضاء ، تتفرق فى خجل على مسافات واسعة . البيوت والعشش مبللة الجدران بفعل الأمطار التى ظلت تسقط طول الليل. هبت نسمة خفيفة ، جعلت نبات الحلفاء يتمايل فوق البحيرة . وارتفعت بعض طيور سوداء ، تتوسطها طيور بيضاء . وخرج الناس جميعا أكثر عافية من الأمس .

وأمام البيوت كانت عربة خشبية قديمة مبتلة ، أمامها حمار نشط يتلفت ، بينما كان الحوذى شابا صغيرا قويا . وسمعت تحيات الصباح يتبادلها الجميع .

أخذ الأطفال يجرون خلف بعضهم يتعابثون . لشيء لا يدركه أحد ضحكت أكثر من امرأة . ووقف الجميع أمام البيوت وحول العربة ، ينتظرون أو ينظرون .

خرجت نعمة كسيفة حزينة . لم تكلم أحدا . أشارت الى الحوذى ، فاتجه اليها ودخل معها الى المنزل ، ثم جعلا ينقلان الأثاث القديم . ساعدهما عبد الله وزوجته واشتركت مع الجميع سعاد . لم يكن أى منهم يتكلم . ولم ينتبهوا الى وجود زيدان فى المنزل .

كان مقعيا فى ركن من الحجرة الداخلية . وبعد أن امتلأت العربة ، وانتهى نقل الأثاث ، وقفت نعمة تنتظره وطفلاها جوارها . لم يكن أحد يعرف أن زيدان بات الليلة فى منزله . انهم يعرفون فقط أنه مهاجر الى الصحراء والبحيرة . قال الحوذى .

ــ تتحرك ؟

قالت نعمة .

ــ لحظة يأتى الرجل .

نظر اليها عبد الله . قال .

ــ زيدان بالداخل ؟

أشارت أن نعم فتوجه الى المنزل . وحين رأى زيدان فى ركن الحجرة ،

تعجب كيف لم يره من قبل وهو ينقل الأثاث .

كان زيدان شاحب الوجه ، كثيف الذقن ، زائغ العينين . مد اليه عبد الله يده دون كلام . لم يتحرك زيدان . تقدم عبد الله منه .

ــ انهض يازيدان .

لم يرد زيدان . لم ينهض

امسك عبد الله بذراعه برفق . قام زيدان يتلفت خائفا .

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله . هيا يا ولدى .

خرج ويد زيدان فى يده . جميع أهل البيوت ينظرون الى زيدان فى حزن . سار زيدان بينهم صامتا . كانوا صامتين . لا يعرف أحد فيم فكروا فى تلك اللحظة . لكن الذى كان واضحا على وجوههم ، أنهم جميعا خائفون !

حين وصل زيدان الى العربة ، نظر خلفه للحظة ، ثم نظر الى زوجته وطفليه . نظر بعد ذلك الى جميع الأطفال ، وانطلق يعدو . جرى وراءه بعض الأطفال يقذفونه بالحجارة . سالت دموع نعمة . كانت دموعا ثقيلة ساخنة مالحة ، تحفر طريقها بتأن ، فوق وجنتيها وخديها . قالت سعاد بألم .

ــ اهتمى بالطفلين يا نعمة .

وقبلتها . كذلك فعلت زوجة عبد الله ، ثم قبلت نعمة ظهر يد عبد الله .

حين بدأت العربة تسير ، لم يتحرك أحد من مكانه . كانوا ينظرون اليها . عربة صغيرة متهالكة تشق الكون الكبير ، والصباح الواسع ، والسماء النظيفة ، والبحيرة الهادئة . نبات الحلفاء يتمايل ، والطيور السوداء ترتفع ، وتعلو وسطها الطيور البيضاء ، بينما الميازيب تفرغ المياه القليلة ، المتبقية من أمطار الليل . والجدران المغسولة بانت شقوقها ، والأرض كانت رطبة .

بدا الكون مدهشا فى تلك اللحظة . طفلا صغيرا طرى اللحم والعظم رائق البشرة . والعربة الصغيرة بدت جميلة من بعيد ، كأنها حلم أو خيال . لكن أحدا لم يكن يعرف الى أين تتجه . فالناس هنا ، رغم طول عشرتهم ، ورغم ما وحد بينهم ، لايعرفون أصول بعضهم .

تابع الجميع العربة وهى تختفى . لم يفكروا فى هذه اللحظات فى زيدان . كان مايزال منطلقا فى اتجاه مزارع التين . حين وصل الى أول شجرة ، وكان الشجر جافا سقطت أوراقه ، والأرض مبللة ، أحس زيدان أن الصباح متسع له ، وأنه الوحيد فى الكون كله ، وأغفى جوار الشجرة الواطئة العارية . حين نهض كان كاسف الوجه . لا يعرف أحد لماذا طأطأ رأسه فى هذا الوقت . أى حمل ينوء به ؟ أى هم ؟ . أخذ طريقه الى المزرعة الحكومية المهجورة . توقف تحت الطاحونة التى كان كلب أجرب يمسح جسمه فى عامودها . فكر فى أنه لم يعد يرى هذه الطاحونة تدور وانقبض قلبه .

كان النهار قد انتصف وهو يترك الطاحونة
ويعود الى البحيرة . ماذا يفعل زيدان بهذا التجوال ؟ لا أحد يعرف . ولايعرف زيدان لماذا يعود الى البحيرة . فى منتصف الطريق استراح عند المزلقان القائم على كوبرى يغطى ترعة صغيرة وتمر فوقه القطارات . جلس مع عامل المزلقان الذى يعرفه . كان عامل المزلقان عجوزا عمل من قبل عامل سكة حديد ، لكنه رأى زيدان أكثر شيخوخة منه . أعد لزيدان كوبا من الشاى ، وقدم له بعض الخبز . جعل زيدان يأكل بيديه الإثنتين كالعميان .

ــ مابالك يازيدان ؟

لم يرد .

ــ اما زلتم فى الغم الأزلى . لماذا يا ولدى ربطتم حياتكم بالقطار ؟
لم يتكلم زيدان .

ــ يا ولدى هذا زمن آخر . ألا ترى القطارات التى تمر من هنا ؟ ألا ترى

قطارات الخواجات يا ولدى . تماما كالزمن القديم ، حين كنت فى سنك ، وكنت أعمل على مزلقان ، تمر عليه قطارات الحلفاء أيام الحرب . أيه .. الدنيا تلف وتلف ، وتعود يا ولدى الى أصلها .

ــ يقولون أن الدنيا هذه يحملها ثور على قرنه . وحين يتعب ينقلها على القرن الثانى . وحين ينقلها تتزلزل . لكن الدنيا لم تتزلزل ، والثور يعيدها إلى القرن الأول هذه الأيام !

ضحك العجوز . فرح العجوز ، فزيدان يتكلم أخيرا ، ولم يفهم العجوز !

ــ ياولدى ، عقلك رأسمالك . لا قرن هناك ولا ثور . الدنيا هذه لا يفهمها أحد ــ فكر العجوز قليلا وبدا كمن فهم شيئا ــ من كان يصدق أن كل شىء يعود الى أصله . ؟ أستغفر الله . لم يكن الأصل هكذا قط لكنكم على كل حال مخطئون .

ــ خانتنى . قتلتنى .

ربت العجوز على ظهره .

ــ فى النهاية هى امرأة . وربما لم تخنك . انت تستمع الى كلام الناس . طيب ، أنا أعرف كل بيت وما يحدث فيه . الشرطة كانوا يأتون هنا ، يجلسون عندى ، ويتحدثون . عد اليها يازيدان .

ــ لا .. أنا مخاوى .

فوجىء الرجل . توقف عن احتساء الشاى .

ــ ماذا ؟

ــ مخاوى .

ــ مخاوى ماذا ؟

ــ جنية . هل يخاوى الأنسان غير الجن ؟

ابتسم الرجل . استمر زيدان

ــ كنت اعتدت أن أصطاد السمك عصر كل يوم كما تعرف . منذ مغيب

القطار والسمك يخرج ميتا . فى أول الشتاء الماضى كنت زهقت من أفعال الناس وكلامهم . وأنا قلت كلاما لم يفهموه . وقلت أن القطار لن يأتى فسخروا منى . كان عرفة يأتى الى منزلى كل ليلة . لكن مات الشيخ مسعود . ثم فريد . ثم عرفة . — وتوقف قليلا — فقررت أن أصطاد بالليل . قلت قد يكون سمك الليل حيا . قد تحدثنى السمكة الذهبية عن كيفية موت هؤلاء جميعا . السمكة الذهبية هذه سر ، لم يطلع الشيخ مسعود أحدا عليه غيرى . لكن الذى حدث انى لم أصطد شيئا . جعلت أحدث البحيرة ثم قمت أتبرز بعد حديث طويل . فجأة شدنى شيء من أسفل الى الماء . غصت . رأيت تحت الماء قصرا أحمر فيه جنية جميلة . غسلتنى بماء ازرق . البستنى **ثوبا أصفر جذبتنى واحاطت بى** . كنت أسمعها تتنفس من أنفها وتغط .

صعدت الى الماء بالثوب الاصفر . حين عدت قالوا عنى مجنون . منذ ذلك اليوم وأنا هارب . بالأمس فقط عدت الى البيت لأنى حين هبطت الماء لم أجد شيئا . رحلت الجنية . أنا فى انتظار رسالة منها لأعرف مكانها الجديد . وحتى تأتينى الرسالة سأدور وراءها الدنيا كلها .

— اشرب الشاى ياولدى ..

لم يجد العجوز شيئا يقوله غير ذلك . جعل زيدان يحتسى الشاى بينما قام العجوز ليغلق بوابة المزلقان ، حين رأى السيمافور البعيد منخفضا علامة على قدوم قطار :

حين عاد لم يجد زيدان . توقف لحظة متأملا . تلفت حوله . رفع عينيه الى السماء . قال فى نفسه « بعد أن كنت أفعل هذا مرتين كل يوم ، أفعله كل نصف ساعة الآن . ما أكثر القطارات . جيوش قديمة وجيوش جديدة . جرحى قدامى وجرحى جدد . وخواجات فى كل العصور . الرحمة من عندك . ما دائم إلا وجهك . وما يبقى خلاف جلالك . الكل يخاوى فى هذا الزمان ! »

ولا يعرف لماذا تذكر أن زيدان كان حافيا ! .

□ □ □

علـــى

لم يحب أن يرى مشهد رحيل أسرة زيدان . حين رحلت أسرة المفتش فى منتصف الشتاء الماضى ، أمضت ليلى الليل باكية جواره . وهو يعرف أنها لن تبكى اليوم . لكنها صارت تحب الإنفراد بنفسها كثيرا تقرأ فى وريقات مهترئة .

لا يعرف سر هذه الوريقات . حاول سرقتها أكثر من مرة . لكنها كانت دائما تضعها فوق صدرها ، وتحت جلبابها . كل ماعرفه أنها وريقات أعطاها لها فريد . ومذ وجدوا فريد مقتولا فوق القضبان ، وليلى تقرأ ، وحين تنفرد بنفسها تبكى . ظل ليالى طويلة يسمعها تحدث نفسها « قتلوه . قالوا صعقته الكهرباء . قالوا سلك كهربائى سقط فوقه . لكنهم كذابون . كذابون »

حين خرج يتفرج على رحيل المفتش وأسرته ، تذكر أن ليلى بالمنزل وجدها تبكى . ترك المنطقة وسار الى الجسر . قابلته شابة سمراء . أمسكته من خناقه .

— ماذا جاء بك الى هنا ؟

— ولماذا لا آتى ؟

وحاول التخلص منها .

— أنت من هناك ؟

— أجل

كانت قد أشارت إلى موقع منازلهم . قالت وهى تجره الى الخص البوص .

— قل لى وإلا قتلتك . أين أختفى حامد ؟

— لا أحد يعرف .

تعجب لماذا تسأله عن حامد وهل تعرفه ؟ تذكر أنه سمع سعاد تحدث ليلى عن شكوى زينب للشيخ مسعود من خروج حامد فى الليل وتأخره فى الخارج .

— اذهب اذن الى أمك .

صفعته على وجهه . اشتعلت النار فى جسمه الصغير . قفز وصفعها بقوة لم يكن يعرف أنه يملكها ، فسقطت فوق الأرض . صرخت صرخة قوية ، فأقبلت أمها فى يدها عصا ضخمة . جرى من أمامها بسرعة . توقف على مسافة غير بعيدة . أمسك بالأحجار وجعل يقذفهما بها . جعلا يولولان . حاصرتهما الأحجار من كل ناحية . أقبل رجال كثيرون . اضطر الى الهرب عائدا .

اليوم لم يشأ أن يذهب الى الجسر . سار وئيدا فى الفضاء الى محطة السكة الحديد . كانت خالية . لاقطارات . لأحد ينتظر أحدا . ناظر المحطة نائم كالعادة . رآه من نافذة الحجرة .

كانت الشمس واهنة . أمطار الأمس قد بللت الجدران والمقاعد . سحب رمادية خفيفة بدأت تتفرق فوق المحطة . وعصافير غير قليلة تتقافز فوق القضبان الصدئة .

تطلع الى البلوك . رأى رجلا أبيض الوجه . ليس هو عم عبد النور الأسود الوجه ذو الشارب الطويل الأبيض . عم عبد النور يعمل ليلا .

« يا على ياولدى ، كان جدى خفير حدود يعمل بالليل دائما ، وكان أبى خفيرا بالبلد يعمل بالليل دائما ، وكانت أمى قابلة تولد النساء ، ونساء قريتنا يلدن بالليل دائما ، لذلك خرجت أنا أسود . »

ضحك على الذى كان قد سأله « لماذا أنت أسود ياعم عبد النور وشاربك أبيض ؟ »

وكان ذلك منذ أربع سنوات . ضحك الأطفال الذين معه ، ولم يغضب عم عبد النور بل قال أيضا .

— « هذا عن لونى الأسود . وأبوك يحدثك عن الشارب الأبيض . »

لكن على لم يسأل أباه . نظر فقط الى شاربه الأبيض . نظر الى وجه

الشيخ مسعود الأحمر فوجد شاربه أبيض . فكر أن يسأله ، فهو يجيب الناس ، لكنه لم يفعل . وضاع السؤال من ذهنه ، كما ضاعت القنافذ من حياته . أصبح قديما كالصدأ الذى صار يعلو بطاريته الآن .

أشار إليه عامل البلوك أبيض الوجه أن يصعد . تعجب على من أنه لم يعرف واحدا من العاملين نهارا بالبلوك . لماذا وقفت معرفته حتى الآن على عم عبد النور ؟ . صعد وهو يشعر أن هناك أشياء كثيرة لا يفهمها . رأى السلالم الخشبية حائلة اللون ، مليئة بالشروخ ، قطرات الماء القذرة تتعلق بأطرافها ، ويعلو رؤوس مساميرها التى على الجوانب ، صدأ قاتم . أحس ببرودة الدرابزين الحديدى وخشونته تحت كفه . رفعها فوجد فوقها صدأ . دعك كفيه فى بعضهما فانتشر الصدأ وصار كالحناء ولم يختف .

دخل البلوك . رأى الرجل صغير السن وشاربه أبيض . ابتسم . قال الرجل .

— هلا اشتريت لى شيئا من فوق الجسر ؟ انها مسافة بعيدة لكنى سأكافئك .

أشار على برأسه موافقا . قرر بينه وبين نفسه أن لا يأخذ المكافأة . أخذ الرجل يبحث فى سترته المعلقة على الجدار عن نقوده . جعل على يتأمل أذرع التحويلات المتجاورة فى صفين متقابلين . ماذا يحدث لو حرك هذه الأذرع بلا انتظام . يقولون أن القطارات سوف تخرج عن قضبانها . لماذ لا يجعل هذا الرجل القطارات تخرج عن قضبانها وتقع . ؟ . « التحويلة قوية ، تحتاج لقوة لتحريكها ، الخطأ الواحد ينهى حياة عامل البلوك » . هكذا قال أبوه ذات مرة . وكان هو يتجه دون وعى الى احدى الأذرع ويمسك بها . فى غفلة من الرجل المشغول بالبحث عن النقود ، جذب الذراع بقوة الى الخلف . استجمع كل قوته فى هذه الجذبة .

منذ أن تشاجر مع المرأتين ، فى الشتاء الماضى فوق الجسر ، وهو يعرف

أنه قوى . لكنه لم يكن يعرف أنه سينجح فى جذب الذراع الثقيلة . ولدهشته انصاعت له الذراع بأسرع مما توقع . اشتعل وجهه بالفرح ، بينما جرى الرجل اليه صارخا ، وركله بقوة ، وهو يلعن ويسب أهله ، ثم أمسك على بيد وأمسك الذراع بيد . حاول أن يعيد الذراع بيد واحدة ، ثم يفرغ لعلى فلم يستطع . ترك على لا شعوريا ، وأعاد الذراع بيديه بسرعة . كان على يقفز الى الباب فى نفس اللحظة ، ثم قفز السلم قفزات واسعة . لم يجد الرجل أمامه غير النافذة ، يطل منها عليه يشتمه ويهدده ، بينما كان على يقف فوق رصيف المحطة يضحك ، ويشير الى الرجل أن ينزل لو استطاع . لكن الرجل بعد لحظات ، ثاب الى رشده . استغفر الله ، واستعاذ من الشيطان ، وضرب كفيه ، وترك النافذة ، فى الوقت الذى بدأ على يغادر الرصيف .

لا يعرف على لماذا أراد أن يلقى نظرة أخرى على ناظر المحطة النائم . أطل عليه من النافذة فوجده يغط . ابتسم وترك المكان . دار عائدا بعد أن جمع حفنة من تراب . من بين أسياخ النافذة الحديدية ، ذر التراب على وجه الناظر . انتظر لحظة حتى ينهض . لم ينهض . غادر المحطة وهو يتعجب من هذا الناظر . ثم تعجب من نفسه ، ومما يفعله اليوم

سار وسط القضبان . أحس بنفسه خفيفا ، يكاد يطير فى الفضاء الواسع . جعل يتناول أحجارا يقذفها لمسافات بعيدة . فى كل مرة يرى المدى الذى يصل إليه الحجر ، فيجده أبعد من المرة السابقة . صار ابطه يحرقه ، لكنه ظل يقذف الأحجار .

ماذا يحدث لو قذف حجرا لم يسقط فوق الأرض . ؟

ماذا يحدث لو ظل الحجر سابحا فى الفضاء ؟

إلى أين سيصل ، ومن سيصيب فى النهاية ؟

تمنى لو استطاع أن يفعل ذلك . لو ظل الحجر يطير من مكان الى مكان . من محطة الى محطة . وفى كل مكان يمر به ، يشير إليه الناس ويقولون ، أنه حجر على مايزال سابحا فى الفضاء . وتمضى الأعوام ، ويظل الحجر سابحا فى الفضاء . ويقول الأطفال لآبآئهم ، مر علينا اليوم حجر سريع ، من أين جاء ومن صاحبه ؟ ويقول الآبآء أنه حجر على الذى قذفه منذ عشر سنوات . ويكون هو قد كبر عشر سنوات . وتمر السنون ، ويسأل الأطفال اباءهم ، لقد مر علينا اليوم حجر سريع ، من أين جاء ومن صاحبه ؟ . فيقول الآبآء ، أنه حجر على الذى قذفه منذ عشرين سنة من بلاد بعيدة . ويكون هو قد كبر عشرين سنة . وتمر السنون ويسأل الأطفال اباءهم لقد مر علينا اليوم حجر سريع من أين جاء ومن صاحبه،فيقول الأباء أنه حجر على الذى قذفه منذ خمسين سنة ..! ويعود الحجر بعدها أولا يعود بعد أن يستكمل دورته . .

لكن قلبه ينقبض . يشعر أن الحجر سيعود . سيكون هو يحتضر ، ويسقط الحجر أمامه . ويقول له الناس هذا حجرك ياعلى ، قد عاد اليك . ويحتضر . تمر السنون . يكبر الأطفال.. وينسون الحجر السابح فى الفضاء .

. . ولمعت فى عينيه ألوان الهدهد الزاهية . كان واقفا فوق أحد القضبان قريبا منه مباشرة ، رافعا عرفه فى شموخ وصدره إلى الأمام كأنه يتأمل الدنيا لأول مرة . شاء على أن يقذفه بحجر ، لكن الهدهد فرد جناحيه فلمع فى عينيه اللون الأبيض الزاهى مع الدرجات المختلفة للون البنى ، ومع اللون الأسود القاتم اللامع . أحس على بالبهجة تسكبها فى روحه ألوان الهدهد . وجه الحجر بحيث يطير فوق رأسه . ظل الهدهد واقفا . لم يطر . فقط نظر إليه . اقترب على منه والهدهد لا يتحرك ، فكر على أنه يستطيع أن يمسكه . لكنه حين انحنى فوقه ، طار الهدهد ، وحط على قضيب بعيد .

وقف كل منهما ينظر الى الآخر . ابتسم على فى النهاية ، وقرر العودة الى البيت . فالآن تكون إسرة زيدان قد رحلت ، ويكون الناس قد دخلوا بيوتهم .

تذكر على ماتردد أمس عن مجيء القطار اليوم ، وكيف لا يبدو أن أحدا استعد للخروج إليه. كان قد سمع رجلا يقول « دائما يقولون انه سيأتى يوم الجمعة . لو قالوا يوما آخر سيجيء » ولم يفهم ، وان تضايق . يبدون وقد نسوه ، أو تناسوه . لكنه يعرف أنه لو عاد سيخرجون اليه . وهو أيضا سيخرج . لا يستطيع أن يترك ليلى وحدها . ربما هذه المرة يستطيع أن يمنعها . لا يعرف بالضبط . لكنهم صاروا على كل حال مشغولين بأحداث أخرى . ربما أيضا بالخوف . وهو لايخاف الا حين يرى ليلى تبكى . لكن والديه لا يزالان يمنعانه من الخروج ليلا لصيد القنافذ . كما حطم أبوه فخاخه وشصه ، ومنعه عن كل صيد . قال له « العب فقط » . لكنه لا يلعب . الأطفال فى الصيف الماضى لم يلعبوا . حتى البلى والنحل التى لعبوها فى الصيف الأسبق ، لم يلعبوها فى الصيف المنصرم . آخر مرة لم يستطع أحد من الصبية ، أن يضرب بلية فى بلية . لم يستطع أى منهم أن يرفع النحلة دائرة فوق كفه . النحلة أيضا صارت تدور قليلا ، ثم تقع على جانبها . لم يعد أمامه غير أن يخرج يتفرج على قطارات الخواجات والجنود . قطارات الخواجات كثيرة . قطارات الجنود صارت قليلة . أحد الأطفال قال عن قطارات الخواجات ، أنها قطار واحد يروح ويجيء فيظنونها كثيرة . ضربه الأطفال . لكنه قال فى نفسه قد يكون هذا صحيحا . لكن الجنود دائما جرحى . وأمس رأى عم عبد الله ، يجرى وراء نمس كان يخطف الدجاج ، وكان الجميع قد ضجوا منه . لكن النمس كان سريعا ، فلم يلحق به العجوز . سميرة ابنته صارت تمشى وهى نائمة ، كما يقولون . أمها تحكى للنساء ، كيف تربط قدمها كل ليلة فى عامود السرير ، فاذا قامت تعثرت ووقعت ، فتنهض أمها تسقيها وتقرأ عليها « قل أعوذ برب الناس » . وهو يرى سميرة الآن تقف عند عارضة التصادم الخشبية عند نهاية القضيبين اللذين كان يأتى عليهما القطار . انها جالسة فوق أحد القضيبين تعبث باستغراق فى الزلط

الصغير أمامها . تلقى ببعض حباته بهدوء ، والشمس الواهنة تنعكس أشعتها على الترتر الأبيض الذى يحيط غطاء رأسها . اتجه اليها . حين اقترب منها أحس أنه رجل وأنها طفلة صغيرة .

— ماذا تفعلين هنا وحدك ياسميرة ؟

ابتسمت . كانت عيناها دامعتين . عيناها العسليتان المسحوبتان كعينى النمس ! جعلت تمسح جسده ووجهه بعينيها ، ثم مسحت دمعها بسبابة يدها اليسرى . قالت بدهشة ووداعة .

— كبرت ياعلى !

ارتبك

— تنتظرين القطار ؟ اننا نقترب من الظهر .

أشار الى الشمس التى تتصاعد الى منتصف السماء وقال .

— لو كان سيأتى حقا كان جاء مبكرا .

قامت سميرة . نظرت الى راحتيها فوجدتهما متسختين من أثر الزلط . نفضت بظهر كفيها جلبابها من فوق مقعدتها . وقفت فى جهة من عارضة التصادم . كان على يقف قبالتها . جاء عصفور صغير سريع وتوقف فوق العارضة بينهما . حرك عينيه ناحية سميرة ثم ناحية على . حط جواره عصفور آخر . طار الأول مسرعا يرفرف بجناحين ويسقسق . حرك العصفور الثانى عينيه كالأول ثم حط ثالث جواره . طار الثانى . كاد على يتكلم فحط عصفور رابع وطار الثالث . كادت سميرة تتكلم لكن العصفور نظر اليها ثم الى على وطار حين حط جواره عصفور خامس . وتواترت العصافير تنظر اليهما وتطير . ارتبكا . ابتهجا . ضحكا . لم يعرفا لماذا تفعل العصافير ذلك . ظلا يضحكان طويلا وقد أمسك كل منهما بناحية من عارضة التصادم المرتفعة . تجمعت العصافير التى طارت بعيدا عنهما فى دائرة كبيرة ، ثم تفرقت طائرة فى كل اتجاه وهما لا يزالان يضحكان .

— ألا تصطاد الآن ؟

— الطيور صارت خبيرة بالفخاخ . والأسماك صارت خبيرة بالطعم .
لا يعرف لماذا كذب وتجاهل أنها تعرف كل ما يدور فى المنطقة . قالت
— هل جربت ؟
ارتبك قليلا .
— سأصطاد هذا الشتاء .
نظرت اليه مليا .
— كبرت ياعلى !

وكانت قد عادت تمسحه بعينيها من جديد . ازداد ارتباكه . نظر حوله . لم يكن بالمكان غيرهما . الفضاء واسع ، البيوت نائمة عليها صمت . البلوك بعيد ، المحطة وناظرها مرتاحان الى النوم . لا قطارات ولا بشر . حتى الطيور إختفت . والسحب كأنما حبسها حارسها اليوم فى مكان بعيد فى السماء . الكون صاف ووجه سميرة صار متألقا بعد أن زالت آثار الدموع .

أحس على أن شيئا ساخنا يصعد الى حلقه . شيئا كالذى شعر به أول مرة حين أنفرد بالوسادة ، لكنه هذه المرة أكثر بطئا واتساعا،وبدأ حلقه يجف وعيناه تتسعان . سأل نفسه ، هل يمكن ؟ ومع سميرة ؟ وهنا ؟
— لم نعد نرى ليلى كثيرا ؟
دار رأسه . قال متلعثما .
— صحيح .
ابتسمت .
— ان ليلى جميلة .
لم يفهم . لم يرد .
— ياعلى . الجميع يقولون انك ذكى .
كانت تقترب منه وهى تتحدث .
— الجميع يقولون انك لا تخاف الليل . ترمى قطارات الخواجات بالأحجار — وصارت تعبث بزرار قميصه — وانك صرت ترتدى السروال والقميص —

ابتسمت فابتسم مضطربا للغاية — وأنا أحبك . لكنك سافرت وتركتنى . أنت تحب السفر فوق القطارات . تقول ان هذا عملك — أمسكت به بعنف وشراسة — وتريدنى أن أبحث عنك وأموت فى البحث وأخرج كالعفاريت من بين ماء البحيرة ، أو آتى من السماء فى الأحلام — وصار على فى غاية التوتر — لماذا تفعل بى ذلك ؟ لماذا وأنا أحبك ......

جعلت تخمش وجهه بأظافرها ، وتشد شعره . حاول التخلص منها . لم يستطع . كانت قوية . لكنه استجمع قوته ، وسبب له ذلك حزنا شديدا فيما بعد ، وصفعها مرة ومرتين وثلاث فتركته ووقفت خاشعة باكية أمامه . أمرها أن تعود الى البيت فأذعنت ذلولا .

ظل هو واقفا يتنفس بسرعة . لا يعرف لماذا نظر الى عارضة التصادم . لم تكن هناك عصافير . وغامت الدنيا إذ أطلق حارس السحب سحبه فتدافعت كثيفة تخفى الشمس والسماء بسوادها . لحق بسميرة التى كانت تسير منكسرة . أمسك بيدها . قال .
— ستمطر . فلنسرع .
وهرولا الى البيوت العشرين .

لا يعرف على لماذا انقبض صدره . لقد قال لسميرة وهما يجريان ، لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسى . لكن هذا ليس سبب ذلك الانقباض . حين اقترب من البيوت اتضحت الفكرة . أدرك أن الفرقة صعبة . وأنه سيعانى كثيرا . لقد فكر فى ذلك أكثر من مرة من قبل ، وكان ينصرف دائما عن الفكرة بالإستغراب . لكنها صارت ملحة الآن على ذهنه . وما انقباض صدره إلا رهبة مبكرة . لكن هل سيفعلها؟ هل يحدث أحدا فى ذلك . ومن سيوافقه؟. وما معنى الفكرة أصلا ؟. اذن فليفاجىء الجميع . ومن يدر قد لا يفاجأون . لكن سعاد وحدها ، ومن بين الجميع ، ستعصف بها المفاجأة ، ربما أكثر من أسرته . لكنه لا يستطيع أن يهرب من الحاح الفكرة عليه ، آه ، ولا يستطيع أن ينفذ . إذن فليفكر فى ذلك كله فيما بعد ، وليدخل الآن يتقى المطر .

□ □ □

انتهى يوم الجمعة . ما كادت نعمة زوجة زيدان ترحل ، حتى دخل الجميع البيوت . حتى صلاة الجمعة لم يخرج اليها أحد،فهم منذ مات الشيخ مسعود ، صباح جمعة الشتاء الماضى ، لا يخرجون جماعة الى الصلاة . لم يعد الجامع يشهد تلك المناقشات الحامية بينهم وبين الشيخ مسعود.لكن عبد الله كان يخرج الى الجامع رغم ذلك . يجد نفسه دائما وحده . مرة واحدة وجد شخصا كان زيدان . لكن زيدان ماكاد يصل الى منتصف الصلاة ، حتى خرج جاريا !

دخل الجميع البيوت ودفعوا الأطفال أمامهم . ولم يستطيعوا أن يمنعوا رقابهم أن تستدير لترى عيونهم الخلاء الواسع ، الذى كان يقف فى وسطه القطار ... وكانوا يعرفون ان القطار لن يأتى أبدا .. كان على فى ذلك الوقت داخل البلوك متحفزا لتحريك التحويلة . وسميرة تستدير من خلف البيوت حتى لا يراها أحد ، لتذهب الى حيث يأتى القطار ، وتجلس تحت عارضة التصادم الخشبية تعبث بالزلط القذر . لكن يوم الجمعة هذا ، كان مختلفا فوق الجسر .

والجسر ، هذا الطريق العريض ، الذى يشق البحيرة الى نصفين والذى يزدحم يوم الجمعة أكثر من أى يوم ويكاد الباعة بيض الوجوه قصار الجسم من شمال البلاد ، أو سود الوجوه طوال الجسم عجاف من جنوبها ، يتوهون فوقه بين زحام المشترين القادمين من المدينة القريبة التى يدور أمامها البحر ، والتى تأتى منها النساء بملاءات سوداء ملفوفة على أجساد مكنونة ، ولا تنسى أن تبرز جزءا من أسفل أو أعلى يدعو للفضائح . أو نساء بملابس قصيرة زاهية يتنقلن كالفراشات . ورجال وشباب وأطفال يرتدون كل أنواع الأزياء . الجسر الذى امتلأ بأكوام الأسماك . سمك الثعبان والقرموط والبورى والبلطى والبساريا . أسماك البحيرة الشهيرة . ورائحة الزفارة تملأ الجو فوقه . وبائعو السمك جميعا بسراويلهم السوداء

الواسعة ، وصديرياتهم المفتقة ، وأيديهم المبتلة التى التصقت بأصابعها قشور السمك ، يرشون الماء بين الحين والحين فوق الأكوام . هذا الجسر كان مرفأ زينب الأخير . وكأنما خلق كى تصبح زينب بائعة عليه لكل شىء . عرفت كيف تنادى وتهمس . كيف ترش الماء فوق أكوام السمك . متى ترفع السمكة فى الهواء . متى تفتح خيشومها أمام الشارى . ومتى تغمز الثعبان أو القرموط بيدها فيتحرك دائرا حول نفسه يعلن عن ضيقه وطزاجته . دخلته زينب ، ابنة الطبيعة البكر كما قال عنها زوجها ، ولم يحذرها !. ولو كان يعرف لنطق . ولو كان يقدر لغاص وسط الماء وانسطح ، لها فقط رغم كل الخطايا التى يحملها فوق ترابه .

استمرأت زينب الجحيم . وظل الجسر يعرف صامتا ، أنها تتركه فى نهاية كل يوم ، كما يعرف أنها تعود كل صباح .

قالت هنية ، التى عرفت زينب اسمها فيما بعد .

— تريدين سمكا . ؟

ونظرت الى عينيها . رأت كل منهما فى عينى الأخرى اجابة على سؤال سرى . اقتربت منها هنية . رأت فى عينى زينب لهبا وحزنا لامعين .

— من أين أنت يا أختى . ؟

رأت زينب فى عينى هنية قسوة « تعرفين كل شىء يالبوءة » قالت ذلك فى نفسها ، وهى تشعر أن هنية تعريها تماما بنظراتها . قالت فى نفسها مرة أخرى « أننى طيبة ياربى فلماذا ؟ » . تذكرت أنها سمعت الشيخ مسعود يقول « ما أعظم الانسان الذى يعرف نفسه ، وما أبهاه » وظلت تردد لنفسها « أين أنت يا حامد . يابعلى المسكين الذى ظل يجرى وراء المجهول ، ووراء عربة المفتش » .

خانتها شفتاها وتحركتا . أدركت أن هنية فهمت حركة الشفتين . تركت لها يدها . دخلت معها الخص البوص . جلست . بكت . عرفت كل منهما الأخرى صراحة . قالت هنية فى نفسها « كم هو جبان خسيس الذى يترك امرأة كهذه » . ثم قالت بعد أن أعدت كوبين من الشاى .

— أين هو الآن ؟

كيف بكت زينب ؟ . لم تكن تعرف أن الضعف سيتملكها هكذا . مسحت دمعها وقالت بقسوة . بحقد لم تكن تعرف أنها تملكه .

— لا أعرف .

ودخلت المرأة السمينة أم هنية . نظرت اليها وخرجت . أدركت زينب السر كله . قامت لتودع هنية .

— ابقى معنا . اعملى معنا . تأتين كل صباح . تعودين فى المساء . تبيعين وتشترين . تأكلين ويأكل الصغار .

قالت زينب فى نفسها « وتأكل العجوز أم جابر » . كانت جادة . صادقة . وكان ذلك منذ نفد مالديها من نقود .

عرفت زينب كل شيء عن البيع والشراء

وانها لن تستطيع مهما نظفت نفسها أن تتخلص من رائحة الزفارة التى صارت عالقة بها . أدركت أن نظرات العجوز اليها بعد العودة كل مساء تعذبها . عرفت كيف كان لبكائها ، وهى تحتضن الصغار ، وبعد أن تنفرد العجوز بنفسها لتنام فى الحوش ، وبعد أن تكون نيران الفواريكة قد أدفأت الجو ، طعما مختلفا .

سألت نفسها كثيرا لماذا لم تقاوم ؟ لماذا هذا اليقين الجازم بأن حامد لن يعود ؟ كيف أنه كل مساء ، حين يخلو الجسر من الباعة والمشترين ، ويصبح كثعبان عريض أسود ، ويزحف الظلام فوق كل شيء ، ويصعد القمر تائها زائغ النظرة ، وتهب نسمة تتمايل بنبات الحلفاء ، ويظهر طير الخفاش الأسود يحوم فى الفضاء ، ويبترد جسمها وتأخذه الرعشة ، وحين يبدو الكون كقلب صدفة معتمة ، تتحدث اليها الطبيعة باليقين النافذ بأن حامد لن يعود ؟ .

ولماذا كل صباح ، حين تخرج مبكرة قبل الناس جميعا ، وتكون الشمس لم تصعد بعد ، وأشعتها فقط تجعل خط الأفق متوردا خلف الجسر ، وتبدأ الطيور

الصغيرة تدور فرادى تائهة ، ويكون الضباب يملأ أركان الفضاء ، وهى تسير فى اتجاه الجسر ، فى قدميها خف خفيف لا يمنع البرودة عنهما ، وحين تشعر بأن الكون قلب بيضة كبيرة ، أجل بيضة تسير فى قلبها عاجزة عن أن تكسر جدرانها وتخرج الى النور ، لماذا حينئذ تتحدث اليها الطبيعة بأن حامد لن يعود ؟ وأن مابقى لها الآن عجوز تقاوم الموت جمعتهما الفاجعة معا ، وأطفال يكبرون فوق الأثم المسطور منذ زمن . ثلاثة ضمائر تنمو أمامها كل يوم ، وضمير عجوز يموت ، لكنه ضمير !

ضاقت زينب بالكون الذى يثبت أقدامها فى الطين . لكنها لم تفكر أو تحاول أن تنزعهما .

كان الأول أبو هنية . رأته يغمز لأم هنية

ورأت المرأة تبتسم ثم تنهض . نظرت الى هنية وهى تأتى حاملة ركية النار . نظرت هنية الى الأرض وخرجت . اشتعلت النار فى قلب الخص وتوهجت .

حاولت بعد ذلك أن تحصى روادها الغرباء فلم تستطع . ثم كرهت أن تحاول ذلك .

سألت نفسها لماذا لا تأخذ الصغار وتسير فى بلاد الله الواسعة ؟ ثم نسيت أن تجيب . صارت بعد ذلك حين تتذكر السؤال ، تنساه على الفور .

كم قالت لنفسها أن الكون كاذب ، يكذب عليها مرتين كل يوم . حين يصبح كقلب بيضة كبيرة ، وحين يمسى كصدفة معتمة . وأن حامد سيعود . لكنها كانت تنسى ذلك أيضا . وحين تحاول أن تصل الى إجابة لا تتذكر إلا أن الأيام تمر سريعا ، ولا تعطيها فرصة التفكير . ما تعرفه يقينا الآن هو إنها محاصرة بين الصدفة والبيضة ! اما اليوم فقد انتهى ، وهى لا تعرف ماذا حدث خلاله فى البيوت العشرين . لكنها تذكر ماحدث معها وسوق السمك صاخبة .

لقد شعرت وهى تنسحب الى الخص أن قلبها يسقط الى قدمها ، وحينذاك جاء وافد المدينة القلق ، والذى فعل ماصار محفوظا ، إذ تكلم قليلا مع أم هنية ثم ضحك ، وجاءت المرأة ووقفت مكانها خلف كوم السمك ، وانسحبت هى الى الخص . حينذاك ، حاولت أن ترى ملامح وجهه بدقة وهو يصعد . لكن قلبها الذى كان ينبض بقوة شغلها عن ذلك،ولم يصرفها عن محاولتها موها الدائم لنفسها أنه لا فائدة ، فهم كلهم متشابهون . ولا يعرف أحد لماذا كانت دائما تدقق فى وجوه الغازين وعم كانت تبحث ؟ أحست بقلبها يكاد يتخلع ويقفز خارجا ، وكأنما صار للقلب جناحان كبيران معذبان توقيعهما عنيف ، انتفضت تحت الرجل . ضاق بها ونهرها قائلا « لماذا تبكين ؟ » ولعن الحظ واليوم . تحركت شفتاها بابتسامة . مسحت دمعها وشجعته . لكن قلبها خذلها وعاد يخفق من جديد . تمنت لو تركها الرجل . لكنه لم يفعل . صار شرسا . لم ينظر الى وجهها ثانية . بدا كمن ينتقم من مجهول .

قبل أن تدخل زينب إلى البيت شاهدت دخانا يخرج من عشة بيت سعاد فعرفت أنها تخبز . تذكرت الشيخ مسعود حين قال لها انهضى واسأليه الى أين ؟ رثت للعجوز الميت ، قالت فى نفسها ، هل حقا كانت تلك الكلمات القليلة ستوقف نهر العصيان ؟ وترحمت عليه . أكلت مما أحضرت وأكل الأطفال . أكلت العجوز أم جابر لقمة فى حجم أنامل أصابع اليد بينما قامت هى لتحضر الفواريكة التى كانت قد أشعلتها ، من الخارج . كان مطر خفيف قد بدأ ينزل .

حين امتدت يدها الى الفواريكة تحملها ولفحتها نيرانها ، وبعد أن نظرت الى الفواريكات الأخرى أمام العشش ورأت دخانها يملأ الفضاء ، قالت لنفسها « دائما تصفو فواريكة حامد قبل غيرها . بسرعة تتوهج وبسرعة تنطفىء » حملت

الفواريكة ودخلت . فى منتصف الحوش شعرت بسخونتها تحت يديها . نظرت الى الخرق الملقاة فى كل مكان ، شمت رائحة المرحاض ، وتذكرت فجأة لماذا انتفضت وانقبض قلبها وبكت ظهر اليوم .

لقد رأته . حامد نفسه ، عاجزا عن الجرى . عاجزا عن السير . مربط القدمين بالخرق . متورم الساقين . محروق الوجه . مغبر الذقن والشعر . ارتخت جفونه حول عينيه . يرفع ذراعيه بصعوبة . يتكلم بصعوبة ولا يكاد يحرك لسانه . تتساقط أسنانه نقطا من الدم الأسود الجاف . يصرخ فى فضاء واسع . صدفة معتمة مرة . بيضة كبيرة مرة.يدور حول نفسه ويقع . يتجه بعينيه المتعبتين الى شىء مجهول ويبكى بلا دموع ثم سقط رأسه فوق صدره، ورأت دموعه تحفر قناة من الدم فى الأرض تلغ فيها الكلاب .

أقبلت أم جابر من الحجرة الداخلية الى الحوش المعتم الذى أضاء فجأة بضوء نيران الفواريكة . رأتها زينب عجوزا انحنى ظهرها انحناءة كبيرة حتى لكاد رأسها يلامس الأرض . كانت أم جابر تجرجر حراما قديما صار ثقيلا من أثر البول الدائم للصغار عليه السنين الماضية . لم تكلم أى منهما الأخرى . دخلت زينب الى الحجرة . غطت الأطفال الذين ناموا ، ولم تنم .

قالت له « ياحامد بح بما عندك أريحك »

لم يفعل . « ياحامد لماذا تريد أن تظل تجرى طول العمر ؟ » . نظر اليها وفى عينيه نار . قال لها « أنا لا أجرى . شىء ما يدفعنى من الخلف . محكوم على بالشقاء » ثم قال « لقد سألت الشيخ مسعود فكاد يضربنى . قلت له هل تدلنى على أصول هؤلاء الناس ؟ من أى البلاد نحن ؟ . اننا من صنع الشيطان.علل لى معنى القطار ؟ انت شيخ عالم منقطع للعبادة وتعرف الأسرار لكنه كاد يضربنى » وقالت له « انت تتدخل فيما لا يعنيك » قال لها « الشيخ مسعود قال ذلك .

لكن آلا يعرف زيدان شيئا عن عرفة ؟ ألا يعرف الشيخ مسعود شيئا عن زوجته وفريد ؟ » ثم قال « أى جوع نقتات وأى عفن نرتوى . اننا نقوم باصلاح سكك حديدية لا نعرف لماذا تمر فوقها القطارات »

قالت فى نفسها لعلك ارتحت الآن يا حامد . لعل أحدا يراك . لعل أحدا يقابلك فى مكانك الذى لم تحدثنى عنه ، ويحدثك بما جرى أنت وجابر . تركتنى بلا سبب أعرفه . لم تقل لى لماذا ؟ ولم أفهم . عاملتنى بالقهر أنا التى ذابت قدماى معك مشيا فوق القضبان والعوارض . تركتنى صباح ليلة كاذبة أحسست فيها انك تعطينى أنا وحدى ، لكنك كنت تعطينى كل شىء وكل ماعندك . ما أكثر الليالى التى تركتنى فيها لكنك كنت تعود وأنسى . متعبا مكدودا تعود ولكن أنسى . أشعر بك سترا وغطاء . ويل للمرأة الوحيدة من فزع الجدران . حتى السماء لا تحنو عليها . تركتنى ليالى طويلة ألتهب باليأس والضجر ، لم أحزن ، ولم أمل ، كنت تعود وأنسى . ثم جاءك ليقف معك قليلا فى العشة يسر اليك بكلمات مهرولة كما تجرى . وسألت نفسى لماذا لا يحدثك فى الصباح ؟ . ولاذ كل منكما بالآخر . ترك العجوز، وتركت لى العرى من كل غطاء . لا خطاب ولا خبر ولا الطير يستطيع أن يحمل الرسائل كما كنا نغنى فى بلادنا ، ولا الريح ولا السماء تنقل الكلمات . ربما لو كنت سألت أحدا أين يستطيع الذهاب من أراد أن يخرج من هنا كنت وجدت اجابة . هل تعرف ياحامد أنى عرفت الطريق الى الجسر ، الذى رقيته أنت كثيرا فى ليالى العتمة والقمر . ؟

فى تلك الليالى كنت أحبك رغم كل شىء . لكن الآن ، لو عدت سأضع عنقى تحت عجلات قطار الخواجات أو الجنود . لن أنتظر حتى تنمو الضمائر الصغيرة أو يبوح الضمير العجوز . سأنصرف عن هذه الوحدة الى غيرها . هل عرفت الوحدة مثلى الآن ؟ . العجوز نامت.الأطفال نيام.اللمبة الغازية نائم

ضوؤها . الفوابريكة نامت فيها النيران ، وكل شىء حولى يبتعد . حتى صورتك التى رأيتها وأنا تحت الرجل بالنهار اليوم لا تؤنس وحدتى بالليل رغم الخوف الذى يشع منها ! الليل صديق جائر دائما لا يحب الشركاء . والصباح ، لا أعرف ماذا سيحمل من آلام . لم أعد أعرف ماذا يحدث هنا وأنا فوق الجسر . والعجوز امتنعت عن الكلام . أنا الآن ملك هنية وأمها وأبيها . الثلاثة الذين ملكتهم أنت سنينا . انت ياحامد كنت شريرا . كذبة اكتشافها علقم وثمن فادح . ومازلت شريرا تختار أن تأتينى فوق الجسر فى وضح النهار ، ولا تفكر أن تؤنس وحدتى مرة واحدة فى هذا الليل الكابى . تماما كما كنت دائما . تماما كما كنت دائما .

وقامت زينب لتنام ، وهى تعرف ماذا ستفعل غدا منذ الصباح . استعدت لرؤية صورة زوجها . واستعدت لطردها هذه المرة .

□ □ □

ليلى

مذ مات الشيخ مسعود وسعاد تبدأ يومها كل مساء . أمضت صباح أيام الشتاء الماضى تصعد السطح وتفتح صدرها للمطر ، ولن تفعل ذلك شتاء هذا العام . تمضى نهار أيامها إما وحيدة فى البيت نائمة ، أو جالسة لا تفعل شيئا ، ولا حتى تفكر . تذهب للحديث مع ليلى أو تنتظرها . لكنها كانت دائما ترقب الغلام على . وحين يأتى المساء يبدأ يومها . فى المساء تطهو طعام الغد . تغسل الثياب . تناجى بعلها الميت وتقيم معه طقوس الحب . وتخبز إذا حان موعد الخبز .

الآن ، وكان الجميع قد دخلوا بيوتهم منذ الضحى ، ومضت ساعات على ذلك إذ خيم المساء ، بدأت سعاد يومها . بدأته بالخبيز . تماما كما كانت تفعل

قبل موت الشيخ مسعود حين كانت تخبز مع بداية اليوم ، لكن فى الصباح !

قالت ..

— لماذا لم تعودى تأتين كثيرا ؟

— أمى وأبى يمنعانى لا أعرف لماذا ؟

لم تحاول سعاد أن تستقصى شيئا .. عانت فى الأيام الأخيرة من انقطاع ليلى عن زيارتها . حين كانت تذهب لرؤيتها كانت ترى الجفوة فى عيون الأم والأب.انها على كل حال مدركة بيقين واضح أنه فى هذه الأيام ، وفى هذه المنطقة بالذات ، كل شيء جائز ويمكن حدوثه ، ولا يجب أن يسأل أحد عن تغير شيء . سألت .

— أين على ؟

— سيأتى بعد قليل ..

لا تعرف لماذا سألت عنه . فهو فى الشتاء الماضى لم يكن يأتى مع ليلى لأنه لم يكن شتاء سهر ولا مرح . وفى الصيف لم تأت ليلى لتبيت معها . وهى لا تعرف اذا كانت ستبيت معها هذا الشتاء أم لا ؟ . لقد سألت عن على ونسيت غرابة السؤال . عللت نفسها بأنها كانت قديما تسأل عنه اذا جاءت ليلى وحدها ، ثم أن أحدا فى الدنيا لا يشعر بما تحس به .

كانتا جالستين فى الحوش على الأرض وأمامهما إناء العجين مغطى بقطعة من القماش القديم . رفعت سعاد قطعة القماش ، فبان وجه العجين مرتفعا ، وبعض فقاقيع على محيط الإناء الدائرى الصغير من الداخل . قالت .

— قرصى أنت وسأحمى أنا الفرن .

قرفصت ليلى أمام اناء العجين بينما قامت سعاد الى العشة حيث الفرن . جعلت ليلى تنثر قليلا من « الردة » فوق صينية الصاج التى ستقرص فوقها العجين . قالت سعاد وهى فى العشة .

— لقد عادت تمطر

— لن تكف إلا فى الصباح . اهتمى بالدجاج .

— سقف العشة متين . لن تسقط الأمطار فوقنا على أى حال .

بيدها اليمنى تقبض ليلى قبضة مناسبة من العجين . تحركها بين كفيها . تكورها . تضعها فى طبق به دقيق . تنقلها بعد ذلك بين يديها أكثر من مرة . تصبح قرصا مستديرا يساعد الدقيق على سهولة تحريكه دون أن يلصق بشيء . تضعه بعد ذلك فى الصينية . تمسك قبضة أخرى . تفعل بها مافعلته بالسابقة . تضعها جوارها .

كانت عملية سهلة معتادة تقوم بها ليلى بسرعة . تفعل ذلك حين تخبز أمها . وأمها تضع الأقراص بعد فردها فى الفرن . أمها لا تحب لها أن تجلس أمام الفرن كثيرا . لكنها تحب ذلك . ومن ثم فهى تساعد سعاد دائما حين تخبز فهى عند سعاد فقط تجلس أمام الفرن . لذلك لذة كبيرة . لذة حين تفرد القرص بأصابع يديها ثم راحتيها . حين ترفعه قليلا فى الهواء أكثر من مرة فوق « المطرحة » . حين تناول المطرحة لسعاد تلقى بالرغيف داخل الفرن ، أو حين تلقى هى به فترى وجهه ينتفخ على الفور . وقربها من الفرن يجعل وهج النيران يلفح وجهها . تحمر بشرتها وتتورد . يثور جسمها ويتفجر . لا تستمتع بذلك حين تخبز أمها . لكن حين تخبز سعاد ينتهى الخبيز ووجه كل منهما وردة مبهرة . تقرصها سعاد فى خدها ، وأحيانا فى فخدها ، وتضحكان . وكانت وهى جالسة « تقرص » العجين ، تسمع صوت قطع الخشب وسعاد تقوم بتكسيرها « بالحجارى » الصغير .

سعاد تفعل مايفعله الرجال . تدوس بقدمها اليمنى على طرف قطعة الخشب القريب . تضرب القطعة بسن الحجارى الذى يخترق منتصفها . ثم تميل الحجارى الى الجانب فتنفلق قطعة الخشب الى قطعتين . وكانت ليلى تسمع صوت انشراخ الخشب وطقطقته . كثيرا ما انزلقت يد سعاد من فوق ذراع

الحجارى الخشبية . وكانت تقاومها دائما قطع الخشب الحمراء ، لكن سعاد تعاند فيحمر وجهها وتنتفخ عروق عنقها . يهتز مع اهتزازها ثدياها ، وتضحك حين تنزلق يداها من فوق ذراع الحجارى وتكاد تقع .

القت سعاد بكمية مناسبة من الخشب

داخل الفرن وأشعلته . ابتعدت عن الفرن قليلا . خرج فى البداية دخان كثيف فتحت له باب العشة ليتسرب للخارج . كانت ليلى قد انتهت . « أربع صوان فقط . لم تعد سعاد تخبز كثيرا . » قالت ليلى لنفسها ومسحة حزن ترين على وجهها .

— مابك ؟

رأتها سعاد حزينة فسألتها . كانت قد دخلت الحوش لتنقل صينية الى العشة . قرصتها فى ذراعها قبل أن تحمل الصينية . حين انحنت لتحملها انكشف أمام عينى ليلى الجالسة ثدياها . لم ترد ليلى.وقفت سعاد والصينية بين يديها وقالت ..

— لماذا تضحكين ؟

كانت ليلى قد ابتسمت حين برق فى عينها بياض ثديى سعاد الخاطف . لم ترد . تناولت احدى الصوانى وقامت خلف سعاد . وضعتا الصينيتين وافترشتا قطعة كبيرة من القماش المهترىء بعد أن أغلقت سعاد باب العشة اذ تسرب الدخان . لكنهما سمعا صوت باب عشة زينب يصر وهو ينفتح ثم وهو يغلق . جلست سعاد فى مقابلة ليلى.الصينية على يسارهما والفرن على يمينهما . قالت ليلى .

— عادت زينب الآن . صوت باب عشتها .

سكتت سعاد .

— ألم يصلها حتى الآن خطاب من زوجها . ألم يأتها أحد ؟.

— الخطابات كانت تأتى مع القطارات . والآن لا تأتى إلا قطارات الجنود أو الخواجات ..

— هل ستظل على هذا الحال . ان المصلحة تخلى البيوت اذا خرج أصحابها الى المعاش أو انتقلوا أو فصلوا .

ابتسمت سعاد فى سخرية . خافت . لكنها قالت .

— المصلحة أيضا غائبة .

قالت ليلى وهى تفرد قرصا من العجين فوق المطرحة التى وضعتها فوق أحدى ساقيها عند انثناء الركبة .

— طيبة زينب هذه ، أخذت العجوز أم جابر معها .

سكتت سعاد قليلا وهى تفعل مثلما فعلت ليلى ثم قالت .

— لقد رأيت زينب أكثر من مرة وهى عائدة .. انها تبدو مهمومة تفكر فى شىء ما .

طيرت ليلى الرغيف عاليا فى الهواء ، ثم تلقته ببراعة فوق المطرحة التى أمسكتها بيديها وقالت :

— ماذا تعنين ؟

— زينب تفكر فى الرحيل . هكذا قالت لى عيناها أكثر من مرة .

القت ليلى الرغيف فى الفرن . وكانت بدأت تشعر بحرارة النار تسرى جسمها . قالت .

— دعينى ألقى أنا فى الفرن

— أى !

قالت سعاد فجأة ..

— ماذا جرى ؟

— نسينا تنظيف « العرصة » .

نهضت ليلى مسرعة وأحضرت دلوا به ماء وقطعة من الخيش . لفت قطعة الخيش حول طرف سيخ حديدى طويل . غطستها فى الماء ثم أخرجتها . أدخلتها الى الفرن فوق « العرصة » الحديدية التى يلقون فوقها الخبز والتى تكون تحتها النيران ، وجعلت وهى تمسك بالسيخ من الناحية الأخرى تنظفها . كانت سعاد قد أخرجت الرغيف الذى ألقته ليلى من قبل ، وقذفت به بعيدا فوق قفص

الدجاج وصوت التقاء قطعة الخشب المبتلة بالعرصة المعدنية الساخنة يطش عاليا . أحست ليلى بوهج النيران على وجهها بقوة ، انتهت من ذلك فوضعت السيخ وقطعة الخيش داخل الدلو ثم وضعتها جميعا جوار الفرن .

فكرت سعاد فى رغبة ليلى الدائمة أن تلقى بالخبز فى الفرن . سعاد تجد لذة حين تقترب بوجهها من فتحة الفرن لتلقى بالرغيف من فوق المطرحة . وحين ينثال العرق يحرق ابطيها وفخذيها وخلف أذنيها . كان يوم الخبيز دائما يوما لها وللشيخ مسعود . فالرجل الذى كان يخرج من المنزل قبل الفجر بقليل ليؤذن ويصلى بالناس، كان لا يستيقظ إلا فى ضحى اليوم التالى . ولأنها كانت تخبز من قبل مع الصباح ، كانت يقظته دائما بعد إنتهاء الخبيز . ينهض مشتاقا مشبوب العاطفة . وتنتهى من الخبيز مشتاقة ملتاعة . يستحم قبل أن يخرج ليؤذن الظهر ويصلى بالموجودين ! « لمن أذن يوم خبيز ليلى وهى التى أحبت طائرا غريبا مات بعد لقاءات قليلة ؟ » قالت ذلك فى نفسها وهى تفرد قرص عجين فوق مطرحتها استعدادا لنقله الى ليلى لتفرده أكثر ثم تلقى به داخل الفرن .

خيم عليهما صمت لم يقطعه إلا محاولات الدجاج الوثوب للوصول الى الرغيف نصف الطازج فوق القفص .

كادت سعاد أن تسأل عن شى أدركت أن ليلى تكرهه فتوقفت . قالت فى نفسها « من عاد يذكر القطار الآن ، من يحزن على مغيبه ؟ من يتوق لعودته ؟ »

كانت ليلى قد حدثتها كثيرا عن كرهها له وكرهها للخروج اليه . قالت لها مرة أن القطار هو سبب نفور فريد منها ، فهى تعود منه قذرة متسخة تنفق أياما ثلاثة فى تنظيف نفسها . وحدثتها عن فريد كثيرا بعد موته . قالت أنه أوصاها بأن لا تحزن اذا وجدوه ميتا أو مقتولا . لكنها لم تحدثها عن بكائها فى عمق الليالى . ولا تدرى سعاد تعرف كل شىء . قالت ليلى .

ــ أصبحت أكره يوم الجمعة .

دهشت سعاد قليلا لكنها أدركت المعنى بسرعة ففى يوم الجمعة وقعت كل الحوادث .

ــ اليوم رحلت نعمة .

قالت سعاد وكأنها تتم مافكرت فيه . ثم أحست كل منهما أنها تتكلم عن أشياء لا معنى لها . لكن ليلى قالت :

ــ ترى من سيبقى بعد ذلك ؟

كادت تقول من سيرحل . كانت سعاد ترفع عاليا فى الهواء رغيفا من العجين لم تستطع أن تتلقاه لأول مرة فوق المطرحة مستويا فتكوم فوق بعضه وجعلت تفرده بأصابعها بحذر حتى لا يهترىء .

ــ فريد قال أن على الجميع أن يرحلوا بسرعة .

ــ قلت لى ذلك من قبل لكنك لم تحدثينى عن السبب .

ــ لا أعرف . لكن هكذا قال .

انشغلت سعاد بوضع قليل من الدقيق فوق المطرحة التى وضعتها فوق فخذها . نقلت اليها قرص عجين جعلت تفرده بأناملها وقد ضمتها الى بعضها . كانت قد فشلت فى فرد الرغيف الأول الذى تكوم فوق بعضه ، ألقت به أيضا فوق قفص الدجاج الذى صارت له جلبة الآن فى محاولة الأكل من أسفل سقف القفص . ثم قالت سعاد دون ارادة منها .

ــ أما زلت تبكين ياليلى ؟

ــ ....

ــ على حدثنى بذلك .

قالت بصوت خفيض كأنها تعتذر . ابتسمت ليلى ولمعت الدموع فى عينيها . مسحت بظهر يدها اليسرى دموعها . شعرت بسخونة يدها ووجهها . قالت .

ــ لا يترك شيئا إلا وقاله لك . صار عفريتا .

صارت كل منهما سعيدة . لم تعرف أى منهما سبب هذه السعادة. ازدادت رخات المطر كثافة فى الخارج . تقافزت الدجاجات وبدا كأنها ذعرت . قصف رعد شديد وسمعا صوت أقدام مهرولة ، ثم سمعا طرقا سريعا على باب العشة ..

— انه هو .

هتفت سعاد بفرح ونهضت بسرعة لتفتح له . دخل على مسرعا مبهور الأنفاس . كانت ليلى جالسة متربعة وقد انحسر جلبابها عن ركبتيها قليلا فجذبت جلبابها لتغطيهما . رأى وجه أخته أحمر يكاد يشتعل . نظر الى سعاد التى كانت تنظر اليه فرأى وجهها مشتعلا . قال :

— تخبزان ؟

ضحكا بصوت عال وضحك معهما .

— ماذا تريد . ؟

— أمك تريدك .

— أجلس حتى انتهى .

— الآن تريدك .

وضرب الأرض بقدمه بينما كانت سعاد تشعر بالزهو وهى تنظر اليه ، وتسمع حديثه لأخته . قالت :

— اجلس ياعلى . سأعد لك رغيفا بالسمن والسكر .

— لا أريد .

قالها جازما لكنه أحس بالأسف .

— اجلس ياعلى .

قالت ليلى ذلك بطريقة تعنى « اجلس ياعلى » . وقف ينظر حوله متحيرا .

— تريد كرسيا ؟

قالت سعاد وهى تبتسم .

— سأجلس بالحوش .

على يدرك أنه فى الخبيز تنكشف سيقان النساء . وأنهن بين الحين والآخر

يجففن عرق وجوههن بطرف جلابيبهن وينسين أنهن وهن يفعلن ذلك، يكشفن عن سيقانهن أكثر ، وهو لا يريد أن يرى ذلك .

دلف الى الحوش وجلس جوار صينيتى العجين وفوق الأرض . دخلت سعاد خلفه وأحضرت من صوان أمامه بطرمان السمن وبطرمان السكر وملعقة وعادت . حين وقفت أمامه رأى جسمها من الخلف جميلا متسقا . رأى ساقيها تلمع ربلتاهما . وشعرها المنسدل فوق ظهرها كثيفا غنيا .

حين التفتت عائدة غض بصره ، لكنها كانت تشعر بنظراته تخترق ظهرها ، بل أدركته قبل أن يغض بصره ، غلى دمها بالفرح . خرجت سعاد الى العشة وجلست تضع السمن والسكر فى طبق . فردت قرصا من العجين ، وطلبت من ليلى أن تدخله الى الفرن ، ولا تتركه ينضج تماما . صارت سعاد وهى فى العشة تجلس فى مواجهة على الذى يستطيع ان يراها من باب الحوش المفتوح . ارتبك قليلا انه يرى ربلتى ساقيها وركبتيها مكشوفة أمامه . قرر أن لا ينظر ناحيتها . واذا كلمته احداهما يتكلم وهو ينظر الى الأرض . قالت سعاد .

— المطر شديد . ؟

— لا . سوف تغرق الدنيا فقط !

قال فضحك الثلاثة . لكنه مايزال ينظر إلى الأرض وسعاد تنظر اليه مبتهجة . كان يشعر بنظراتها .

أخرجت ليلى الرغيف الخاص . ناولته لسعاد التى وضعته فى الطبق . جعلت بالملعقة تقلبه فى السمن والسكر وتقطعه قطعا صغيرة . نهضت لتقدمه الى على . تعمدت وهى تضعه على الأرض أمامه أن تنظر الى عينيه . رفع وجهه اليها . رآه حزينا يكاد يبكى . أحست بحزن كطوفان . « فيم تفكر ياعلى ؟ » . قالت ذلك لنفسها وهى ترى عينيه السوداوين تلمعان بذلك الحزن الذى لم تره فيهما من قبل . كان على يفكر كيف انه لن يرى وجه سعاد بعد ذلك كثيرا وربما الى الأبد . يتذكر قوله لسميرة فى الصباح لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسى بنفسها.

ويقول لنفسه « لماذا قلت لها ذلك ؟ »

عادت سعاد الى العشة بعد أن حملت احدى الصينيتين المتبقيتين . وضعتهما ورفعت الصينيتين الفارغتين فوق الفرن . دخلت الى الحوش لتحضر الصينية الأخيرة . هذه المرة لم تنظر اليه . لكنها أدركت أنه لا يأكل بشهية . « لماذا أغرقت الرغيف بالسمن كثيرا . صار ثقيلا على معدة الصبى ؟ » قالت لنفسها وهى تعرف أن هناك سببا آخر ، وان كانت لا تعرفه بالضبط ..

انتهى الخبيز . وقفت ليلى لحظات فى الحوش حتى يبرد جسمها كى لا تصاب بالبرد حين تخرج . أعطتها سعاد شالا تلف به وجهها ورأسها . رفض على أن يأخذ شيئا يقيه المطر . سمعت سعاد بعد ذلك صوت أقدامهما وهما يهرولان . جعلت تبكى بحرقة أمام الفرن .

حين دلفت ليلى وعلى إلى بيتهما وجدا أبواهما قد ناما واختهما الصغيرة . نام على فى الحوش بعد أن أحضر حراما من الحجرة الداخلية . لن ينام جوار ليلى بعد الآن . صار رجلا أو لابد أن يكون كذلك .

ما كادت ليلى تستلقى فوق السرير حتى قالت لنفسها « كم كنت قوية الليلة هل نسيت فريد فعلا ؟ »

كانت تشعر وهى تتحدث عنه مع سعاد أنها تتحدث من خارجها . حين بكت حدث ذلك رغما عنها . وهى تبكى لم تكن تبتسم لتخفى دموعها ، انما أرادت أن تبتسم وأرادت الدموع أن تسقط ! لكنها ظلت تبكى كل ليلة حتى أمس ، فهل تفعل ذلك وهى لا تعرف له سببا ؟.

منذ موته ، وهذا ما أدركت أنه يحيرها ، تفكر لماذا لم يقل لها شيئا الا فى الليلة الأخيرة ؟ .

« أقول لك ياليلى شيئا لم أقله لأحد . أنا لست متكبرا ولا مغرورا . فقط أنا حزين وفريد فى حزنى . لن تفهمى كثيرا ما سأقوله لك . كنت أراك وأنت خارجة الى القطار ، أو عائدة منه ، فيتمزق قلبى ألف قطعة وينزف انهار دم . لكننى كنت أقول لنفسى أنى لن أستطيع أن أمنع أحدا . أدرك ذلك جيدا . لا أحد يستطيع أن يمنعكم من الخروج الى القطار . لكن لا أحد سيعيد القطار اليكم ، ولا أحد منكم يستطيع أن يأتى به . هل تفهمين هذا الكلام ؟ . حزينة أنت لا تريدين سماعى . تريدين أن أنظر الى عينيك . أعرف انك تحبين حبا عظيما وأنا كذلك . وكما أحببتنى فى صمت ، أحببتك فى صمت . الصمت هو السماء التى نعيش تحتها جميعا . حتى سعاد التى أتهموها بى واتهمونى بها ، لم أطالها يوما كما يتصورون . أراها على غير ماترونها . اسمع عن رقصها وفيض روحها . لكننى لا أراها الا لغزا حزينا . هى مثلك وأنت مثلها . وكلاكما للآخر قريب . لكننى أحبك انت وإن كنت لا أكرهها . هل تفهمين ياليلى مأأقول.صامتة وأنا أيضا لا أريدك أن تتكلمى . تعرفين أنى أدرس فى المدينة . هل تعرفين المدينة ؟ هل ذهبت اليها مرة ؟ فى المدينة نتحدث كثيرا ولا ننتظر شيئا . هناك أعرف كل شيء . حين آتى هنا يلفنى الحزن لأنى أعرف من هناك ماذا سيحدث هنا . تندهشون لقطارات الجنود والخواجات لكننى أعرف من هم.من أين يأتون وأين يذهبون حاولت كثيرا أن أتكلم هنا لكن يصدنى شيء قاس . شيء يقول لى أن كلامى ستطويه موجات البحيرة البطيئة ورمال الصحراء الراكدة والريح . حتى الشيخ مسعود حين حاولت أن أحدثه رأيته معجبا بى أكثر مما هو مصغ الى ، وبدا أنه لا يفهم شيئا مما أقول . وهذه الليلة بداية عذاب لى كبير . فأنا أعرف معنى المطر ومعنى ثورة الدنيا . هل تفهمين . انك تبكين . فقط تبكين . لو تكفين عن البكاء »

وأخذ يديها بين يديه . تشعر بدفء يديه حتى الآن . أرادت أن تحدثه فلم تجده ! . أحست بالنار فى دمها فتساءلت « هل حقا قتلتك الحكومة كما قال أبوك ؟ » .

لم يعرف أحد ما حدث بينهما تلك الليلة

فحملت العذاب وحدها !. ظلت خائفة أياما وأسابيع وهى تلقاه بعد ذلك . برغم أنها صدقته قالت لنفسها وما الذى يمنع أن يكون كاذبا ؟ . لكنه كان صادقا حين قال انها لن تحمل منه . فهل كان يفعل شيئا لا تعرفه حتى يقيها شر الفضيحة ؟. حين أعطته نفسها لم يشجعها قط قوله أنها لن تحمل منه . بل تمنت لو حملت منه وصارت فضيحة ! كانت ستقاومهم بوحشية ولم يكن سيعتريها أى خوف . كم ودت لو قالت أنها امرأة فريد حتى بعد موته . لم تكن ستخشى أبدا أن يتقدم الخطاب أو يتأخرون . كانت لا ترى الدنيا الا به لكنه لم يعطها شيئا . هل علمته المدينة ذلك ؟ لم يحدثها عما يفعله بها كاملا ، وهى لا تذكر منها غير واجهة السينما .

« البحيرة والصحراء . أسماك ميتة وطيور خبيثة وشمس غادرة ومحطة تمر عليها قطارات الغرباء . أى بقعة من الأرض هذه ؟ » لكنها لم تكره المكان مثله . فهنا كبرت وعاشت وأحبت نسمات الهواء .

قال لها أنه سيموت ولم تصدقه . لكنه فعلها وترك لها أوراقا مهترئة تحاول مااستطاعت أن تفك رموزها.وما تقرأه ليلى فى الحقيقة هو ما قرأه عليها فريد وحفظته فمعرفتها القديمة بالقراءة لا تمكنها من فك خطه . والليلة أدركت أنها لا تفهم ما حفظته . هل كان فريد سراباً ؟ وأخرجت الأوراق لكنها لم تستطع أن تقرأ كلمة واحدة . لقد نسيت أيضا ما حفظته . انكمشت تحت الغطاء حتى كادت تتلاشى ورأت فريد أمامها .

هل تعرف ماذا حدث لى ؟

لقد عدت عذراء . أحسست بذلك وأنا نائمة . رأيت كأنما بشر من شعاع

يحيطوني بسريري ويعيدون الىّ ما ضاع مني

كنت أتمنى أن تعيش فمت وتركتنى . علمتنى اننا تعساء جدا وفتحت قلبى على الخوف ولم يعرف أحد سر بكائى . هل تعرف ماذا حدث اليوم ؟ قال على لى ونحن نتناول غداءنا أن سميرة صارت مجنونة ، وسألنى عن المدينة ولم أعرف كيف أجيبه . رأيت فى عينيه سؤالا حائرا أو رغبة غير مفهومة . منذ أيام رأيته يحاول قراءة أوراقك . كنت أخرجتها من صدرى ووضعتها تحت الوسادة ونسيتها . أول مرة أنسى . لكننى جذبتها منه وعرفت لماذا كان يحوم حولى قبل ذلك . فهل تراه قرأ شيئا منها ؟ انه يعرف قليلا من القراءة . لكنه اذا صمم على شيء فعله . فلأكثر من عشرة أعوام ينام بجوارى ، ولايعرفه أحد مثلى ، لو شاء سيقرأ حتى السحر . سألتنى سعاد دون أن يسمعنا على ونحن نخبز «لماذا صار حزينا ؟ » كدت أبوح بالسر . بأننى كنت إمرأة لرجل لم يعطنى شيئا ومات مخلفا أوراقا لا قيمة لها .. آه .. أدركت أنها تسألنى عن على . كيف أنى لم أعد أذكر كلمة واحدة من أوراقك . هاهى كأنها بيضاء مع أن مابها كان جميلا.

وتنهدت .

لماذ تركتنى فى العراء ؟ أشياء كثيرة تبعدنى عنك . لقد عادت البكارة مكانها وأنا لا أكذب . كل شيء يبعدنى عنك . كل شيء .

□ □ □

خروج

انقضى الشتاء ولم تقل النساء للأطفال أن مياه البحيرة تصل بالليل الى الأعتاب . وخيم على المنطقة هدوء افتقدته كثيرا . حتى قطارات الخواجات والجنود انقطعت تماما . والقطار تأكد من عدم ذكر أحد له أنه بات شيئا ينتمى لعصر قديم . لكن هذا لم يعن أن يسهر الأطفال فى المساء خارج البيوت . أو أن يلعبوا بالنهار . أو يصطاد الصبية السمك والعصافير . لم يبدو على أى من الرجال أن لديه رغبة فى العودة لعادة قديمة . أخذت الحياة شكلا واحدا . فمع الصباح يخرج الرجال الى السكة الحديد لإصلاح ماقد يحتاج لذلك .. ومع المساء يعودون . ولأن المنطقة صارت بلا مفتش صار الرجال لا يعملون كثيرا . نسى الجميع من مات أو اختفى . من له علاقة مباشرة بأحد منهم بدا أنه تحول عنها ويحاول نسيانها . لكن سعاد لم تنس إنها قرأت فى عينى زينب رغبة فى الرحيل أو الهرب . وعلى لم ينس أنه قال لسميرة لماذا لا تذهب وتبحث بنفسها عن مرسى ؟ وليلى لم تنس أن على سألها عن المدينة ؟.

بعد رحيل نعمة أول الشتاء اختفى زيدان تماما . لم يره أحد بعد ذلك . التقى عامل المزلقان مع أحد الرجال ، حدثه عن زيدان وكيف إنه قابله وسمع منه أنه صار مخاويا لجنية . ورغم أن عامل المزلقان أبدى أسفه وحزنه على الحالة التى وصل اليها زيدان ، الا أن الرجل أشاع الخبر فى البيوت العشرين ، التى صار بها بيتان خاليان الآن ، هما بيت المفتش وبيت زيدان ، حولهما الأطفال الى مكانين لقضاء الحاجة ، مما جعل أم جابر التى صارت تعيش مع زينب ، تغلق بيتها بالمفتاح . خافت النساء اللاتى لم يعدن يقلن للأطفال أن مياه البحيرة تصل للأعتاب ، وقلن لهم أن زيدان يخرج من البحيرة فى المساء ، ليخطف الأطفال ليقدمهم طعاما للجنية . وكثرت الحكايات حول زيدان ، فصار يبيت لياليه وسط المياه ، ويصعد بالنهار خارجا ليدور فى مزارع التين القريبة وحول الطواحين حتى تجف ملابسه ، ويكون قد جمع بعضا من التين — رغم أن ثمر التين من المحاصيل الصيفية — ليعود به الى الجنية هدية المساء !.

صار زيدان رجلا يمكن أن يظهر فى أى وقت ليلا ليسحب من يشاء الى قلب الماء . ذلك أن الجنية أعطته قوة جبارة يستطيع أن يتغلب بها على أى مخلوق . فضلا عن أن زيدان رجل مقهور وله ثأر ، لذلك لابد أن يعود ليلا لينتقم .

مع مرور الأيام كبـرت الحكـايات . أقسم أكثر من رجل أنه رأى زيدان يغطس فى الماء . أقسمت أكثر من امرأة أنها رأت زيدان يخرج فى الصباح الباكر من قلب البحيرة . قال أكثر من رجل أنه وهو عائد من فوق الجسر عند الغروب بعد أن اشترى ما يحتاجه ، سمع خشخشة فى نبات الحلفاء ، ثم رأى مجموعات كبيرة من طيور السلو والخفافيش ترتفع هاربة فى الفضاء ، ثم سمع صوتا يطش فى المياه ، صوتا ثقيلا كما لو كان حجرا ضخماً ألقى به الى المياه من السماء السابعة . وأنه حين نظر خائفا ، وجد شيئا طويلا ضخما يتمدد فوق الماء ، شيئا له ظهر عريض ، ورأس كبير ، وقدمان عريضتان . وأن هذا الشيئ ضرب بذراعيه ضربتين متواليتين فغطس ، وكانت كل ضربة أقوى من ضربة المجداف ، ولها نفس

صوته حين يلقى به أول مرة . وأن هذا الشيىء غاص وارتفعت قدماه الحافيتان العريضتان ثم اختفتا ، وخرجت من الماء فقاقيع كثيرة وكبيرة ظلت تبقبق لوقت طويل .

قال كل من حكى هذه الحكاية ، أنه اعتقد أن هذا المخلوق هو زيدان ، لكنه حين رأى الكفين بدقة ، وجدهما مسلودتين بلا أصابع ، قطعة واحدة عريضة وليس اثنتين ، فآمن أنه مخلوق غريب . لكن حين كان أحد يسأل ماذا يمكن أن يكون المخلوق الغريب ؟، كان من يحكى يتردد قليلا ، ثم يقول انه زيدان ولا أحد غيره . ثم قالوا أن هذا الشكل الجديد للقدمين طبيعى ، لأنه وقد صار يعيش مع الجنية فى أعماق الماء ، لابد أن تصبح قدماه على هذا النحو ، حتى يجيد السباحة ، وأن الجنية هى التى فعلت بقدميه ذلك ليصل اليها مسرعا . وآمن الجميع أن زيدان يعود الى بيته الجديد تحت الماء كل مساء .

وقالت أكثر من امرأة أنها وهى تصعد فى الصباح الباكر فوق السطح ، لتنزح الماء المتراكم بعد المطر ، وتدفعه ناحية الميزاب — ولا تنسى أن تلعن من جعل السطح منحدرا الى الوراء فى أكثر من موضع بعكس مكان الميزاب — رأت شيئا عجيبا . رأت فى البداية شيئا طافيا مستطيلا ومربعا يبدو مثل قربة كبيرة منتفخة . خافت لأنها تصورته جثة قتيل . لكنها قبل أن تصرخ ، رأته يتحرك الى أعلى قليلا . أمسكت أنفاسها . بدأ بعد ذلك ينخفض . قالت فى نفسها أنه الموج الناعم والماء الذى صار عفنا وثقيلا وهما يستيقظان فى الصباح ، فبالليل كل شيىء ينام حتى مياه البحيرة . ثم بدأت ترتفع أمام هذا الشيىء العريض الضخم جوزة هند كبيرة ، أو شيىء مثل جوزة الهند وان كان أسود . أمام هذه الجوزة ترتفع ذراعان ضخمتان طويلتان ، أصابع كفيهما ضخمة ، وليست الكفان مسلودتين كما قال الرجال . ارتفعت أولا ذراع ثم أخرى ، ثم ارتفعت جوزة الهند حاملة وجها كبيرا مشوها هو وجه زيدان وقد صار فى حجم فتحة الفرن . يحدث ذلك ، تقول المرأة ، وقلبها يغوص فى صدرها ، ثم يفر منها الى الأرض . وزاد بعضهن ، فقلن انهن بلن على أنفسهن وتجمدن . وقالت واحدة أنها لم تحس بأى

رغبة فى البول ، لكنها أحست بالبول يحرق فخذيها وهو ينزل منحدرا على جدارى الساقين من الداخل ، ويجرى فى قنوات الغضون الضيقة بين اللحم المترهل . وقلن جميعا أنهن لم يستطعن أن يتحركن أو يصرخن أو حتى يغمضن عيونهن ، وكأن المشهد كله مفروض عليهن أن يعشنه ويرينه . بعد ذلك ، كما قلن ، بدأ زيدان يفرق بذراعيه نبات الحلفاء والهيش الكثيف ، وطارت الطيور النائمة والمختبئة ، وأن المشهد فى النهاية كان مبهرا لأن الشمس التى تشرق قادمة من عند الجسر ، كانت خلف زيدان وهو ينهض من الماء ، فبدت المياه كأنها صحراء ، صفراء وحمراء تحير العين ، وبدا زيدان بثيابه الصفراء المبتلة يبرق كقفص كهرمان ضخم . وحين غادر الماء والنباتات وخرج الى الشاطىء ، انصرف بعيدا عن البيوت متجها الى مزارع التين ، وكان كلما خطا خطوة ، ينكمش جسمه ليصير طبيعيا ...

بقيت من حكايات الرجال والنساء الحيرة من أشياء غير مفهومة . فلماذا تكون كفاه مسدودتين فى المساء ، وفى الصباح تظهر لهما أصابع .؟ ولماذا يخرج من ناحية البيوت ، ثم يعود يدور ليمشى مسافة كبيرة فى اتجاه مزارع التين ، مع أنه لو خرج من ناحية الجسر لكان أقرب اليها ؟

لم يستطيعوا اجابة للسؤال الأول . أما الثانى فقد أجابت عنه زوجة عبد الله ، قائلة إنه مسكين يحن الى داره فيخرج ليراها كل صباح مرة .

وكان هناك من لا يصدق . فسعاد ماتزال تذكر قول الشيخ مسعود لها أكثر من مرة ، أن الانسان يحصد مايزرعه . أنه لابلية فى الأرض الا وراءها بنى آدم . أن الله برىء مما يفعلون . وان الجن رغم ذكره فى القرآن غير موجود . وان وجد فهو فى هذا الزمان ينهزم أمام بنى آدم . الا أنها عادت وتذكرت أنه حدثها عن رفقته لرجل كان يسخر الجن . وكيف أن هذا

الرجل أعطاه المفتاح الخاص الذى يستطيع به أن يفعل ذلك . وأنه ، الشيخ مسعود ، استطاع أن يستخدم هذا المفتاح ، فخرجت له جنية حسناء بكت بين يديه ، وقالت له أنها تحب صاحبه الذى علمه السر . وأن صاحبه يعرف ذلك عنها ، وأنه الوحيد من بنى آدم الذى استطاع إذلالها لأنها تحبه ، ولحبها له تنصاع لأوامره ، ولكنه لا يريد أن يتزوجها . وأنه بعد أن سمع حكايتها ورق لحالها ، صرفها ، ووجد أن دموعها صارت أكوام ملح صغيرة فوق الأرض . وتذكرت أيضا أن الشيخ مسعود قال لها كيف حلا له فى بعض الأوقات إذلال الجن .

تحيرت سعاد بعض الوقت . لم تعرف هل تصدق مايقال عن زيدان أم لا . حين تذكرت رحلة أمها خلف أبيها الذى خاوى جنية واختفى كادت تصدق ، لكن الولد على أتى اليها ، وقال لها أن والديه يحدثانه عن الجن حتى يخاف ولن يخاف ، فقررت أن حكاية زيدان كذب فى كذب .

زينب أيضا لم تصدق . حين كانت تسمع مايقال تبتسم . فهى تعود كل يوم فى المساء ، ولا ترى زيدان يغطس فى الماء كما يقول الرجال . وتصحو كل صباح من النجمة ، ولا ترى زيدان يخرج من البحيرة كما تقول النساء . أحيانا تقول لنفسها أنها فى المساء تكون متعبة فلا ترى ما حولها ، والكون الذى يبدو كصدفة معتمة يجعلها تنكمش فى بعضها فلا تشعر بشيىء . وفى الصباح تكون لم تنته من طرد مخاوفها من زوارها الذين سيزورنها فوق الجسر . كما أن الكون الذى يصبح مثل بيضة كبيرة ، يجعلها تسير وهى كالمخدرة فلا تشعر بشيئ . الا أنها قالت لنفسها أنها لن تصدق الا ماتراه بعينها .

وكانت ليلى لاتزال تعتقد فى قول فريد لها أن مايقال هنا كذب كامل .. أن الشيخ مسعود قتل بيد فاعل وأن جهلوه . لكنها حين تتذكر أن فريد حدثها أيضا عن نهايات محتومة ، ولعنة مفروضة ، وأن أحدا لا يدرك ذلك وان اتجه اليه ، تكاد تصدق مايقال . ثم تتذكر كيف عادت البكارة اليها . تقول فى نفسها اذا كان الحب كذبا ، فكيف أصدق مايقال عن زيدان ؟.

أما على فلم يفكر كثيرا . كره أبويه اذ حدثاه عن الجن ليخيفاه ، قال لسعاد أنه لو رأى زيدان سيكلمه ، ولو غطس فى الماء سيغطس وراءه ولو إلى قصر مسحور .

لكن سعاد لم تعد تجرؤ على أن تخرج ليلا . حتى الفواريكة صارت توقدها داخل العشة التى تفتح بابها ليتسرب الدخان ، وتقول فى نفسها أن الجن يخاف النار ! وانقطعت ليلى عن زيارتها إلا إذا رافقها على حتى الباب . وكانت أمهما تظل واقفة على باب عشة بيتهم حتى تراها وقد دخلت بيت سعاد ، وترى ابنها راجعا وحده فتنتظره حتى يصل ، ولا تتركه يتأخر فى الخارج . وحين يذهب على لاحضارها من عند سعاد ، كانت تمسك بذراعه بقوة ، ولا تتركه الا بعد أن يدخلا بيتهما . أما زينب فقد تمنت أكثر من مرة فى عودتها مساء أو خروجها فى الصباح ، لو خرج زيدان اليها ، وحملها وغاص بها الى بيوت الجن . ذلك أهون مما قررته .

بدأ الرجال يكفون عن شراء حاجاتهم من الجسر بعد الغروب . صاروا يشترون ما يريدون نهارا أو عصرا على أقصى تقدير . لم يعودوا يتحدثون عن رؤيتهم لزيدان فى المساء وهو ينزل البحيرة .. لكن النساء لم تنقطعن عن الصعود الى الأسطح فى الصباح الباكر . الكثيرات كانت لهن حاجة يردن قضائها . فان من ترى زيدان وتصاب « بالخضة » لابد أن تتحقق آمالها . وكانت أكثر النساء صعودا هى زوجة عبد الله التى أرادت أن يحقق زيدان أملها فى انجاب الولد ، واعادة مرسى خطيب سميرة الجميلة .

وحين أوشك الشتاء على الإنتهاء كانوا قد ملوا هذه الحكايات جميعا . وبدأت سعاد تنسى أنها قرأت شيئا فى عينى زينب . على ينسى ماقاله لسميرة. وليلى تنسى ما سألها على عنه . أكثر من ذلك ، فكر الرجال أن يعودوا للصيد خاصة مع

بداية الربيع صافيا ، وأن يطلقوا سراح الصبية والأطفال . لكن فى ليلة من ليالى الربيع ، لم تدركها ريح الخماسين وترابها ، كانت الحجرات ساهرة والنوافذ مفتوحة لنسيم الليل الطرى ، خاصة وأن النهار جاء حارا على غير العادة ، وفجأة دخلت كل الحجرات من النوافذ الخلفية ، وفى وقت واحد ، أحجار مقذوفة بقوة شديدة . كل حجرة دخلها حجر سقط بين أهل البيت . لم يفكر أحد فى سر ذلك ، لأن أحدا لم يعرف أن هناك أحجارا أخرى غير الحجر الذى سقط أمامه . اعتقد أهل كل بيت ، أن طفلا تركه أهله فى الخارج على غير عادتهم ، هو الذى قذف الحجر . وسرعان مانسى أهل كل بيت أمر الحجر .

بعد وقت قليل سقط فى كل حجرة حجر آخر . ولم يحاول أحد أن يغلق النافذة . لم يكن فى أحاديث الحجرات تلك الليلة أمر يمكن أن يشار اليه . فقط كانت النساء مشغولات بالدجاج أو بالعجين الذى سيتم خبزه فى الصباح . الرجال يدخنون سجائرهم الرفيعة ، وقد تمددوا فوق الأرض ، أو على الأرائك القديمة . بينما تجمع الأطفال فى كل بيت حول بعضهم ، يتحدثون حديثا لا يفهمه أحد ، ويضحكون ويتشاجرون ولا يهتم أحد بهم .

حين تقدم الليل قليلا كان كثير من الأطفال قد ناموا . النساء قد انتهين من أعمالهن الغريبة التى يحلو لهن القيام بها فى المساء . سعاد تشكو الوحدة ، وتدور من الحجرة الداخلية الى الحوش تفكر فى أنها لابد أن لا تنتظر أن يأتى اليها أحد من عند زوجها ، وعليها أن تتم مافكرت فيه كثيرا ، فعلى صار رجلا الآن وأكثر من رجل . وكانت زينب قد انتهت من غسيل بعض ثيابها ، وأعدت مخلاة كبيرة وضعت بها ما سوف تحتاج اليه ، فى رحلتها التى قررتها ولم يعرف بها أحد ، وخبأتها فى مكان فى العشة حتى يأتى اليوم الذى تقرر فيه الرحيل . وليلى تنتظر أن ينام أبواها لتنظر للمرة الأخيرة فى أوراق فريد وتمزقها أما على فكان مستلقيا على فرش فوق الأرض فى الحوش ، وقد حدقت عيناه فى المصباح الغازى الصغير ، الذى وضعته أمه بعيدا خشية أن يحدث شيئ فيحرقه وهو نائم . وكان عبد الله قد استلقى مهموما بعد أن اكتشف فجأة ، أنه لا أهمية

لأن تكون الشمس خلفه أو أمامه ، وأنه قد ضيع عمره شاكيا من شيئ لا يد له فيه ، فى الوقت الذى كانت زوجته ماتزال ساهرة ، وجالسة تنظر الى بناتها الصغيرات النائمات عاريات الا من مزق ثياب .

فى ذلك الوقت دخلت كرة من اللهب طائرة من نافذة كل حجرة . كرة صغيرة يمكن أن تمرق من بين أسياخ الحديد الضيقة للنافذة . كانت النيران متوهجة تئز . ارتفعت الصرخات فى وقت واحد فى كل الحجرات . دب الهلع فى كل حجرة . انشغل المستيقظون فى اطفاء الكرة التى صارت تتدحرج فوق الأرض وتدور فى كل مكان كما لو كانت مصممة على أن تحرق البيت بما فيه . نهض النائمون على الجلبة التى أحدثها الارتباك . صار البعض يدوسها بقدمه فيصرخ قافزا ، البعض يجرى خلفها يضربها بالمكنسة الصغيرة بقوة فيرتفع الغبار العالق بالمكنسة الى وجهه ، وتشتعل المكنسة فى يده . جعل آخرون يجرون الى المرحاض لاحضار الماء يلقونه فوق كرة النار . ماكادت أكثر الكرات تنطفئ فى عدد من البيوت حتى دخلت كل بيت كرة أخرى أكثر توهجا .

استيقظ الأطفال مرعوبين . وكان على أسرع من فى البيت تفكيرا فجرى الى النافذة وأغلقها بعد الكرة الأولى . حين سمع الصرخات تتعالى فى بقية البيوت ، اندفع مسرعا الى الخارج . جرت أمه خلفه تتعلق به محاولة منعه ، لكنه دفعها بقوة وهو لا يدرى ، فسقطت خلفه على مقعدتها وهى تنظر اليه بألم ، بينما قفز هو خارجا من باب العشة .

بعد الكرة الثانية اندفع الجميع لإغلاق النوافذ . بعد اطفائها خرج الرجال مهرولين متجهين خلف البيوت . كل رجل يعتقد أن الكرتين دخلتا بيته وحده . لم ينتبه أحد الى الصياح فى البيوت الأخرى كما انتبه على . اندفعت النساء خلف الرجال بعد أن أحكمن اغلاق الأبواب على الأطفال . حين وجدوا أنفسهم فى الخارج ومتجهين خلف البيوت للبحث عمن ألقى كرتى النار ، أدركوا أنها ألقيت عليهم جميعا فوقفوا ذاهلين .

كان على الذى سبقهم قد مسح المكان فلم يجد أحدا . استمر فى السير حتى وصل الى المحطة وهو لا يدرى . هناك رأى قطارا مضيئا تلوح أضواؤه من بعيد . وجد ناظر المحطة نائما فوق مقعد بجوار غرفته . سمع لغطا بلغة لا يفهمها فى حجرة ناظر المحطة التى أغلقت نافذتها . عرف ماذا يحدث بالداخل . فالقطار قطار خواجات وإن وقف بعيدا عن المحطة . تذكر على انه منذ فترة طويلة انقطعت قطارات الخواجات والجنود . فكر فى كرة النار الغريبة تلك . أدرك أنه سار بعيدا عن البيوت . عاد متمهلا يفكر كيف استطاع شخص واحد أن يلقى الكرات فى كل البيوت التى علا فيها الصياح .. قال لعله أكثر من شخص . لكن اذا كانوا أكثر ، فكيف اختفوا جميعا وبسرعة . صار ملتاعا يحترق . وكان القمر عاليا . ولأول مرة يدرك أن القمر ليس مضيئا كله ، أن به أجزاء سوداء لم ينتبه لها من قبل . حين وصل الى البيوت وجد الناس ينسحبون من خلفها عائدين . عند الساحة التى كانوا يقيمون بها احتفالاتهم قديما توقفوا وبدأوا فى الحديث . كان يسمعهم وهو يقترب منهم لكنه لم يميز كلماتهم . وفجأة صرخ رجل من بينهم .

هو .. هو ..

ورددها كثيرا وهو يشير مأخوذا كالمجنون الى البحيرة . نظروا جميعا حيث أشار فرأوا نبات الحلفاء ينفتح الى الجانبين بقوة واتساع ، وشيئا ضخما عملاقا يجرى بينه وتطش قدماه فى الماء فيرتفع رذاذ عالى يلمع أمام عيونهم أبيض من ضوء القمر . جرت النساء عائدات الى البيوت بينما تجمد الرجال فى أماكنهم . أقصى ماقالوه فى أنفسهم «كيف يفعل زيدان هذا بنا ولماذا ؟» ثم قالها أكثر من شخص بصوت عال ، فسمعها على الذى وصل اليهم .

لم يقف ليسمع أكثر من ذلك . أخذ طريقه الى البيت . أحس بحاجة شديدة الى النوم . عند الباب أحس أن شيئا يمسك بعنقه يكاد يخنقه . أن عينيه تجحظان بل وتقفزان فى الفراغ . وجهه ينتفخ بالضجر . فى صدره يغلى ماء ملىء بالحصى الساخن .

نظر خلفه فرأى أباه مايزال واقفا فى الساحة مع الرجال . ترك القوة التى تكاد تنفجر فى داخله ، تدفع قدميه فى هدوء وثبات وتصميم ، فى اتجاه بيت سعاد .

□ □ □

عبد الله

استسلم عبد الله وبدا راضيا . نهض فى الصباح ناسيا ماحدث بالليل . أخذ عدته على كتفه وقطع مشواره اليومى المتكرر منذ أكثر من عشرين سنة . ولأول مرة لايشعر بحرارة الشمس قوية على قفاه رغم أن الوقت خماسينى . مرة واحدة وهو يسير تذكر كرات النار وهلع الليلة الماضية . قال فى نفسه بسرعة « لابد لنا فى شيىء » . طرد كل قلق يمكن أن يساوره . وعاد فى المساء فوجد المرأة زوجته تصرخ وتولول فى وجهه ..

كانت جالسة متكومة فى ركن من الحوش . حولها النساء والبنات الصغيرات الخمس . ماكادت النساء يسمعن صوته وهو يدخل من باب العشة ، ثم وهو يضع المقطف والعتلة فوق ظهر الفرن ، حتى انسحبن صامتات . نظر عبد الله اليهن فى دهشة ثم خاف وأحس أن الحدبة التى فوق ظهره تعلو . دخل الحوش هادئا صامتا فقامت المرأة تصرخ وتولول .
ـــ سميرة .. سميرة ياعبد الله ..

ولطمت خديها والبنات الخمس الصغيرات انفجرن فى البكاء حولها . بينما اتجه عبد الله الى الحجرة الداخلية . أحس أن زمنا طويلا أنقضى وهو يقطع الأمتار الأربعة حتى دخل الحجرة . تجاوز عبد الله الخمسين عاما ، بحث كثيرا عن الولد ولم يحظ به ، أنقذه الله من دخان الكوك . طاردته الشمس حقا أكثر من عشرين عاما ، على وجه زوجته نقوش خضراء مبعثرة سأل نفسه كثيرا كيف لم يرها قبل الزواج ، والحدبة التى فوق ظهره لم يولد بها ولن تبدأ تظهر الا بعد

الثلاثين ، حين صار نظره معلقا فوق القضبان ، يبحث ذاهبا آيبا عن أعطاب فيها . ضاع من عبد الله فى النهاية كل شيىء ، وانهد فوق أقرب أريكة والحذاء الثقيل يؤلم قدميه .

يتساءل عبد الله دائما لماذا تعلق قلب ابنته بمرسى دون غيره من الرجال . ذلك المسافر بالليل والنهار ، الراحل فى عين الشمس وقلب الهواء ، وبين الخلاء والعمران ؟. وكثيرا ماتذكر حوادث وقعت « للمسفرين » فوق القطارات . ففى احدى القرى كانت عصابة لصوص تسرق القطارات بطريقة مبتكرة . كانت تأتى بحبل طويل قوى . تربط طرفا من الحبل فى شجرة قوية أو عامود تليفونات قريب من القضبان . فى الطرف الثانى توصل خطافا معدنيا كبيــرا . حين يمـر قطـار البضائع ، تلقى بالخطــاف فوق احدى العربات المكشوفة ، فيمسك بأحد الأجولة . كانت تربط أكثر من حبل فى أكثر من شجرة أو عامود ويتم القائها جميعا على عربات القطار . ومع سرعة القطار ينتهى طول الحبل المربوط فى الشجرة أو العامود ، فيسقط الخطاف وقد علق بجوال من الحبوب ، هكذا دون أن يقفز أحد فوق العربة أو يعرض نفسه للخطر . وفى ليلة من ليالى القرى المعتمة ، والقطار يمر سريعا محملا بأجولة السمسم ، هاجمت العصابة القطار . حين أقبل أفرادها يحملون الأجولة الساقطة ، وجدوا أن خطافا قد تعلق بالمسفر فوق القطار فسقط ميتا .. كان الخطاف قد تعلق به من بطنه . وعرفت القرية كلها القصة ، وتعجب الناس من هذا الشكل الغريب لحراسة القطارات ..

سمع عبد الله بهذه الحكاية وهو صغير . تذكرها كثيرا وهو كبير حين تعلق قلب ابنته بهذا الحارس الغريب للقطار !. وهو نفسه وقعت له واقعة غريبة مع المسفر كان يذكرها كنادرة . فذات ليلة كان عائدا بعد عمل مفاجىء فى حادثة من حوادث القطارات . كان معه أحد الزملاء . وجدا قطار بضاعة محملا

بالقصب . اقترح زميله أن يأخذا بعض أعواد القصب للأبناء . جعل زميله يجذب العيدان من جانب العربة. ولأنها كانت مربوطة جيدا فى شكل حزم كبيرة، كان ينتزعها بصعوبة . قرر عبد الله أن يختصر الطريق ، ويصعد فوق العربة ويلقى من فوقها بحزمة كاملة . كانت ليلة بلا قمر أو نجوم . ثقيلة السحب شتوية كابية . صعد عبد الله العربة وتوقف فى منتصفها . انحنى ليرفع احدى الحزم . أحاط الحزمة بذراعيه فوجدها ثقيلة جدا . رفعها بعنف فاذا برجل يصرخ بين ذراعيه ويمسك بخناقه . سقط قلب عبد الله من المفاجأة ، ثم تنبه للموقف بسرعة والرجل يكيل له اللكمات وهو ساقط فوق القصب وعبد الله محنى فوقه لا يستطيع أن يرفع نفسه اذ تشبث الرجل بخناقه بقوة بإحدى يديه . كان الرجل هو المسفر نائما بين القصب ومغطى به . صار عبد الله يقول عن تلك الليلة وهو يضحك انها كانت مرعبة . ثم يضحك أكثر ويقول ان الواقعة انتهت بالصلح بينهما ، وأن المسفر أعطاه قصبا كثيرا هو وزميله . ثم يقول أنه احس من الخوف بانقطاع حبل الخلف عنده . ويضحك ويقول لكنى رزقت بثلاث بنات فاكتمل عددهن ست ! لكن عبد الله لم يعد يتحدث مع أحد عن هذه الواقعة بعد أن تعلق قلب سميرة بالمسفر الغريب . يتذكرها ويحزن فى صمت . يقول فى نفسه كثيرا ، قد يكون وقع لمرسى ماوقع مع المسفر الذى قتله خطاف العصابة . فالسرقة ازدادت والعصابات كثرت فى كل مكان كما يسمع حين يذهب الى الجسر ، أو حين يأتى الى المنطقة عمال من مناطق أخرى يمضون أياما فى عمل مفاجىء ويعودون . ويقول أيضا أن لص قصب قد يكون تسبب فى قتل مرسى من شدة الخوف .

لكن هذا كله لم يعد مجديا الآن . فسميرة نفسها اختفت .

لماذا هذا العذاب القاسى . ففى اليوم الذى كاد عبد الله فيه أن يرتاح ، اذ سلم بأنه لا يد له فى شيىء،تختفى سميرة

الجميلة ؟

تلك الشمس اللعينة التى لم يرها يوما عشرين عاما ، نجحت فى حبك المؤامرة من وراء ظهره .

مر عام منذ قالوا أول مرة أن القطار سيأتى غدا ولم يأت .. وحين قالوا مرة ثانية منذ شهور ، أنه سيأتى، وبدا أن الجميع لا يصدقون ، قامت سميرة واستحمت وغابت فى المرحاض كثيرا . كانت تائهة النظرات حين جلست تأكل عشاءها بينهم ، ولم تأكل كما ينبغى . رآها شاحبة كمن اقترب موعد وداعه للدنيا ، فطرد ذلك من ذهنه . رآها خائفة ، رق لها ، لكن ماذا كان عساه يفعل ؟ لم يأت القطار الذى لا ينتظره غير سميرة.تصرم الشتاء بطيئا لا معنى له . أقبلت أيام الخماسين وادعة على غير عادتها ، كأنها خدعة كونية . وزوجته التى لم يحدثها طول الليل بعد أن عرف منها الخبر صارت تطلب منه أن يرحل خلفها يدركها . انه يريد ذلك لكن لا يعرف الى أين ،فهاتان القدمان اللعينتان ، لا تسيران الا فى اتجاه واحد فى الصباح أو فى المساء . لم يجد عبد الله أمامه الا الصبر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . جعل يخرج الى البحيرة كل مساء علّ زيدان يسعفه بشيىء . انه لا ينسى كيف رق لحاله حين رآه مقعيا فى الحجرة يوم رحيل زوجته . لم ير زيدان ولا سمع صوته . رأى ماء البحيرة عفنا ثقيلا . نباتات الحلفاء صارت كثيفة . والقمر لم يعد يظهر .

لكن فوق الماء كان يرى شعلة نار صغيرة . قرصا مشتعلا كأنه شمس ليل غريبة . يتحول القرص الى لون هو مزيج من الزرقة والحمرة . يرى وجه سميرة يطل من خلال القرص . تضحك له . تقهقه ويدوى صوتها فى الظلام . ولولا بقية من عقل لنزل وراءها الماء .

كان يراها تجرى الى الخلف حتى الجسر ، ثم تعود مقبلة عليه ، حتى لتكاد

تقفز فوقه محرقة بنورها ونارها ، ثم تعود الى الخلف من جديد . ويظل هو قابعا حتى منتصف الليل . يقول « لقد صرت جنية تريدين قتل أبيك » ويظل يخرج كل ليلة . فهو فى النهاية يرى وجه ابنته الجميل . فى الصباح يتذكر عبد الله وجه ابنته المنير الذى رآه فوق المياه ووسط شعلة نار . يقول أنه سيراها فى عين الشمس لو استطاع النظر اليها . لكن لا القدمان تطاوعانه ، ولا العنق النحيل يسير يومه كله باكيا بلا دموع . ينظر الى القضبان ولا يراها . نادرا ماتسقط دمعة أو دمعتان . وعبد الله يعرف أن العجوز يبكى بلا دموع . يذكر كيف كان وهو طفل صغير ، يرى أباه العجوز يبكى . ينظر اليه فلا يجد فى عينيه دمعا . يرى جلدا متغضنا حولهما وجفونا رفيعة . يدهش لأن أباه يجفف دمعا غير موجود . ويشعر أن أباه العجوز طفل صغير .

— أين سميرة ياعبد الله

صارت مريضة زوجته . نائمة بلا قدرة . تسأله كل مساء حين يعود .

— يقولون أنها صارت تظهر فى المحطات البعيدة تبيع المشروبات فى القطارات ..
هكذا تردد بعد السؤال . ينظر اليها بلا حديث . تقول :

— يقولون أنها صارت تظهر جالسة فوق السمافورات تغنى للقطارات العابرة وللمسفرين فوقها .
ينظر الى بقية البنات النائمات بلا لعب ولا حكايات .
— يقولون أن مرسى رآها وأنزلها ، وركبا معا قطارا يجره حصان ، ذهب بهما الى بلاد لاتعود القطارات منها مرة ثانية .
يشعر عبد الله أنه كومة حطام لاقيمة لها .
— أين سمورة ياعبد الله ؟ . أين ؟ . لو كان لها أخ لكان بحث عنها الآن .
يتذكر رغبة الولد وينساها بسرعة يائسا من كل شيىء .
— جميلة سميرة كانت ياعبد الله .

جميلة سميرة كانت مثل القمر . أبهى من القمر والنجوم . أشهى من نسمة صباح . من شعاع ضوء فجر واهن .

جميلة سميــرة تعلق قلبها بمسافر فى الفضاء الذى يسع كل شيىء . وجمال سميرة الباهر لا يجعله يصدق أنها يمكن أن تبيع المشروبات فى القطارات . لكنه يراها عصفورا مغردا فوق السيمافورات . عروسا تطلع من قلب العربات كما تطلع من قلب البحيرة . تسير وفى ركبها النور . تروى المسافرين جميعا والمسفرين بالشهد والعسل . لكن لماذا لا يجىء هذا العصفور الغريد ليقف على عتبة الباب يرفرف بجناحيه ، ثم يدخل راقصا . ؟

— هل رأيتم سميرة .؟
لم يرد أحد .
— هل رأيتم سميرة ؟
لم يجبه أحد . قالوا له اذهب الى الجسر أو المدينة ولم يعرف أحد أنه لا يسير الا فى اتجاه واحد . زينب قالت أنها لم ترها فوق الجسر . المدينة أمل بعيد . وزوجته صارت مريضة .

حين قرر أن يسأل ناظر المحطة ، فهو فى طريقه فى الصباح والمساء ، علها تكون ركبت قطارا ورآها ، تذكر أنه نائم دائما . رغم ذلك ذهب وأيقظ الرجل الذى نظر اليه ثم عاد لينام بلا اجابة .

حين قالت زينب أنها لم ترها فوق الجسر ، تذكر حامد وجابر ثم الشيخ مسعود وفريد وعرفة وزيدان . قال فى نفسه أن سميرة غير هؤلاء جميعا . حتما ستعود ولو فى الزمن الأخير . وظل يخرج الى البحيرة كل مساء يراها فوق الماء .

فكر عبد الله جيدا طوال شهر كامل أن يذهب الى حيث تهجع الشمس ، التى حاكت المؤامرة طوال هذه الأعوام من

خلف ظهره . فى المساء قرر أن يبدأ منذ الصباح ، تلك الرحلة الصعبة خلف القضبان وأمام الشمس فى اتجاه الغرب . تذكر عبد الله أنه فى منتصف النهار ، حين تكون الشمس فوق رأسه ، يكون هو قد وصل الى الكشك الخشبى المهجور الذى تعود أن يمضى القيلولة داخله . أنه بعد ذلك يعود فتكون الشمس خلفه . وأنه لن يستطيع أن يقطع الرحلة أبدا . فقدماه لن تستمرا فى نفس طريق الصباح ، بل ستعودان . قال فى نفسه وهو يشعر بالقوة والعزم «حتى الظهر تسير قدماى الى الغرب ، بعد الظهر تسيران الى الشرق حتى المغيب ، فى الحالتين لاأستطيع أن أستدير وأرى الشمس . عند القيلولة لاأستطيع أن أرفع بصرى الى السماء فأرى الشمس التى فوق رأسى لأن عينى لاتنظران الا الى القضبان . كانتا كذلك لأكثر من عشرين عاما ، وتظلان كذلك . لكن لابد أن أجد طريقة أنجح بها فى الوصول الى حيث تغرب الشمس دون عودة فى المساء » قرر عبد الله وهو سعيد ، أنه حين تنتهى قيلولته ، لا يعود ولا ينهض من مكانه . يظل حتى صباح اليوم التالى فينهض ويتابع المسير الى الغرب . وهكذا يمشى من «كل يوم نصفه ، فيستمر المسير بلا انقطاع، ويأخذ حقه من الراحة . لكنه فى نفس اللحظة التى توصل فيها الى ذلك سمع ضجة أمام العشش . خرج يستطلع . كانت أم جابر تقف بين بعض الرجال والنساء وأطفال حامد الثلاثة حولها . رأته ورآها .

قال أحد الرجال ..

— لاأحد يستطيع أن يذهب الى الجسر الآن فى هذا الظلام . عودى ياأم جابر بالأطفال والصباح رباح . ومن يدرى ربما تأتى بعد وقت قليل .

انفض الناس وعادت أم جابر والأطفال خلفها . عرف أن زينب لم تعد من فوق الجسر .

أدرك عبد الله أنه قد فارق المنطقة بأميال فأحس بأنه قد نجح فى خطته . وأنه قد أقترب كثيرا من تلك البلاد الغربية

التى تبيت فيها الشمس ويطلقونها فى الصباح من الجهة الأخرى لتبدأ لعبتها الكريهة معه . لكن أسقط فى يده حين تذكر أنه فى هذا الطريق لايوجد إلا قضيبين إثنين ممتدين الى مالا نهاية . لاتوجد سيمافورات إلا عند المحطات المتباعدة جدا عن بعضها . وأنه لن يستطيع أن يجد سميرة لأنه على هذين القضيبين لا يمر الا قطار واحد ، وهى لا يمكن أن تبيع المشروبات فى قطار واحد ، خاصة أن المحطات كلها مهجورة لا يركب أو ينزل منها أحد . كما أنها وقد صارت عصفورا غريدا لا يمكن أن تطير هذه الأميال الكبيرة التى بين كل سيمافور وآخر . لكن عبد الله كان يعرف أن قراره العميق هو الصحيح . فهو لابد أن يبلغ بلاد نوم الشمس . فهناك سيجد أولئك الذين يحبسونها . وهى لابد تصل اليهم طرية غير حارقة . لذلك سيكونون واسعى الصدر فيسمعون شكواه . هناك سيقول لهم ما كان يجب أن يقوله منذ سنين . خذوا هذه الشمس واعطونا أخرى أكثر رفقا... فالشمس الرفيقة هى التى ستعيد اليه ابنته ، تلك اليمامة التى هجرت عشها . أما هذه الشمس اللعينة فهى متآمرة .. متآمرة .. متآمرة منذ الزمان الأول . سيقول لهم أن الشمس الرفيقة ستنهى عذاب الناس جميعا وعذابه . واذا قالوا لا ، سيطلب منهم ، أولئك الناس الذين لابد سيكونون طيبين، لأن الشمس تصل اليهم رقيقة ، وتخرج من عندهم رقيقة ، ولا تستأسد الا حين يخلو لها الفضاء ، سيطلب منهم أن يجعلوها تشرق من الغرب ولو مرة واحدة ليراها فينتهى العذاب وتعود سميرة . واذا رفضوا ذلك أيضا سيقول لهم أن يحبسوها الى الأبد فتصير الدنيا ظلاما فى ظلام . وهم فى النهاية سيستجيبون لأحد مطالبه . فهم لابد يعرفونه قبل أن يروه . فهذه الشمس الغادرة التى وراء ظهره لابد تحدثهم عنه ، عن ماتفعله به ، وعن ما فعله . ولابد أن يوجد بينهم رجل واحد على الأقل يلبى احدى رغباته . واذا رفضوا جميعا كل طلب سيسأل الشمس نفسها ، ولابد أنها ستستجيب له ، وتحنو عليه حين تراه عن قرب وترى عذابه . كيف لا وهى صاحبته لأكثر من عشرين عاما . إنه ليس من هذه الدنيا أبدا ولا يستحق أن يعيش ، من ينسى صحبة امتدت على طول مثل هذا الزمن !!

□ □ □

حين قال لها أحد الرجال أن تعود، وأن زينب قد تأتى بعد قليل،قالت لنفسها «ماذا أفعل ؟. لقد رأيت عينيها فى الصباح .»

وكانت قد رأت عينى زينب فعلا ، من فرجة ضيقة جدا بقت لها فى بصرها تطل بها على الدنيا فتراها أقرب الى السواد . كانت عينا زينب أمامها واسعتين مبهرتين ، فيهما تصميم عميق . عرفت أن زينب لن تعود الليلة . لكن كان لابد أن تتعلق بأمل كاذب . فمن للاطفال الصغار وهى عجوز انحنى ظهرها ، وكاد رأسها يسقط إلى الأرض .

كانت دائما تقول لنفسها أن حامد وجابر اجتمعا طويلا فى عمل واحد . فلقد كانا يدفعان عربة المفتش ويجريان بها . حين اختفيا جمعها مع زينب ذلك الاختفاء .

ومنذ اختفى ابنها عرفت الصمت . تحدث الناس عن حزنها المكتوم ، ثم قالوا أنه استسلام وترقب للموت حزين ، ولما طال مرور الأيام بلا أمل فى عودة الغائب ازداد صمتها ، بدا أنها بكماء فقالوا أن جنا تلبسها وأنها لا تعيش معهم . وأيدوا قولهم بنشاطها القديم فى عمل الأحجبة والتعاويذ للنساء بعد اختفاء القطار . لكنها طوال هذا الصمت كانت ترى جابر أمامها . رأته فى كل خطوة خطاها . وكانت لا تندهش وهى تراه حبيس أربع جدران والسياط تنهال عليه من كل ناحية ، أو وهو يصرخ فى فضاء أرض قفر ليس بها الا الثعابين والحيات . وحين كانت تراه يبكى كانت تقول لعله يتذكرها ويتذكر عثرتها فى الخيط والإبرة . كانت تعرف حين تعثرت فى ادخال الخيط الى سم الابرة ، وبعد أن أخذهما جابر ولضمهما ثم نهض الى الحوش ، انه نهض ليبكى أمه التى صارت عجوزا فجأة ..

دعت ربها كثيرا أن لا يجلو عنها تلك الرؤى الصعبة لابنها !. وأن يجعله قرين عينيها ليل نهار !.

وعندما شعرت بتحفز أذنيها الدائم ، وبأنها تمد يديها الى الأمام حين تسمع صوتا فعرفت أنها مقبلة على العمى ، قالت ومتى كانت رؤيتها لإبنها تحتاج الى عينين مبصرتين ؟

ظلت ليل نهار ترى ابنها وكأنه يتحرك فى بياض عينيها . وأكثر من ذلك صارت ترى ما يحدث فوق الجسر . عرفت أى مخاضة قبيحة جاست فيها زينب . ورأتها يوم انتفض قلبها تحت الرجل،وهى تنتفض ! لكنها ظلت صامتة ..

حين انتصف الليل ولم تعد زينب أيقنت أن كل مافكرت فيه صحيح . صارت بالفعل تعرف الشيىء قبل حدوثه . تذكرت أنها رأت عبد الله حين خرج من بيته وهى تقف وسط الرجال والنساء وأن عبد الله رآها فرأت فى عينيه نفس مارأت فى عينى زينب .. قالت أنه لابد راحل مع الصباح . فالرجل الذى صار سنينا يشكو قلة الولد ، لن يطيق الحياة بدون سميرة . الرجل الذى تندر الرجال كثيرا بشكواه من الشمس لابد يرحل اليها . وأغمضت عينيها لتنام وهى تعرف أن عليها هى الأخرى طقسا ستؤديه .

مرت ثلاثة أيام وهى تحاول مرتعشة منهكة
أن ترعى الأطفال الثلاثة . كان فى البيت قليل خبز وجبن قديم . سألوها كثيرا عن أمهم فقالت انها سافرت وستعود بعد أيام قليلة . ونسيت أن زينب قالت للأطفال كثيرا أن أباهم سافر وسيعود بعد أيام قليلة . حين تذكرت ذلك أحست بالخوف . كان الأطفال يسألون زينب كل يوم . لم يملوا السؤال ولم تمل زينب . فى النهاية مل الأطفال . وهى لن تستطيع أن تفعل ذلك فليس عندها قوة زينب .

فى مساء اليوم الثالث تساءلت مامعنى هؤلاء الذين بقوا يعملون بعد رحيل زينة الرجال ؟ ثم سمعت ضجة شديدة فى الخارج . وصراخا وبكاء . سمعت صوت أقدام تمر من أمام باب العشة ، وصوت سعاد وهى تقول :

— ياليلى كفى . على لابد أن يعود .

قالت حتى الغلام الجميل .؟ ومع أول خيوط الفجر كانت قد تركت باب العشة مفتوحا وسارت وئيدا مرتعشة والأطفال الثلاثة خلفها .

أصبح الصباح على جلبة الرجال الذين تجمعوا فى الساحة . كانت النساء تقفن أمام أبواب العشش تتبادلن الحديث . لم ينتبه أحد الى القطط والكلاب التى خرجت من باب عشة بيت زينب . لاحظ بعض الرجال أن هناك أسماكا تظهر طائرة على سطح مياه البحيرة ، ثم تعود قافزة الى الماء . ولاحظ آخرون أن طيور الغر تتعانق فى الفضاء . كان الصباح يبدو جميلا مبهرا . لكن قال أحد الرجال .

— أين أبو على ..؟

ظهر أبو على منكسرا . كان يقف خلف رجل يبدو غريبا عن المنطقة . قال الرجل الذى سأل .

— من أنت ؟

وكان يوجه حديثه لهذا الغريب .

— أنا جديد هنا . أوفدتنى المصلحة أمس للعمل بدلا من زيدان .

نظر الرجال الى بعضهم فى دهشة ، قال آخر .

— ماذا تقول ؟

— بدلا من زيدان .

تساءل ثالث ..

— وكيف عرفت المصلحة ان زيدان اختفى ورحلت زوجته .. ثم متى أتيت ؟

— أتيت فى منتصف الليل أنا وزوجتى — وأشار الى باب عشة بيته الذى كان

بيت زيدان، حيث كانت زوجته تقف — أما المصلحة فلا أعرف علام تتحدثون .

تساءل رابع .

— هل جئت وحدك ؟

— سمعت أنهم سيرسلون مفتشا للمنطقة ، ورجلين بدل — وبدا كمن يتذكر — بدل شخصين لاأذكر اسميهما يقولون أنهما كانا يجريان بعربة المفتش ..

— حامد وجابر ..؟

قال أحد الرجال

— أجل حامد وجابر ..

أجاب الرجل ..

وقال أبو على حزينا ..

— نسيتم مانحن فيه .. أين أجد على ..؟

كانت سعاد لاتسمع شيئا اذ أن بيتها بعيد عن الساحة . لكنها رأت وكأن الرجال فى حيرة . نظرت الى ليلى التى تقف جوارها ، بعد أن ظلت معها طول الليل تبكى وتفكر فى أخيها ، وسعاد تهون عليها ولاتقول أن على قال لها شيئا . نظرت بعد ذلك الى المرأة الغريبة التى تقف على باب بيت زيدان ولايفصلها عن سعاد الا بيت زينب مفتوح الباب ثم قالت .

— من أنت ؟

ابتسمت المرأة . قالت .

— أنا جديدة هنا . اسمى احسان . وزوجى يقف هناك .

وأشارت الى الرجال فى حماس ..

لاحظت سعاد بعد ذلك أن بقية النساء تنظرن الى المرأة الجديدة . كانت ليلى قد تركت مكانها واتجهت الى الساحة حيث يقف الرجال . رأتها سعاد من بعيد ، ثم رأتها تعود اليها . ورأت الرجال يتجهون بعد ذلك خلف البيوت فى

طريقهم الى العمل بينما يدخل أبو على الى بيته .

ـــ ماذا حدث ..؟

سألت حين اقتربت ليلى منها .

ـــ أبى مريض .. لن يخرج الى العمل اليوم . سأذهب أنا الى المدينة فأنا أعرف أنه ذهب اليها .

قالت ليلى ذلك وأشارت الى بيت زينب . قالت سعاد .

ـــ ماذا هناك .؟

ـــ باب العشة مفتوح .

تقدمت سعاد من الباب . لا تعرف لماذا فكرت أن العجوز قد ماتت . عبرت العشة ولم تنظر حولها فى الحوش . لم تجد الا بعض أخشاب صغيرة وخروق مبعثرة . نادت . لم يرد عليها أحد . دلفت الى الحجرة الداخلية . لم تجد أحدا .. عادت لا تدرى ماذا حدث . حين صارت فى العشة من جديد سمعت حركة بطيئة عن يمينها . نظرت فوجدت قطا أسود وكلبا أبيض يلغان فى دم دجاجة . كان الدجاج كله مقتولا ملوثابالدم والفواريكة مقلوبة وقد تبعثر الكوك والرماد حولها .

كان الجسر طويلا . أطول مما توقعت العجوز . الشمس الغادرة قد بكرت فى الصعود . عرفت العجوز أن الشمس اليوم ستعطى آخر ما عندها من نار . ربطت على عينيها عصابة سوداء . قالت لنفسها أما أن ترى أولا ترى ولا يجب أن ترى بقليل من النور . تركت يدها الى أكبر أبناء حامد . كان الطفلان الآخران يسيران خلفهما مزقا من القماش ، حافيين مثل أخيهم والعجوز . توقفت أمام خص من البوص . خرجت لها هنية . لم تتكلم العجوز . قالت هنية .

ـــ ماذا تريدين يا خالة ؟

وجعلت تقلب عينيها بين الأطفال الثلاثة وتبتسم . أشارت العجوز الى الأطفال . فهمت هنية . قالت ..

ـــ لا أعرف هل أقول لك المدينة فتعودين الى الخلف أم أقول لك لا فتسيرين الى الأمام . لقد اختفت ولم تقل شيئا ـــ وبعد صمت قليل ـــ لكن كيف عرفتنى يا خالة ؟

قالت العجوز بصوت ضعيف .

ـــ هل أجد عندك عصاة ؟

دخلت هنية الخص . أحضرت عصاة أبيها . وضعت بعض الخبز فى بقجة وخرجت .. أعطت العصاة للعجوز وحمل أكبر الأطفال البقجة خلف ظهره . سارت أم جابر تتوكأ على عصاة أبى هنية .. بعد خطوات قليلة هتفت هنية .

ـــ يا خالة .. كيف عرفتنى .؟

أرادت العجوز أن تقول لها أنها «نبى» لكنها أدركت أن صوتها لن يصل فقالت لأنك «عاهرة» ونسيت أن هذه أيضا لن تصل ...

حين كاد النهار ينتصف قررت أن تستريح . جلست جوار خص مهجور دلها عليه أكبر الأطفال . جلس الأطفال حولها . قالت العجوز وهى لا تدرك أن الأطفال يسمعونها «تعطينى العصا والخبز !؟.»

لم يفهم الأطفال شيئا . قال أكبرهم .

ـــ الى أين نسير يا خالة ؟

ـــ نسير .

ـــ الى أين .. هل لن تعود أمى .؟

ـــ سنجدها .

صمت الصبى غير فاهم . قال بعد قليل .

ـــ لقد بعدنا كثيرا . لا يوجد أحد .

لم ترد . تعرف ذلك ولا تعرف إلى أين سينتهى الجسر الذى يمتد الى مالا نهاية أمامها وخلفها . عليها فقط أن تسير . سألت نفسها لماذا تسير صامته ؟ لماذا لاتنادى زينب علّ أحدا يسمع النداء . أو لعل زينب نفسها تسمعها . لكن هل خرجت حقا من أجل ذلك ؟ .. ماتريده الآن هو أن تجد أحدا يأخذ الأطفال يرعاهم .. لكن هل يمكن أن يحدث ذلك وهى معهم . ؟ لابد أن تموت أولا ! . لو تركتهم خلفها مااهتم بهم أحدا . ليست مخطئة اذن فى اصطحابها لهم . هناك لم يعد مكان لأحد . النجاة هى بحث الجميع الآن .. تدرك ذلك جيدا . وتدرك انها لو ماتت ستنشق الأرض عمن يأخذ الأطفال . لكن لابد أن تبعدهم مااستطاعت عن ذلك المكان الذى تحيطه البحيرة والصحراء وتمر عليه القطارات الغريبة ..

حين نهضت بعد الراحة كانت الشمس قد مالت للغروب . أحست بذلك من نسمة المساء الطرية . قالت لأكبر الأطفال أن يأخذها لتشرب من البحيرة . طلبت من الأطفال أن يشربوا . شربوا جميعا بشراهة . قال أصغر الأطفال .

ـــ الماء مالح ..

وبصق .. ولأول مرة تبكى العجوز بصوت مسموع منذ اختفاء ابنها . قالت فى نفسها «ماذا عساك فعلت ياولدى تحت الشمس ؟». قال أكبر الأطفال ..

ـــ من تحدثين يا خالة ؟

كان الليل قد أوشك . قالت ..

ـــ ادعو الله أن نجد أمك .

ـــ لماذا لا نعود وننتظرها ؟

قالت ..

ـــ هل تعرف كيف نعود ؟

نظر حوله . وجد الظلام يأتى كاسحا . الشمس انتقلت من مكانها الذى رآها فيه فى الصباح. صارت بعيدة جدا على الناحية الأخرى من الجسر . رآها حمراء كبيرة. خاف. سمع نقيق الضفادع عاليا كأنه داخل أذنه. لم يرد. اقترب أكثر

منها . مشى ملتصقا بها . بينما كانت هى ترى جابر مقبلا عليها من بعيد ، ويمد اليها يدا كبيرة بيضاء حانية ، تأتى اليها بحجم الكون ، تضمها وتربت فوقها . سمعت كبيرهم ..

ـــ الصغير ينام .

قررت الجلوس مرة ثانية . اقتربت من حافة الجسر بالقرب من الماء . كانت حين نهضت أول مرة قد عت العصابة عن عينيها .. قالت لنفسها أنها لن ترى فى الظلام . وحين جلست المرة الثانية كانت كتلة سوداء تنعكس مظلمة فوق مياه البحيرة التى أضاءها القمر الصاعد . لم تكن ترى نفسها فى الماء ولا القمر . كانت سعيدة . فهى تسمع هسيس نبات الحلفاء وتسمع صوت هبوط الطير ونقيق الضفادع .

حين وفدت على المنطقة مع زوجها ،

وكان ذلك منذ سنين طال بها العهد ، لم يكن هناك غيرهما . زوجها يشكو لها وحدته فى العمل وهى تشكو له وحدتها فى البيت . يتعجب لماذا أرسلته المصلحة ليعمل وحده بلا زملاء ولا رؤساء فى صيانة القضبان وتركيبها . وتتعجب لماذا يوجد عشرون بيتا طالما لا تسكن الأسرة الا فى بيت واحد ؟.

أصبح صباح فوجدا البيوت العشرين ممتلئة بالأسر .. لم تفكر ولا زوجها فى سؤال أحد من أين جاء . قال لها زوجها فرحا «صار لى زملاء أعمل معهم». وقالت فرحة «صارت لى جارات أثرثر معهن».

فى الصباح التالى قالت له أنها حامل . ثم أتى جابر وعقمت من بعده لسبب غير معروف . تغير كثير من العمال وبالتالى الأسر . لم تسأل هى ولا زوجها لماذا يتم ذلك ؟. أو أين يذهب الراحلون ؟ ومن أين يأتى القادمون ؟ وكان من يبقى

يفعل مثلهما دون اتفاق .

صارت للحياة حدود بسيطة . الرجال يخرجون مع الصباح لإصلاح القضبان . ولقلة القطارات لا يوجد عمل كثير . فى العصر يصطادون السمك . الأطفال يصطادون فى الصباح العصافير وفى العصر السمك . وفى بعض الأيام يفعلون العكس . خصوصا فى الشتاء حيث تقل هجرة العصافير الى المنطقة . فى المساء يلعبون ألعابهم . والنساء تنجبن وتخبزن وتتحدثن وتتشاجرن بسبب الأطفال ، ثم تتصالحن بسرعة . حدثت حرب كبيرة وجابر بعد طفل صغير . كثر مرور القطارات المحملة بالجنود والخواجات . كان زوجها يقول أنهم يحاربون بعضهم فى بلادنا . كانت هى قد نسيت أن لها بلادا . لم تعد تعرف الا بيتها والبيوت العشرين ، ولاترى خلف البحيرة والصحراء والمحطة بلادا . زوجها يعود اليها فى أكثر الأيام بكميات لا بأس بها من الشاى والعدس والفول . وفى بعض الأحيان ملابس وقطع من الشيكولاته وكميات كبيرة من البسكويت . ويقول أن الجنود الخواجات أعطوها له عند المحطة . ثم يقول أن الخواجات كفار لا دين لهم ، ينكحون نساء بعضهم ويشربون الخمرة . تقول له لماذا ترضى اذن بأن تأخذ ما يعطونك ؟ يقول أنهم يعرفون كل شيء فهم شياطين لا يستطيع أن يقاومهم . ويحكى لها عن الأشياء العجيبة التى معهم . قطع معدنية صغيرة يشعلون بها السجائر . ساعات تضيء فى الظلام . علبة صغيرة يخرج منها سلك رفيع يرتفع فى الهواء وتتحدث وتغنى وتنقل لهم أخبار الدنيا . ويقول لها أنهم يتكلمون بلسان غريب ويضحكون ثم يتشاجرون .

ذات ليلة قال لها أنه أصبح صديقا لناظر المحطة وسيدعوه ليسهر معهم . وبالفعل صار ناظر المحطة يقضى كثيرا من الأمسيات عندهم . ثم انقطع عن ذلك ، ولما سألت زوجها عنه قال أنه أصبح ينام طول الليل والنهار ، واذا صحا لا يكلم أحدا . لكنها لاحظت أن زوجها يخفى عنها شيئا ما... وقد صار يعود كل مساء بعد الصيد من البحيرة خائفا مرتعشا ينام وهو يقول لها «دثرينى دثرينى !». آه ، انها تذكر ذلك الآن . ماذا أخفى عنها زوجها ؟

لكن جابر كان يكبر يوما بعد يوم ، وكانت الخواجات تتناقص قطاراتهم ، وتقل قطارات الجنود حتى اختفوا تماما ولم يعد يذكرهم أحد .

خلال ذلك كان العمال يتغيرون وأسرهم . ثم لم يحدث أى تغيير منذ عشر سنوات . وكان قطار الكنسة يأتى فى البداية جارا عربة واحدة . ثم ازدادت العربات وأدركوا قيمة مافيه من معادن ، فخرجوا اليها وفى نيتهم بيعها بالمدينة . لكن ظهر بائع روبابكيا صار يأتى فى منتصف كل أسبوع يشترى ماجمعوه من القطار يوم الجمعة ، ويذهب به الى المدينة ، فلم يفكر أحد فى الذهاب اليها ..

كان الجسر هو المكان الذى يبتاعون حاجاتهم منه رغم قلة عدد الدكاكين به . لكن هذه الدكاكين ازدادت مع الوقت . وازداد عدد الساكنين فوقه من الباعة ، حتى أنهم عرفوا أن الحكومة اضطرت لتوسيع المدرسة التى فوقه والمستشفى . رغم ذلك لم يفكر أحد فى الحاق أبنائه بالمدرسة .يعيشون بروح الرحل . فهم يعرفون أن عمال السكة الحديد يسيرون دائما وراء القضبان ولا يستقرون . والمفتش حين وفد الى المنطقة كان ابنه فريد يظل طوال العام الدراسى بالمدينة ولم يعرف أحد أين . البعض قال عند أقاربه وآخرون قالوا أن المفتش أجر له حجرة هناك ، ولم يخش عليه رغم صغر سنه . لم يستقر فريد مع أبيه الا بعد التحاقه بالجامعة إذ صار رجلا يستطيع الذهاب والمجيء . كان أبو على هو الرجل الوحيد الذى ألحق ابنته ليلى بالمدرسة الصغيرة فوق الجسر . لكنه منعها عن ذلك بعد أربع سنوات . أما على فانه منعه بعد سنتين رغم توسيع المدرسة ، ورغم أن المدرسين قالوا أنه ذكى وأحسن التلاميذ .

منذ خمس سنوات توفى زوجها . أصبح عليها أن تترك البيت وترحل ، فهذا قانون المصلحة . لكن المفتش استطاع تشغيل ابنها جابر الذى نضج ، بدلا من أبيه . ومن ثم بقيت بالبيت لا تنسى أبدا فضل المفتش . وتدعو الله أن ينجح ابنه فى مسعاه . خاصة أن الرجل اختار لجابر عملا غير مرهق ، وجعله زميلا لحامد فى دفع عربته التى يجلس فوقها يمر على مواقع العمل .

لكن جابر كان قلقا دائما .. كانت تتمنى لو تزوج . وتخشى عليه كثيرا حين تسمعه بالليل وهو نائم يهذى باسم سعاد . تراه زوجها وأباها ... وهى تتساءل الآن لماذا اختفى دون أن يخبرها الى أين ؟. وأين تجد الشخص الذى كان يحدثها عنه ويقول أن إسمه مسعد ؟ وأنه حدثه عن بلاد جديدة غنية بالمال سيذهب اليها ويرسل اليه من هناك . وتتعجب من أنها لم تتذكر ذلك من قبل منذ اختفاء ابنها . تقول لنفسها ليس معقولا أن يذهب جابر الى تلك البلاد الغنية . هذا أمر لا يجعله يختفى فجأة .

استعدت للهبوط الى الماء . لكنها سمعت صوت جابر يهتف بها من فضاء سحيق . أحست بحاجته الشديدة اليها . قررت أن تقاوم الطقس الذى بقى لها . أن تسير بالأطفال فى الصباح . أن تجد زينب . أن تعيش ..

□ □ □

سعـــاد

لم تعرف النساء سر المرض المفاجىء الذى أصاب سعاد . كن يتحلقنه نهارا راثيات لحالها ويتعجبن كيف لم تمرض بعد وفاة الشيخ مسعود ثم تمرض الآن .. قالت احداهن لعلها عرفت أن هناك سكانا جددا سيأتون فخافت أن يتم طردها من البيت . لكن ليلى كانت تعرف ، وتمضى معها الليل .. لم تدرك سعاد أنها تهذى باسم على مما جعل ليلى تندهش هل يمكن أن تكون سعاد عاشقة للصبى الصغير ؟ لقد ظلت سعاد منذ اختفاء على تطمئن أخته على عودته . عرفت أن ليلى تعلم أنه ذهب الى المدينة فقالت لها بأنه لن يمضى أكثر من أيام قليلة ويعود هكذا أخبرها قبل رحيله . ورجتها ألا تخبر والديها بأن سعاد تعرف شيئا . واستغفرتها وقالت أن هذه رغبة على ، الذى رجاها كثيرا أن لا تخبر أحدا بما عزم عليه .

وقالت سعاد أنه منذ الليلة التى دخلت فيها كرات النار من النوافذ ، وفكرة الذهاب الى المدينة تسيطر عليه . وسألت ليلى اذا ما كانت لاحظت شيئا عليه من قبل ، فقالت أنها أدركت منذ محاولاته الوصول لأوراق فريد التى مزقتها فيما بعد ، ومن سؤاله عن المدينة ، إنه انتوى أن يفعل شيئا ، وكانت تخشى أن يرحل . ثم قالت ليلى أنها ستخبر أبويها أن على سيعود . بالضبط كما طلبت منها سعاد . لكن الأيام مرت . تغير نسيم الجو فلم يعد حارا . لقد مر الصيف بأكمله .. جاء الخريف باردا ، وبدا كأن الشتاء يتجمع فى الأفق البعيد . طوال الصيف لم يستطع أبو على أو أمه أن يفعلا شيئا . فلقد وفد مفتش جديد كان أول مافعله هو أن هدد الجميع ، بأنه لا فرصة لأحد أن يتغيب يوما واحدا عن العمل . فهناك كثير من القضبان لابد من تغييرها بعد أن أكلها الصدأ ، وعوارض كثيرة غارت فى الأرض لابد من رفعها ، ودك الأرض من تحتها لتتحمل مرور القطارات . جاء مع المفتش رجلان فى سن الشباب سكنا بأسرتيهما فى بيتى حامد وجابر ، وكانا يقومان بدفع عربته التى يركبها فوق القضبان . أخبر المفتش سعاد أن تبحث لها عن مكان آخر ، فمع بداية الشتاء سيأتى بعامل جديد يسكن بيتها ، وأنه لا يستطيع أن يفعل لها أكثر من ذلك ، لقد أعطاها فرصة واسعة من الزمن تدبر فيها نفسها . ونفس الشيىء فعله مع زوجة عبد الله المريضة . قال لها « سننتظر حتى الشتاء ، اذا عاد زوجك ستبقون ، اذا لم يعد ترحلون ». وقال أنه لن يخبر المصلحة بانقطاعه عن العمل قبل ذلك . فكرت أم ليلى أن تذهب الى المدينة لتبحث عن إبنها ، لكن زوجها منعها بشدة فسقطت مريضة . قال لها الولد سيعود . وصاريبكى فى داخله بكاء كالخناجر . طلبت ليلى من أبويها أن يتركاها تذهب الى المدينة تبحث عنه ، لكنهما صرخا فى وجهها . « ماذا ستفعلين فى مدينة كبيرة لايعرف فيها أحد أحدا ؟ . »

انتهى الأمر الى الانتظار حتى يعود على . لكن سعاد بدأت تشعر أنه لن يعود . عافت الطعام والكلام وسقطت فى الحزن ، ثم تملكتها حمى غريبة كانت تجعلها كالسابحة فى الفضاء . لم تقل سعاد شيئا مفهوما لأى من النساء اللاتى يعدنها .. لكنها قالت لليلى .

— ألا ترين الأمر غريبا .؟

قالت ليلى .

— لقد فكرت كثيرا .. ان المفتش له ابن يقولون انه يعيش بالمدينة وسيلتحق بالجامعة بعد عام ويأتى ليعيش مع أمه وأبيه هنا ..

ابتسمت سعاد ابتسامة شاحبة . نظرت الى ليلى بأسى . كانت ليلى قد سبحت فى الزمن الجميل . الأوقات القليلة المسروقة من الليالى القليلة التى قابلت فيها فريد . والتى كانت تبدو كزمن كامل يعلو على الزمن الذى يعيشه الجميع . عادت ليلى من الذكرى الشجية حين وصلت الى الكذب الذى لم تفهمه . قالت سعاد .

— والرجلان اللذان يدفعان عربة المفتش . أحدهما له أم عجوز والثانى له زوجة وثلاثة أطفال .

هزت ليلى رأسها . قالت .

— والرجل الذى سكن بيت زيدان . زوجته احسان تبدو فاجرة .

قالت سعاد بأسف :

— هل سيأتى فى بيتنا شيخ ؟

صمتت ليلى ثم قالت .

— قال أبى أنه لن يتركك . سيطلب منك أن تعيشى معنا .

كانتا فى ذلك الوقت وحدهما . أحست كل منهما بحاجتها للأخرى . انحنت ليلى على سعاد الممددة فوق السرير وقبلتها . قالت لها أنها لابد أن تقاوم المرض وتنهض ، وقالت أن احسان حدثتها أنها سمعت بأن قطارا كان يأتى هنا منذ سنين يحمل الكنسة التى يكون بينها قطع مختلفة من الحديد والنحاس والألمونيوم والزهر ، وانها سألتها لماذا لم يعد هذا القطار يأتى ، ولماذا لا يحاولون أن يعيدوه ، فمرتب الرجل قليل والحياة صعبة ، والصراف الذى يأتى كل شهر يصرف للرجال الرواتب يقول أنه لاأمل فى أى زيادة ؟ . تعجبت سعاد لذلك كثيرا ثم نامت وهى لاتدرى .

استطاعت سعاد أن تقاوم المرض كما طلبت منها ليلى ! وكلما اقترب الشتاء ارادت أن تعرف من الذى أوقعها فى الشباك الصارمة . تركها الشيخ العجوز وتركها الصبى الذى انتظرته كثيرا . وفى ليلة لم تأت فيها ليلى عرفت سعاد أى جناية جناها عليها بعلها . قالت أنها أخطأت حين انتظرت أن يرسل اليها أحدا من عنده ، أو يرسل الله،فالنهاية التى انتظرتها منذ زمن هى أن تهب نفسها لعلى . لقد جاء فى ليلة كرات النار ، حدثها كثيرا عن الارتحال الذى تكرهه ، وعن المرتحلين الذين كانوا نور المكان وبهجة الزمن . قالت له انها تخاف أن لا يعود.كان جالسا جوارها على الأريكة . ودت لو ضمته فأعطته سر جذوة العشق التى لا تخمد . لكنها رأت فى عينيه لهيبا وعزما على شيىء لا تعرفه . أما الرغبة فبدت ميتة . نظرت اليه مليا فدفن وجهه فى صدرها . هدهدته كابنها . رفع لها وجهها ذليلا وقال أنه يخاف ألا يراها مرة ثانية . قبلته على خديه وقالت له أنها ستنتظره . ثم ابتسمت وقالت بشرط أن يعرف لم الانتظار ؟. وكانت تشعر به ترتفع حرارته بين يديها وعلى صدرها . ودت لو فعلتها . لكنها تشاءمت . قالت فى نفسها أنها تريد أن تراه مرة أخرى . وتركها . ظلت طوال الأيام التى تلت ذلك كلما رأته بكت فى سرها . وحين تجد نفسها فى حجرتها وحدها تبكى بصوت يكاد يحرك الجدران . وكان آخر مافعله ليلة الرحيل أن أوصاها بليلى . قال لها لو انتظراه سيعود . ولو عاد ولم يجدهما سيبدأ فى الإرتحال الذى لا عودة منه ..

قالت لبعلها أن يسامحها . ثم قالت تركتنى وتريد أن تحاسبنى لماذا .؟ كانت ترى عينه تطل عليها من أعلى السقف كعين شمس غاضبة ...

كان الشيخ مسعود قد قال لها أنه ،

الله ، يقول لكل شيء كن فيكون. والآن كل شيء كان . وهى لا تصدق أن الله يفعل هذا كله . انها كذبة كبيرة . الشيخ مسعود كذبة كبيرة . انها وقد وصلت الآن الى حالة من الصفاء النادر بعد المرض ، تذكر جيدا يوم أن نظرت فى عينيه حين دعاها وأمها للطعام فى الدكانة الصغيرة . لم يكن ذلك حبا . كان فى عينيه وميض نجاة . دعوة هروب . سحر لا يقاوم . كانت عيناه كاذبتين . وهى الآن تعرف بيقين ثابت لاينِدك كما الجبال اذا أنزل عليها القرآن ، أن الشيخ مسعود لم ينم معها ليلة واحدة . أنهما لم يغرقا فى بحار العرق ، ولا الشهد والعسل ، ولا الدم والنار .

كانت ترى دائما ، والشيخ مسعود فوقها . أنه يطل عليها من فرجة فى السقف . تماما كمل فعل حين كان على يبكى فى صدرها . كيف لم تدرك ذلك الا اليوم ؟. أنها تتذكر مشهده جيدا . كان بعينه الشيخ مسعود يطل من الفرجة فاتحا فمه الذى يبدو كبئر مظلم مقلوب . وكانت تراه يشير اليه من أعلى فيدخل من باب الحوش ، طويلا عريضا قويا كله نور . وكان هو الذى يطرحها فوق السرير. وهو الذي يجعلها تصرخ وتتلوى وتبكى وتضحك بعهر وتنشب فيه أسنانها . لم تر قط أثرا لأسنانها فى جسم الشيخ مسعود . كان دائما يطلب منها أن تساعده على الإستحمام . كان نظيفا يحب الإستحمام والوضوء . تدعك له ظهره بليفة حمراء خشنة وتنظر فلا ترى فى كتفيه آثار أسنانها . ولا فى صدره حين كانت تخلع ثيابها وتتلوى فى حضنه تحت الماء . لكنها دائما تنسى ذلك . ماالذى كان ينسيها ولماذا ؟ وماالذى أيقظ فيها هذا كله الآن ؟ ومن الذى عاشرها طوال تلك السنين ؟ ولماذا كان الشيخ مسعود يستحم بعد الفعل الفاضح .؟ أجل هو فعل فاضح وزنا . لم يكن بعلها قط

كانت تجده دائما جوارها فى ثيابه الكاملة . سرواله الفضفاض وتكة سرواله المجدولة البيضاء المدلاة بين ساقيه ، وصديريته مغلقة حول صدره . أى بؤس عاشته سعاد ومن أى نوع ؟. أى بئر غرقت فيه جذوة العشق التى لا تخمد . من كان ذلك القادم ليلا كل يوم يضع فيها بذورا ثقيلة محرقة تشعر بها تتجاوز طريقها مالحة الى فمها .؟ ماذا فعل بها الشيخ مسعود ؟. ولماذا أحضرها

من رصيف المحطة ليضعها هنا ؟ لماذا كان يتركها لهذا الزائر الليلى النورى الملتهب وينظر من فرجة فى السقف ؟ لماذا صدقت أنها جذوة العشق التى لا تخمد ، فكانت كلما رقصت رأت الكون كله نورا فى عينيها وودت حين يحرقها العرق لو تحول الكون كله الى ذكر ضخم ؟ لقد قال لها أن جذوة العشق التى لا تخمد لا يمكن أن تسقط أبدا ، وصدقته فقتلت كثيرين ..

ثقل على سعاد مافعلته . ثقل عليها أكثر أنها لم تقطع الشوط الى النهاية ، وضاع الغلام الذى تاقت له كثيرا . لم تأتها ليلى هذا المساء فتركتها مع نفسها فى حساب عنيف . انها تعرف كم كذبت على ليلى .

قتلت فريد ولم يقتله غيرها . كان يأتيها كل مساء دائرا حول نافذتها أكثر من مرة . يظل يدور حتى يسمع آذان الفجر . تراه من خلف ثقب بالنافذة . حتى فى ليالى المطر وليلى تبيت معها كانت تنهض من نومها ولا تشعر ليلى بحركتها . ينقر الشباك الخشبى نقرات رفيعة كصراخ الجندب أو كصوت حبات المطر الرقيقة . تفتح له النافذة مكشوفة الصدر والليل برد زمهرير . تخرج له صدرها فيتعلق الفتى النحيل بحلمتى الثديين . يعبث بهما كثيرا وهى تضحك متأودة ، أو تكتم ضحكتها اذا كانت ليلى عندها . تغرق فى بحار النشوة لكنها أبدا لا تتركه يتجاوز . لا توافق أن يلتف ويدخل من الباب . يرتفع الفتى النحيل ليضع فمه حول كل حلمة ثدى مرة . يرتشف كما يفعل الجدى الصغير تحت ضرع أمه . تشعر بالنظارة ذات الملمس البارد فوق صدرها ترفعها من فوق أنفه وتمسكها فى يدها ضاحكة . يتألم الفتى النحيل ويبكى ويشد شعره . يقول لها أن تتركه يدور مرة . لو دخل يقهر قلب المكتوب ! . يقول لها « هكذا سنموت جميعا » تقول له در اذا استطعت . يبكى ويقول انه يعرف انه لن يستطيع . وأنه سيموت تحت النافذة . لكنه لم يمت تحت النافذة . وجدوه بعيداً بأمتار كثيرة فوق قضيب قديم

صدىء وقد سقط فوقه سلك كهربى سميك . لكنها هى التى قتلته . لاتستطيع أن تنسى ذلك . ولا تنسى أنها ظلت جذوة العشق التى لا تخمد والتى قتلت كثيرين .

قتلت جابر الذى كان يأتيها جهارا فى النهار . فى ساعة القيلولة والشيخ مسعود نائم يغط . تفتح له الباب فيدخل متحفزا كالنمر . يقفز حولها لكنه لا يقفز فوقها . تقول له هذا هو الوقت الذى يجب أن تأتينى فيه . يشير للعجوز النائم . تقول هذا هو الوقت . يقول لها الليل . تقول الليل فضاح . والنهار ستر الخيانة الأبدى عند من يفهم ! . يقول حقا أنك لعكس نساء العالمين . تقول تقدم . وتخلع ثيابها . تقف عارية وجابر يجف حلقه بنار المباغتة . ترتعش ساقاه . يرتعش ثدياه بالنشوة وتتخدل ذراعاه تسقطان بجواره . تسقط دموعه كطفل منع عنه الطعام وهو أمامه . يشعر أنه مغلول بقوة أكبر منه . يغمغم بكلام كثير لا تفهمه . تفتح له باب العشة وهى عارية . يخرج مكسورا حزينا يكاد يقطع لسانه تحت ضغط أسنانه . لا تنسى أبدا نظراته وهى تخترق جسمها وهى تقطع البيت عارية الى باب العشة . وتظل هى جذوة العشق التى لا تخمد . هكذا قال لها بعلها وصدقته فقتلت الكثيرين. واحد فقط لم تقتله هو بعلها . وتعرف الآن أن الذى قتله هو الذى كان يأتيها كل ليلة نوراً كله . لكن لماذا قتله على هذا النحو البشع ؟. ولماذا لم يعد يأتيها ؟ ولماذا تركها كثيرا تقيم طقوس العشق مع رجل ميت لم يكن حيا قط ؟

تكبر الكذبة أمامها . تقلب أيامها وسنينها . الليلة تريد أن تعرف . حين رأت القطط والكلاب تلغ فى لحم دجاج زينب أحست بقرب النهاية . بأنها تريد أن تصرخ فى وجه شيىء لاتعرفه . الليلة تريد أن تصرخ . أيام المطر قادمة . لقد تبدلت الوجوه فاكتملت البيوت أو أوشكت . وهذا التبدل لن يجعل الشتاء هينا . فسوف يقبل لينهى زمنا رخيصا أسرع بالمكائد والجنون . وهى جذوة العشق الذي لا تخمد. ان عليها ديناً ستدفعه، ولن ينجيها منه غير

على الذى يشع ذكاء . كان يكبر أمام عينيها كل يوم ويتجه الى ربوة الرجال . كانت موقنة أنه سيأتيها بسرعة فوق براق يتجاوز أترابه من الغلمان . رأت ذلك كثيرا حين كانت تصعد الى السطح تفتح صدرها للمطر . لاتزال تذكر تلك العربة الصغيرة التى كان على يسبح بها بين السحب ويلقى من فوقها عليها الورود . كانت مثل عربة المفتش ، لكن لايدفعها رجال . يقودها البراق الذى لم تره قط . وليس خلفها جابر وحامد أو أمامها . .. حامد المسكين الذى كان يعدو بالنهار خلف عربة المفتش وبالليل وراء الشبق العارم . قال لها شيىء يدفعنى لأجرى نحوك فلم تمنعه . قالت له الموعد صلاة العشاء . يكون الشيخ مسعود فى الجامع ويكون هو متبتلا فوق صدرها . وضحكت فدارت الدنيا به وكاد يقع . أتاها كالقنفذ يمشى جوار العشش فى قفزات خائفة ملتاعة . حين وجد باب العشة مفتوحا دخل فى قفزة واحدة أفزعت الدجاج . حين دلف الى الحوش وجده مضيئا نورا لم يره من قبل . خاف . فكر فى الهرب بسرعة . كانت هى بالداخل تضحك بغنج . أتاه صوتها فكاد ينشطر نصفين رغبة فى الهروب وشبقا عارما فى آن . لم يعرف أى قدم يتقدم بها ، فكل منهما تشد الأخرى مرة الى الأمام ومرة الى الخلف . أرسلت ضحكة أخرى فاندفع نصفه الأعلى الى الأمام وكاد يقع لأن قدميه ظلتا متسمرتين فى الأرض . قرر وهو الجسور أن ينهى الموقف فقفز الى الأمام . لا يعرف لماذا أحس بأن القفزة عالية وأنه ظل خلالها معلقا فى الهواء وقتا طويلا حتى كاد يصرخ طالبا الانقاذ قبل أن تلامس قدماه الأرض . ونجح فى النهاية أن يصل الى الحجرة الداخلية التى لا تبعد سوى أمتار قليلة . رآها جالسة فوق أريكة تحت النافذة المفتوحة ، والحجرة مضاءة بنور كنور وجه نبى يأتى فى المنام . كنور وجه ميت . هكذا أحس حامد رغم أنه لم ير نبيا فى حلم ولا ميتا فى الحياة . كانت عارية تضع ساقا فوق ساق . فى يدها لقمة عيش جافة . لماذا لقمة عيش جافة ؟ هكذا فكر حامد فيما بعد . لم يعرف المسكين أنها وهى فى الحجرة الداخلية كانت تراه بقوة سحرية وتدرك كل مشاعره وآلامه . كانت عيناها واسعتين كسمائين . صدرها بارزاً كتلين . ذراعاها ممتدتين كذراعى عربة المفتش . عرف حامد أنه لن يطالها أبدا . انه دائما خلف ذراعى العربة ولم يركب العربة قط . وحتى اذا جاء أمامهما فانه لن

يركب العربة . وخرج يجرى كمجنون .

فى تلك الليلة عرفت أنه سيظل يجرى حتى الجسر . وأنه سيبحث عن زينب هناك فيقع فى غيرها . فزينب فى البيت تنتظره وستنتظره دائما . « آه ياشيخ مسعود كيف خدعتنى . لكن أين أنت لانتقم ؟ . أين هم جميعا ؟ حتى الغلام ضيعته من يدى »

وأرتدت سعاد كل مالديها من ثياب فبدت مضحكة . ونامت متدثرة بكل مالديها من غطاء . لن تتعرى أبدا للشيخ مسعود . وستظل مكنونة كجوهرة حتى يعود الغلام الذى طلب منها انتظاره . ذلك الغلام الدقيق ملامح الوجه . صغير الأنف واسع العينين العسليتين اللامعتين التى تحكيان كثيرا من الأسرار . ذو الشعر الأسود اللامع صغير الفم والذى تأسف من أجله لأنها ضيعت كثير من وقتها فى انتظار رسول لن يأتى من قبل زوجها ، بينما كان يجب أن تعرف من البداية أنه هو ملاذها الأخير . هكذا أحست دائما وهى تراه يكبر كل يوم فلماذا تعلقت بحبال رقيقة .. لكن لا بأس فالغلام سيعود . حتما سيعود .

ظلت سعاد الأيام التالية فى هذا المشهد
المضحك من الملابس الكثيرة فوقها . النساء تنظرن اليها وتتبادلن النظرات آسفات على ماوصلت اليه . ودهشت ليلى كثيرا ولم تقل شيئا . وفى يوم مدهش من أيام الخريف الأخيرة . يوم كانت فيه الشمس زاهية الألوان . وأقبلت فيه عصافير الغرب بكثرة وحطت فى كل مكان حول البيوت . وكانت كل الطيور فى السماء فوق البحيرة بيضاء ، لم يكن بينهما طير واحد أسود . فى هذا اليوم فوجئ الجميع بسيارات كبيرة تحمل معدات ضخمة وتقف على بعد غير قليل من البيوت . كان الرجال فى أعمالهم . شاهد النساء والأطفال رجالا لم يروهم من قبل ، حمر الوجوه طوال شقر قالوا أنهم الخواجات ، ينزلون من السيارات

وينزلون ماعليها من معدات . ثم رأوهم ينزلون كميات كبيرة من الأخشاب ويعملون لا يعرفون فى ماذا .

فى المساء قال المفتش لسعاد أن عليها أن ترحل فى الصباح فهناك من سيأتى ليسكن فى المنزل،ذهبت الى ليلى فقال لها أبو على وأمه « كنا نعرف ونحن فى انتظارك .. سننقل ما عندك هنا اذا شئت الآن . » قبلت يد الرجل وأخذت ليلى معها وجعلتا تنقلان مالديها من متاع قليل . قالت لليلى .

— ماذا يفعل الخواجات . ؟

قالت

— أبى يقول أنهم سيردمون البحيرة ..

أحست سعاد بقلبها يغوص .. وأحست به يرتفع .. لم تعرف هل تبكى أم تفرح . لكنها تأكدت من شعورها بأن ركنا فى الدنيا سينهار . ثم تذكرت ما كانت قد فكرت فيه من قبل . أن ترى وجه القادم ليحتل بيتها فى الغد . سقطت دموعها كالنهر يتدفق فى هدوء . ان للبيت ركنا فى قلبها يتصدع . بل هو كل قلبها . أى زمن بائس عاشت سعاد لتراه . هل كان يعرف أبوها حين شرد ماذا خطت يده لابنته الوحيدة من آلام ؟ . لقد جاهدت سعاد كثيرا أن لا تقع وهى تنقل متاعها . لكنها الآن وهى تأخذ آخر مابقى ، تلك المصاحف التى علقها الشيخ مسعود والآيات على الجدران ، تشعر أنها ستسقط لا محالة . حين وصلت الى عتبة الحوش سقطت . كانت تريد أن تقبل العتبة .. انحنت ليلى عليها بسرعة لتسندها . لكن سعاد كانت قد وضعت شفتيها فوق العتبة ، وظلت تحتضن المصاحف والآيات فى صدرها . قبلت العتبة ، وأرض الحوش .

نامت فى البيت الجديد الذى أواها . فى
الحقيقة ظلت طول الليل ساهرة فوق سريرها الذى صار الآن فى حوش بيت أسرة

ليلى . فى الصباح بعد أن خرج الرجال الى عملهم صعدت هى فوق السطح وجلست وحيدة .. كانت تخشى أن يراها أحد وهى تنظر الى الوافد الجديد . فى الضحى أقبلت عربة صغيرة يجرها حمار وفوقها قليل متاع ورجل عجوز فى حوالى الخمسين . تماما كما رأت الشيخ مسعود أول مرة . كانت زوجته تضع خمارا أسود على وجهها . حين توقفت العربة هبط العجوز وهبطت زوجته . بدأ فى حمل المتاع يساعده الحوذى . توقفت زوجته قليلا ثم رفعت خمارها ونظرت . رأت النساء جميعا تقفن أمام أبواب العشش . لكنها لم تر سعاد التى كانت فوق السطح تنظر اليها . رأتها سعاد امرأة صغيرة تبدو كفتاة فى العشرين . جميلة مبهرة الجمال . تقف فى الساحة القريبة وكأنها امتلكت الدنيا وما عليها . ابتسمت سعاد وهى تتخيل ما ستفعله هذه المرأة وما سيقال عنها . أحست برعدة شديدة فقالت فى نفسها « ليس الأمر على هذا النحو — ورددتها أكثر من مرة — لقد أكتملت البيوت الآن وهناك اصرار على النسيان » . واتسعت بها الدنيا فأدركت أنها صارت تفهم كل شيء . ثم رأت كأن الهواء يطويها والبيوت تسقط فوقها فقالت فى نفسها بعزم « لكن على سيعود » .

الصحراء

لا أحد يعرف سر الصحراء . الله خلقها لغزا أبديا . تمر عليها الدهور والأمم ، ويظل الزمن والناس فوقها منذ يوم الخلق الأول . رحلة الشمس باهتة من فرط التكرار . ولا الشمس احرقتها ولا الرمال ضجت بالنار . والنجوم البهية فى قبة الليل الساجى محض خيال . والقمر المسكين لا يظل طويلا وينساه العشاق . والريح تصخب تحت الشمس وتحت القمر ، لكن لا الثعابين رحلت ولا الوحش والهوام . ملايين من الكثبان انسطحت تحت وطأة الريح . لكن لا أحد يستطيع أن يقول أنه قد خلت منها الصحراء . هذه الصحراء العفية تخضع للطفل الصغير الذى يعدو خلف رأسى غنم شردت من الخيمة المهترئة يعيش تحتها بشر منبتون . أى لغز هو هذا التيه ، وما الذى ألقى بهما فيه ؟

كانا منطرحين على الأرض حولهما الفضاء الرحب . الأرض صفراءتحتهما والسماء فوقهما زرقاء ، وكل منهما لا نهاية لها . وبدا كأن الله قد ألقى بهما للتو . من الجنة أو الجحيم فلا فرق . إنهما مطرودان .

يدركان ذلك جيدا الآن بعد عام من رحيلهما . والدليل الأعرابى أيضا يعرف . يتعثر فى الطريق ويعرف . يقود رحلة أمل خائب . ويقول جابر لنفسه « أبعد عام من العمل والوحدة يكون علينا أن نعبر الحدود على أقدامنا ، ونسير بالليل وننام بالنهار ؟ » .

لكن أين هى تلك الحدود . لم يصلا إليها بعد . ينظر إلى السماء فيجد عينها ، الشمس التى رآها كل يوم ، وكأنما يراها لأول مرة . شيئا كالقرص النارى ، يفرز أشعة قرمزية ، تصل إليه خناجر صفراء . يسير القرص وتظل الخناجر تصل اليهما وهما ملقيان . هو وحامد رفيق الجرى فوق القضبان . دائما ينسى الدليل . ليس رفيقا أبدا هذا الدليل . موقوت هو كالكبسولة التى يضعها العمال فوق القضيب قبل المحطة بمسافة معقولة فى يوم ملأته الشابورة . حين يقترب القطار من المحطة يعرف السائق الذى يحجب الضباب الأضواء عنه والسيمافور ، حين تدوس عجلات القطار فوق الكبسولة فتصل إليه فرقعتها العالية ، إن أمامه محطة فيبدأ فى التوقف . موقوت هذا الدليل مثل الكبسولة . يعبرها القطار فلا يبقى منها إلا فتات لا يستطيع أحد أن يجمعها . ربما فى الصباح يلهو الأطفال بها . لكن فى كل الأحوال لا تعود جدوى من ورائها بعد أن أدت دورها . وماذا يبقى من الدليل بعد أن يصل بهما إلى بر الأمان . إلى الأمل الذى هو أحمق حتى الآن أو سراب .. آه .. هل حقا سيصلان ؟. لم يكن جابر يعرف أنه فى تلك الليلة التى صارت بعيدة الآن ، كان يقرر بداية رحلة معذبة .

قالت له أمه العجوز .

ـــ الشتاء ثقيل . أول البشارة ..

وكانت قادمة من العشة الخارجية ، تحمل فى يدها مصباحا غازيا يهتز ، بعد أن إطمأنت على دجاجاتها ، وعلى عدم تسرب الأمطار من سقف العشة اليها .

لم يرد . كان جالسا فى الغرفة الداخلية التى تفصلها عن العشة الصالة التى يسمونها بالحوش . والتى بها دورة المياه التى يعدون سقفها سندرة يضعون

فوقها الخبز ، فى الوقت الذى يضعون جوار جدران الحوش صفائح الجبن القديم ، وبعض الأجولة الفارغة ، وكل أدوات المعيشة، إذ يجعلون الغرفة الداخلية للنوم ، والضيافة والسهر . كان جابر دائما حين يمر بالحوش ، ويرى الأشياء المبعثرة القذرة ، يشعر بها تحاصره وتكبس على صدره . ولم تكن أمه تراه جيدا فى تلك الليلة رغم أن الغرفة مضاءة بمصباح غازى كبير !. قالت .

ـــ كان قلبى يحدثنى بعودته دائما . يقولون أنه سيصل بعد غد . وهذه المرة سيأتى .

لم يرد . كان جالسا فوق الأريكة الوحيدة التى ينام فوقها أيضا بعد أن ترك السرير لأمه التى يحبها كثيرا . كان ضاما ساقيه إلى صدره ، لافا نفسه بحرام صوفى خشن ، ولا يبدو منه غير وجهه .

كان جابر دائم الدهشة من أمه . إنها تهتم لحضور القطار وهى العجوز التى لا تخرج إليه ولا منه تفيد . يراها أكثر السكان حزنا على مغيبه . أمضت الصيف كله تصلى لعودته . رهنت كل شيىء بذلك ، كما ربطت كل النوائب بغيبته . إذا لجأت إليها النساء للصلح بعد مشاجرة ، لعنت انقطاع القطار فهو سبب الشجار . إذا سرقت بعض دجاجات أو أصابها وباء أو هاجتها العرس ، قالت « يجيء القطار فينقطع كل سوء ». حين جاءتها روائح ، الوافدة الجديدة ، التى لم تر القطار من قبل ، سمعهما تتحدثان فى الحوش .

ـــ إصبرى حتى يعود القطار .

ـــ لكنه مربوط يا ست أم جابر .

ـــ القطار ربط كل شيء .

ـــ وأنا ما ذنبى ؟. لقد جئنا بعد غيابه .

بعد سبعة أيام قال لروائح وهو عائد متأخرا فى المساء وكانت تقف أمام باب العشة .

ـــ لا تصدق أمى .

إبتسمت وقالت .

— لم يعد بعد !

عرف من تعنى اللبؤة . نظر حوله بسرعة القس . دفعها إلى الداخل . قبل أن تتكلم كان أوقعها فوق أرض العشة . قال فى نفسه « مسكينة يا أمى العجوز لا تعرفين كيف يكون علاج الناس » . لكن روائح لم تكن أكثر من الطيف الذى يراه الجالس فى غرفته وحيدا فجأة.ذلك الطيف المخاتل الذى يقطع على الانسان الخلوة فيحسب أن معه أحداً ثم لا يبقى منه إلا أنه قطع سبحات الفكر والهموم للحظة خاطفة . لكنها لحظة تقول للجالس أن البشر سيصلون إليه مهما ابتعد أو حاول الابتعاد .

فى تلك الليلة جلست أمه أمامه فوق الأرض ثم جعلت تصلى . لم يفهم ما تقول ظنه شيئا مثل الذى تقوله حين تصنع الأحجبة . لم يكن جابر يعرف أن أمه تصنع الأحجبة من قبل . لكن حين إنقطع القطار رآها يوما تسير فى الغروب إلى القضيبين الحديديين اللذين كان يأتى القطار فوقهما . تابعها . ناداها . لوحت له بيدها أن يكف عنها ويعود . لا يعرف جابر لماذا رآها فى ذلك الوقت كالشاردة فى الدنيا وحدها . حين وصلت الى القضيبين جلست ، وجعلت تمسحهما بكفيها ثم تمسح كفيها فى خرق بيضاء كثيرة . بعد أن عادت إلى المنزل جلست فى الحوش تصنع من هذه الخرق أحجبة . ثم رأى النساء جميعا وكأن بينهن موعدا سابقا ، يتقاطرن إلى المنزل فى صمت . صارت أمه تعطى كلا منهن حجابا وتتمتم بعبارات غير مفهومة ، ثم تقول للمرأة « اقرأى عليه سورة الاخلاص » .

وكانت وهى تصلى تبدو أمامه ككتلة سوداء من الضعف . لاينسى أبدا أول يوم أدرك فيه أن أمه شاخت . كانت يداها ترتعشان وهى تحاول أن تدخل الخيط إلى سم الابرة . وظلت أصابعها تفشل فى إدخال الخيط إلى السم . أخذ منها الخيط والابرة . لضمهما . « كانت الديوك والدجاجات تنظر إليه من بين الأقفاص وهو فوق روائح يسبح كأنما هو فى عباب البحر » . طفرت دمعتان أخفاهما عن أمه . ناولها الخيط والابرة وقام إلى الحوش وبكى فيه . أدرك أنه لن

يستطيع أن يفارق أمه . لكنه بات يهزى بإسم سعاد . فى الصباح قالت له العجوز .

— احترس يا جابر . زوجها ولى من أولياء الله .

بعد أيام قالت له :

— مالك يا ولدى تحمل الهم فوق رأسك . تزوج يا ولدى فهذه القوة لن تدوم .

أحس جابر يومها أنه قادر على أن يزلزل الجبال . فجسده طويل ممتلىء . ذراعاه ضخمتان . رأسه جامد . عيناه السوداوان الممتلئتان حسرة ، تشعان ذكاء . لكنه تعجب كيف هزىء باسم سعاد بعد أن كف عنها محبطا بائرا ، بعد أن أدرك أنها ليست بالقبلة التى يولى شطرها وجهه . فكر كثيرا فيما حدثه به مسعد عن بلاد الزفت والمال . ظلت روائح نزوة تتكرر بفعل الملل ، على أوقات متباعدة . ظل هو منذ تعثرت أمه فى الخيط والإبرة فى حزن ثقيل .

بينما أمه تصلى كان ينكر فى الخطاب الذى وصله من مسعد . ما كادت تنتهى من صلاتها ، بعد أن دعت له كعادتها ، وكان دعاؤها هو الشيىء الوحيد الذى يفهمه ، حتى التفتت إليه قائلة ..

— لو كنت تصلى يا جابر .

وللمرة الأولى يبوح . كانت دموعه تسقط بغزارة . قال يخنقه اليأس ..

— يا أمى سأفارقك .. أعود كما ينبغى أو أموت .

ويسمع صوت حامد الذى كان مغطيا وجهه بكوفية بيضاء ليقى عينيه حرارة الشمس ، يقول مخاطبا الدليل .

— مضى علينا شهر يا فتوحة . ألا نقترب من قرية نأخذ منها بعض الزاد .؟

أشار الدليل برأسه يطمأنه . سيواصلون الرحلة أكثر قوة إذن . سيقتربون من فردوس الأموال . لكن حامد كان متعبا .. كان يفكر أنهم سيستأنفون السير حين

تغرب الشمس وتذهب إلى مهجعها المجهول . الله خلقها كذلك . وخلقهم أيضا لينهضوا من الحفر التى يصنعونها ليناموا فيها بالنهار ، كى يستأنفوا السير بالليل . لقد عرف حامد الله إذن . ضاق صدره بالكذب . فهو الذى يصنع الحفرة لنفسه . هو الذى صنعها هذه الحفرة الطويلة التى هو ساقط فيها الآن . هكذا علمهما الدليل . قال لهما أن نومهما بالحفرة ضرورى حتى لا تصطدم بهما العقارب والثعابين والحيات . وقال لكل منهما أن لا يغط وهو نائم . وإذا اقترب منه سبع أو ضبع أو أى حيوان لا يتنفس . ونهاية الحفرة عند القدمين ، لابد أن تكون أعمق ، حتى إذا نام الواحد فوق ظهره وارتفعت قدماه ، لا تكونان كندائين للوحوش . هكذا قال الدليل فتوحة الذى يقول الآن .

— لم يعد أمامنا غير القليل .. لن أترككما إلا بعد أن يمسك كل منكما عملا فى أكبر آبار الزيت

مرت سبعة أيام كاملة نفد فيها الطعام . لم يبق من الماء إلا القليل . أصبحت حبة الحصى هى وحدها التى تستطيع أن تؤجل العطش . التى تستطيع أن توفر لهم الماء القليل حتى يصلوا إلى أحد الآبار . كان كل منهم يضعها فى فمه يستحلبها . تكويه فى البداية بسخونتها لكنه ما يلبث أن يتعودها . يتشقق اللسان أكثر . يصير أكثر بياضا ويجف . وسرعان ما يجرى اللعاب . لكن إلى متى ذلك ؟ إن آخر بئر مروا بها بعدوا عنها بعشرة أيام . والماء الباقى لا يكفى شربتين . نظر حامد إلى النجوم فى السماء يخفى خوفه فى عدها . قال الدليل « النجوم كثيرة الليلة » . قال حامد فى نفسه « ما بالها لا ترانا كما نراها ؟ » . وكان يعرف أن قدميه لن تستطيعا حمله بعد اليوم . آه عربة المفتش . ما أكثر ما جرى ولم تتورم قدماه . ما أكثر ما تمزقت الأحذية ولم تتورم قدماه . ما أكثر ما سقط مهدودا تحت شجرة التوت عند مكتب المفتش القريب من محطة السكة الحديد ، وخلع حذائيه ليعرض قدميه للهواء ، وكان جابر يفعل مثله وينظر كل منهما إلى الآخر ضاحكا ، لكن لم تتورم قدماه ، ولا قدما جابر .

كان عفيا وهو الرفيع الهش ، يتسابق مع جابر الذى يبدو أقوى منه ، فى الجرى ويسبقه . يقول جابر وهو يضحك « أنت عظام كلك مثل العرس » . يقول له « وأنت ماذا أفدت من اللحم والعضلات ؟ » ويضحكان . يقول الجابر أنه ينكح ثلاث نساء . يطلب منه أن يذهب معه إلى الجسر . لكن جابر يقول إنه يدخر القوة ليوم يهزم فيه العالم كله . ويظل جابر يقف بالقرب منه فوق القضيب الثانى ممسكا بالذراع الأخرى لعربة المفتش . بعد أن يجلس المفتش ويفتح شمسيته يرفعها فوق رأسه ، يعطيهما الإشارة بإصبعه ويقول « هيا يا ولد » ويجريان به وبالعربة إلى المكان الذى يريد . حتى حين يريد الذهاب إلى مكتب الهندسة الرئيسى بالمدينة كان يذهب فوق عربته وعن طريق القضبان . ويدفعانه جريا إلى هناك . قال الجابر ذات مرة « لماذا لا يستبدلنا المفتش ؟ » قال جابر « نحن الأصغر سنا » بصق حامد وقال « لماذا يكون على الأصغر سنا أن يشقى دائما ؟ » قال جابر « لابد أن نرحل . إنى أدبر الأمر مع مسعد . إنه يتحدث عن الناس الذين يذهبون ويعودون بالمال والسيارات ويعيشون فى المدينة عيشة هنيئة . يقول إن أحدا لا يعد النقود . إنهم يغرفونها غرفا . يغيرونها بعملات أفرنجية . يغيرون العملات الافرنجية حين يعودون بعملات مصرية كبيرة . آلاف وآلاف .. والناس هناك قليلون وهم يحبون المصريين جدا » .

كان حامد يتردد دائما . فى النهاية قرر أن لا يتراجع . وحين هجم الشتاء وعرف أن القطار سيأتى بعد غد . تردد . انتظر جابر . وفى المساء خرج ليحضر الفواريكة من أمام باب العشة . نظر إليها كأنه ينظر إلى شىء يحبه . بيضاء من الصفيح الزنك السميك . عرف أنه سيرحل . وإلا لماذا هذا الحب الدافق للفواريكة كأنه يودع عزيزا غاليا . رده اللون الأبيض للفواريكة إلى اللون الأسود لليل والبحيرة والجسر . وللجعافرة السود فوقه . سرح نظره فوق وجه البحيرة المعتم . تركزت عيناه على الضوء الشحيح البعيد المختنق فوق الجسر .. هناك هنية تنام الليلة بدونه .

لقد تعب من هنية وأمها ومخدرات أبيها ومن عربة المفتش . ولتنم هنية الليلة هنيئة أو تعيسة . ليدخن أبوها حشيشه وحده . لتسطله أمها وبعدها تستمنى ،

فلقد بدأت تمطر . هكذا كان يتحدث فى نفسه وقد رفع الفواريكة بين يديه . وها هو الشتاء يضرب قلب الخريف ويحتل أيامه ، والصيف بالكاد قد مضى . السماء فوقه متربصة كتلها السوداء كالماضى حين يكون ثقيلا . لها بؤبؤ عميق وسع الليل الأسود يعبث به ويعبس له . وهو . حامد ، يمسك بالفواريكة بعزم . تلفح نيرانها وجهه ، ويتمنى لو وضع الوجه فى قلب النار منذ زمن وإستراح . لكنها كانت ستكون بردا وسلاما عليه . فالموت لا يختار الأشقياء . المؤمنون هم المصابون والطيبون . أما هو فكل شيىء ضده . يدخل بظهره ولا تزل عيناه تمسحان البحيرة . تسمع إذناه خفقات موجها ، فتختلط مع قرقرة الجوزة ، وسعال أبى هنية ، ويرى يده وهى تمتد إلى حجر أمها تقرصها والرجل يضحك .

البحيرة فى تلك اللحظات بدت بازلتية كجبال بلاده . كالبيوت التى ينامون فيها . وحامد يعرف أنهم سيحتفلون غدا بعودة القطار بعد الغد . إنهم يهيئون أنفسهم للقطار منذ الليلة . لكنه يعرف أن جابر فقط هو الذى يمضى الليل مثله .

هب شجار مفاجىء لريح ظنها مردة . أحس أن أشياء كثيرة تبعده عن ذلك الجسر اللعين . لن يعود يراه مرة ثانية . هو الذى كان يراه فى عمق الليالى .

كان يتسلل بعد أن يرفع ساق زينب من فوق وسطه . يقرصها فى فخدها . إذا قامت ينام . دائما لاتنهض . دائما تنام مهددوة كأنها نظفت ورعت العالم ، وليس بيتا صغيرا وثلاثة أطفال . يغطيها ويتجاوزها هابطا السرير . يشعر بنفسه ثقيلا فوق السرير اليقظ الأخشاب مع أنه رفيع كحد الموسى . يقول لنفسه ، إنه حامد الذى لم يبلغ الثلاثين بعد ، يتعثر بثلاثة أطفال تحت السرير . يخطوهم جميعا . ويفتح باب العشة فى لحظة طويلة . ينكمش فى نفسه يكاد يدخل فى بعضه وهو يتطلع إلى الجسر . يرى الضوء الشحيح كدم القلب . يذهب جاريا ولا ينسى أنه يجرى طوال النهار . يقول دائما أن لا أحد يجرى

مثله . حتى جابر الذى يجرى جواره على القضيب الآخر لا يجرى فى نفس سرعته . وزيدان يعمل قليلا ويضرط كثيرا والكل يضحك عليه . وعبد الله رجل مراشي دفع نقودا ليعمل العمل المريح . يمشى وراء القضبان على مهل . وأين هى الأعطاب الكثيرة التى يكتشفها عبد الله كل يوم ؟ إنه فقط يشكو من مطاردة الشمس له فيلعب بعقول الناس . وما الذى يمنع أحدا من أن يستدير ليرى الشمس ؟. ولماذا يريد أن يراها أصلا ؟. لكن لا أحد يقول أن عبد الله دفع فى الزمن القديم رشوة . فالناس تغيرت كثيرا ولم يبق من الأولين إلا أم جابر التى مات زوجها . وهى لا تعرف شيئا فى أمور الرجال . وناظر المحطة نائم دائما وإذا نهض لا يتحدث بشيىء مفهوم . لكنه ، حامد ، يعرف أن هذا العمل المريح الذى يعمله عبد الله لا يحصل عليه أحد إلا برشوة . ويبقى للآخرين رفع القضبان والعوارض ، وحفر الأرض وردمها ، والخروج بالليل لاصلاح الحوادث الكبيرة حين تتصادم أو تنقلب القطارات . والشيخ مسعود لم يره يعمل . لقد جاء إلى المنطقة وقد إقترب أن يحال إلى المعاش . وحين تمت إحالته لم يترك بيته مع أن المصلحة لا تبقى فى منازلها أحد لا يعمل . دفع رشوة هو الآخر فى المدينة حيث المديرين الكبار . « واستكن فى الجامع يصلى وترك اللبؤة زوجته تعلقنى بين الأرض والسماء ». يظل الشيخ مسعود يرتل القرآن ويؤذن ويقول عنه زنديق لأنه كره المكان والعمل والقطار . يقولون أنه منذ غاب أجهضت النساء . لم يبلغ الأطفال . لم ينجح أحد فى صيد . بار العجين ومات الدجاج . لكنه ، حامد ، كان يعرف شيئا واحدا هو أنه يزداد شبقاً إلى هنية كل ليلة وإلى أمها وإلى زوجته زينب ، وإلى شيىء مجهول لن يثنيه عنه أحد ينصرف به عنهن جميعا .

وظل حامد واقفا بالفواريكة فى منتصف العشة . يرى من بابها المفتوح الفضاء الواسع المظلم أمامه ، والجسر البعيد ، وحبات المطر الخفيف . يحدث هنية كانها أمامه . يقول لها أنه لم يحبها قط . لم يحب أمها . أحب زوجته لأنها مربوطة معه فى ساقية الهم . إنه سيترك كل شيىء . ولن ينتظر القطار يسألها إذا لم تكن تعرف ان عرفة صار صديقا لزيدان وان غير عرفة اكثر حرصاً لا يصادقون أحداً. ثم

يقول لها أن هذا أمر لا يجديها . وأنه لن يأتى إليها . فالجرى فى الوحل خطر هذه الليلة . وهى لن تأتى إليه ولا أمها . فالجسر ممتد من ناحية إلى قلب المدينة التى تعشقها هى وأمها . وتعشق الوجوه الغريبة التى تأتى منها كل يوم بكثرة ، الوجوه الفزعة ، مستديرة السير كالدجاج . دائرية النظرات كالقطط . مرتبكة الخطو كالارانب . ويغلق باب العشة . يرى القمامة حوله فى الأركان . ولولا الفواريكة لما رأى شيئا .

أنزل حامد الفواريكة . أمسك سيخا حديديا ، مرره لا يعرف لماذا من بين فتحات قفص الدجاج فاستيقظ فزعا . إرتفعت نقنقته فضحك . فزعت زينب التى كانت فى الحجرة الداخلية . إندفعت خارجة خوف العرس . قابلها فوق عتبة الحوش والفواريكة مرفوعة بين يديه تضيىء وجهه . كادت زينب تقع من المفاجأة . تفلت فى صدرها . إندفع الدم إلى وجهها كنارالفواريكة . كم أحس أن زينب تحبه ساعتها وتخشى عليه . دخلت وراءه . حينما وضع الفواريكة فى منتصف الحجرة نظر إلى أبنائه الثلاثة الملتفين بالخروق . قال لها .

— الليلة نرفعهم فوق السرير .

نظرت إليه فى إستفهام خجول .

— سننام فوق الحصير .

ظلت تنظر إليه .

— الفواريكة ستدفىء الجو .

ظلت معلقة الاستفهام . لم تفهم ما إنتواه حامد وقرر ألا يتراجع فيه حين نظر إلى الفواريكة البيضاء بأسى شفيف .

منذ تلك الليلة وحتى الآن ، حين انتصف الليل عليهم وهم يسيرون ، وأحس أن قدميه لن تحملانه أكثر من ذلك ، وهو مايزال متعلقا بالأمل الذى زرعه فيه جابر ، وكلمات الدليل مازالت مطمئنة ، لكن الجوع يكاد يقتله ، والماء سينفد بعد شربتين ، ولن يستطيع أن يشرب من الحصى دائما !! وما يغيظه حقا هو هذا

الدليل الرفيع مثله والذى لا يعانى جوعا ولا عطشا كأنه قد من قلب الصحراء . سقط حامد فوق الأرض . قال الدليل .

— استريحا إذن . ربما فى الصباح تعود إليكما القوة .

وجعل يغنى . جلس بعيدا وجعل يغنى . لم يفهما كلمة واحدة مما يغنيه بلهجته البدوية . حين رآهما يتمددان فوق الأرض قال .

— لابد من الحفر .

قال حامد .

— سنحفر فى الصباح .

قال الدليل .

— ومن سيوقظكما لتحفرا . قد لا نقوم إلا فى المساء التالى . ثم أن الثعابين تعض بالليل كما تعض بالنهار .

جعلا يحفران . انشب أصابعه هو وجابر فى الرمال ثم جعلا يزيحان أكواما منها إلى الجانبين . شاهدا أظافرهما وكيف طالت . أصابعهما وكيف صارت عظامها بارزة . جابر القوى المفتول الجسد ينظر إلى عظام يده فى حسرة . وكان الدليل قد سبقهما وحفر لنفسه حفرة تمدد بها عاقدا ذراعيه تحت رأسه مستمرا فى الغناء . بدا كمن ألقى كل هموم الدنيا خلف رأسه . صارا فى غاية الضيق وهما ينظران إليه . قال .

— أعلما إنكما ليس أول من يحاول عبور السلك .

لم يردا . ظلا يحفران بإعياء بالغ .

— لكنكما أول من يتعبنى فى الطريق .

قالا معا ..

— الطريق طويل .

قال .

— ليس طويلا على من يريد .

لم يردا . قال .

— آخر ما عبرت به كان رجلا صعيديا وزوجته وطفلهما .

انتهيا من الحفر . وكانت الليلة باردة فأخرج كل منهما من مخلاته التى يعلقها على ظهره وهو يسير دثارا التف به . لم يحفر كل منهما حفرة لنفسه . حفرا حفرة عريضة غير عميقة وتجاوزا فيها . وظل الدليل يتحدث .

قال إنه لم تكن هناك مشكلة مع ذلك الصعيدى وأسرته . كان معه عشرون جنيها هى كل ما بقى له فى الدنيا . أخذها الدليل منه أجرا . طلبها الدليل مقدما فأعطاها له الصعيدى وهو واثق مما يفعل . وواثق مما سيفعله الدليل . قال له أنه يعطيه هذه الجنيهات الباقية من عمل عمره ، ليقطع بذلك كل صلة له بالزمن القديم . وأنه ، الصعيدى ، كان قد قرر فى البداية أن يصل للمدن والموانى الكبيرة . لكنه حين وصل قرر أن يترك البلاد نهائيا ، ويذهب إلى تلك البلاد التى يسمع أن بها جازا كثيرا . والتى عاد منها الكثير من أبناء بلده محملين بالهدايا والمال . وإنه قرر أن يأخذ زوجته معه وإبنه لأنه لن يعود بالهدايا والمال . بل لن يعود أبدا . وأنه يعرف أن الرحلة شاقة . وقد يموتون جميعا قبل عبور السلك . لكنه موقن أن الله لن يتخلى عنهم. إذا جاعوا سينزل عليهم بمائدة من السماء . وإذا عطشوا ستنفجر لهم بئر كزمزم . وإن لم يفعل الله ذلك سيفعل هو .. سيصطاد الطير بيديه ويأكل الثعابين والحيات والسباع والضباع . وإبنه هذا مثل) من إسماعيل بن سيدنا إبراهيم ، فسوف يشق الأرض شقا بقدميه الرقيقتين . وزوجته ليس أضعف من هاجر ، ستقاوم كل عطش وجوع . وهو معهما ولن يتركهما أبدا لكن حية لدغت الطفل ومات خلال دقائق .. حية يسمونها « الطريشة » تعد أخطر الحيات .. فوجىء الدليل ، هكذا قال ، بأن الصعيدى لم يحزن ، بل قال الحمد لله الذى أماته فى أرض غريبة . وكانوا قد عبروا السلك .

بعد ذلك قال أنه اسلم الصعيدى وزوجته إلى أحد المقاولين المصريين فى بلاد الزيت هذه . صعيدى أيضا له شوارب مرفوعة كعلمين . حين قال المقاول له أهلا بالغريب قال الصعيدى أنه ليس غريبا . إنه يمتلك قوة وصحة فلماذا يكون

غريبا ؟ لم يفهم المقاول ولم يفهم الدليل فتضايقا .. ثم قال الدليل للمقاول أنه أعطاه عشرين جنيها فقط ، لكنه يريد عشرين أخرى يخصمها المقاول فيما بعد من راتب الصعيدى . وأعطاه المقاول . وقالت زوجة الصعيدى له وهو يأخذ العشرين جنيها الأخيرة « لماذا لم تلدغك الحية ؟ » فضحك . وقال ان هذه الزوجة أصيبت بالذهول بعد موت طفلها . كانت قبل ذلك كلما أمرها زوجها أن تتقدم تجرى ، لكن بعد موت الولد كلما ناداها كرر النداء كثيرا ، كلما أمرها أعاد الأمر أكثر من مرة فى النهاية جعل يجذبها من ذراعها بقوة لتكون جواره ولا تظل خلفه ، وأنها كانت تبكى بحرقة .

لكن أحدا منهما لم يكن يسمع مايقوله الدليل . كانا قد ناما يغطان بقوة وهو مسترسل فى الحديث . تعجب كيف أنه لم يسمع غطيطهما ، ثم فكر أن يوقظهما ، بل وحاول ذلك فعلا . لكنهما لم يستيقظا . فكر أن يملأ فميهما بالرمال ويعود . لكنه آثر أن يفعل ذلك فيما بعد !. عاد إلى حفرته وقرر النوم . أجل . لم يكن يحس بحاجة إليه . كان ما يزال قويا غير جوعان ولا عطشان . ويعرف أن القوة التى فى جابر وحامد هى الرمق الأخير للروح وأنه لن ينتصف نهار الغد إلا وقد أسلما هذه الروح .

ظلت الليلة الأخيرة لحامد قبل إختفائه لا تضيع من ذهنه .خاصة رؤاه فيها . فى تلك الليلة رفعت زينب الأطفال فوق السرير كما أمرها ثم جلست فوق شلته على الأرض أمامه وقد توسطتهما الفواريكة . وضعا أياديهما فوق النار . دلك كل منهما كفيه . أعادا وضع الأكف فوق النار . رفع كل منهما كفيه إلى وجهه يدفئه . قالت .

— هل صحيح أن الذى يسير وراء قطارات الخواجات لا يعود ؟

لم يرد . وضعت إحدى يديها فى صدرها . تراجعت . أفسحت ما بين ساقيها

قليلا . بدأت اللعبة المرهقة الجميلة .

كان حامد يعرف أنها تريده وحدها . وكان هو يريدها ليلة لا تمحى علاماتها . عيناها النجلاوان خبا بريقهما . صار وجهها يشف جلده عن العظام . عنقها صار كعنق فراريجها . بطنها ترهل . زينب خمرية الجبل ، طفرة الطبيعة التى أحصت معه عوارض السكة الحديد فى رحلة القوت ، صارت كذراع عربة المفتش ، وآه من المرأة حينما تكون كذراع عربة المفتش . تلسع كالسوط . تنهج فلا تعرف ما إذا كان ذلك شبقا أم صدرا مأزوما . قال لها فى تلك الليلة .

— إنت فرحانة ..

قالت بهدوء ليالى الشتاء وحزنها .

— طبعا . القطار سيأتى بعد غد .

قال فى نفسه « لكننا مانزال نلف ابناءنا بالخروق . كنا كذلك وسنظل كذلك ، ويبدو أن هناك قدرا بحق . »

سمعت طرقات عنيفة سريعة على الباب . نهض بسرعة . فزعت زينب . لم يكن الليل قد انتصف بعد . لكن ليل الشتاء يبدأ من المنتصف دائما . والشتاء بكر هذا العام . وخوف زينب بكر معه . أمسكت يده فى ضراعة . نفضها عنها . سكنت ذليلة . ظلت زينب فيما بعد لا تنسى ذلك . خرج هو وفتح باب العشة . دخل جابر خطوة واحدة وتوقف .

— أدخل يا جابر .

— لا داعى .

كانا بالكاد يريان بعضهما ويسمعان نقنقة الدجاج . قال جابر الذى يلهث مبتلا بالمطر .

— لقد أعددت نفسى . سنخرج قبل العمال بقليل . لا تنسى الخطاب الذى أعطيته لك . الخطاب الذى أرسله مسعد . إنه دليلنا فى الرحلة . لا تقل شيئا لأحد .

أراد حامد أن يتحدث فبادره جابر الذى كان يتكلم فى سرعة وخوف غريبين .

— لقد قررت . اليوم أفضل من الغد . لا تتراجع .. لا تأخذ شيئا يلفت النظر .

انفلت جابر عائدا بسرعة.عاد حامد ليقف وسط الحوش لحظة يفكر . لماذا أمسكت به زينب فى توسل ؟ أتكون تعرف ؟ أم تراها ظنت سعاد مثل كل النساء ؟ هل كانت تشعر به وهو يتسلل كل ليلة .؟ لم يبد عليها ذلك . لكن لماذا نفض يديها بهذا العنف ؟ أيكون كرهها ؟. ودخل الحجرة فابتسمت له فى تكلف وخوف . قال وهو ينظر إلى الأرض .

— لتعدى لنا شايا ثقيلا مرا .

بعد أن هدأت نيران الفواريكة وكسا جمرها الرماد صارت الحجرة كقلب فرن . صارت زينب دافئة كصاج الفواريكة الأملس . وقفت تتمايل كما لو كانت شربت قدحا من العرق الذى يسقيه له أبو هنية . قالت .

— الكوك يسطل .

قام ليقف أمامها . رفع عنها جلبابها . ما كاد يخلعه عن رأسها حتى رأى الدموع فى عينيها . أخذها من خصرها . ضمها بقوة حتى خالها ستنقصف كعود الحطب . سرت النار بينهما برغبة مجنونة . تمزقت الأسمال الباقية . تلوت زينب فوق الحصير فى ألم حقيقى . لكنها لم تتركه لحظة واحدة . انشبت أظافرها فيه وأسنانها.اصطدمت أقدامها بالفواريكة المنطفئة الجمرات فانقلبت . انسل برق من الكوة الزجاجية الصغيرة أعلى النافذة فانكشف كل منهما للآخر خطوطا من العرق والدم . رأى أم هنية تدور مع زينب لحظة . هنية لحظة أخرى . الثلاث معا . الرجل العجوز أبو هنية يعب العرق ويتساقط على الأرض رخوا وتتساقط أسنانه النخراء على صدره . طار ذيل جلباب سعاد فوق السطح كما رآها أول مرة . انكشفت له ساقاها لدنتان تبرقان . رأى سروالها الدانتيللا الأسود الذى أقسم يومها أنه الوحيد الذى رآه من السكان جميعا . بل حتى الشيخ مسعود لم يره مثله . رأى نفسه وقد تعذب بها ، ثم حين وصل إليها فإذا به يتعلق فى الفضاء لا يعرف

هل يتقدم أم يتراجع . لعن الشيخ مسعود وكلماته . المفتش وعربته . الصيف والقطار . البحيرة والخوابات . ودخل الحجرة برق آخر شديد فرأى صاعقة قادمة من فوق الجسر بعد أن احرقت من عليه . رأى هنية تجرى وأمها والنار مشتعلة بهما ، حتى إذا ما وصلتا إلى البحيرة ، سقطتافيها فغلت مياهها وعلا بخارها ، وطارت منها قذفة لهب طالت أبا هنية ، فصار يجرى مجنونا على الجسر حتى سقط فى الجهة الأخرى من البحيرة ، فطش فى الماء كمن سقط فى زيت مغلى . وانقذفت من حوله الشواظ أشعلت نبات الحلفاء . وصار السمك الذى كان ميتا طوال العام بعد إنقطاع القطار يقفز فوق الماء قفزات هائلة إلى السماء ويهوى متفحما . كما صارت الطيور النائمة وسط النباتات تطير مشتعلة صارخة تشتجر فى عراك رهيب فى قلب الفضاء السحيق ، يلهبها البرق فتهوى محترقة فى الماء كالشهب . ثم ترصدته الشمس فرأى نفسه واقفا وحيدا تحتها وسط صحراء واسعة ، وجابر مربوط فى صارية أعلى جبل تنهش النسور من قلبه وهو واقف يصرخ من رؤية طوابير العقارب التى تقبل عليه من كل ناحية ، ثم سبقتها ثعابين طويلة.وأحس بقدميه تغوصان فى الرمال شيئا فشيئا حتى لم يبق منه غير رأسه فوق الأرض ، وثعبان ضخم يقترب منه يسبقه لسانه . وكانت أشعة الشمس قد حميت فأيقظت جابر الذى لم يستطع أنْ تتحرك . ففى الوقت الذى رأى فيه حامد مارآه الليلة الأخيرة قبل الرحيل ، كان جابر يرى العام الذى مضى كله وكيف كان . لكنه حين استيقظ خائفا وجد شيئا ثقيلا فوق بطنه . نظر فلم يستطيع أن ينهض.أحس بأن هذه هى النهاية التى غابت عن ذهنه طويلا .. لم يفكر أن ينادى الدليل أو يصرخ . إنه لا يعرف فى الدنيا غير حامد رفيق شقاءه ورحلته . وخذه بيده وهو يسمعه يخور كالثور ، ففتح حامد عينيه وتنفس نفسا عميقا بدا فيه أنه إرتاح وانعتق من تلك الرؤيا المرعبة . لكن جابر أشار إلى بطنه فنظر حامد ليجد ثعبانا ضخما طويلا يعبر فوقهما .

قال الدليل لهما فى بداية الرحلة ، أنه إستطاع أن يهرب ألف مصرى عبر السلك ، فهو يحصى من يقوم بتهريبهم دائما ، وسيبدأ بهما الألف الثانية ، ومن ثم لا يجب أن يخافا فهو يعرف كل نقاط الحدود السهلة والصعبة ، بل أنه على علاقة طيبة مع رجال الحدود من الدولتين .

قال لهما المهرب الكبير « هذا دليل ثقة ما جئت به إليكما إلا أنكما خدمتمانى كأحسن ما تكون الخدمة . والآن هل تذكران شيئا مما حدث ؟ » . قالا « لا » . قال « هل حدث شيى أصلا ؟ » قالا « لا » قال « ألم يمر العام بسرعة ؟ » قالا « أجل » .

قبل أن يبدأ هذا العام الذى يحدثهما عنه كان قد قال لهما « لأرى الخطاب الذى معكما » وضحك . ثم قال « من هو مسعد صديقكما ؟ » وأغرق فى الضحك بجنون ثم تساءل « أين طابع البريد ؟ » وشرب بشراهة من زجاجة ويسكى أمامه . قالا « لقد أرسله إلينا مع « الأبونية » فى أحد القطارات » نظر إليهما فى قرف . قال « وهل تأتى القطارات من الدولة التى تريدان الهرب اليها . كيف أنكما أحمقان ؟ » .

اسقط فى يدهما . فهذا الرجل الذى قابلاه فى هذه المدينة الكبيرة بالقرب من الحدود يبدو يعرف كل شيىء . إنه يقول لهما شيئا لم يدركاه . فليس بالخطاب عنوان لمسعد ، ولاإسم لمكان العمل الذى يعمل به ، ولا البلدة التى يعمل فيها فى الدولة الأخرى . كيف لم يدركا ذلك ؟ . وماذا يفيدهما إذا كان بالخطاب إسمه الكامل ؟ ومن فى هذه الدنيا الواسعة سيعرفه ؟. قالا « إذن نعود من حيث أتينا » . ومد حامد يده يأخذ الخطاب من الرجل الذى طواه ووضعه فى جيبه وقال .

ـــ لا داعى للعودة .. لقد قررتما شيئا لابد أن تكملاه . هكذا يكون الرجال ..

بدا عليهما الارتباك . قال .

— أستطيع أن أعبر بكما السلك إلى الدولة الجديدة . لكن لى شرطاً واحداً
قالا معا .
— ما هو ؟
قال
— هل تعرفان قصة النبى موسى مع النبى شعيب .
قالا .
— أجل .
وكانا سمعاها كثيرا من الشيخ مسعود . قال
— تعملان عندى عاما كاملا . أجركما يكون بعد هذا العام أن أنقلكما إلى أعظم آبار البترول .
قالا
— هذا عقد ظالم ..
قال بعنف .
— أظنكما تعرفان أن النبى موسى عمل أكثر من عام وكان أجره أن يتزوج إبنة شعيب . أنا أطلب منكما عاما واحدا ستكسبان بعده ما يزوجكما نساء الدنيا كلها إن أردتما . ثم انكما اثنان وموسى كان واحدا . وأكثر من ذلك لماذا لم تسألانى ما هو العمل ربما يرضيكما ..
قالا ..
— ما العمل ؟
قال
— ستأكلان وتشربان ما شئتما فطاقة المعدة محدودة . إن شئتما نساء فستجدان . ان شئتما خمرا ستجدان . المهم أن لا تتكلما ولا تشتركا فى حديث وتنسيان ما قد تريان أمامكما .

كانا فى حيرة.صمما على أن يقطعا الرحلة إلى نهايتها .. قالا ..
— أنعمل عاما كاملا ؟
قال

— بلا نقصان .
قالا .
— موافقان ..
احسا بأنهما يحرقان السفن . بدا العالم خلفهما وأمامهما كذبة كبيرة قررا مواجهتها . قال جابر ضاحكا ..
— يبدو أن جرينا بعربة المفتش حبب لنا الجرى فى البلاد ..
أحس أنه يخدع نفسه .

نقلهما الرجل إلى فيلا وحيدة وسط الصحراء بعيدا عن المدينة التى قابلاه فيها . قال لهما بعد أن دخلا خلفه .
— كونا على يقين أن الله نفسه لن يرحمكما إذا أفسدتما العقد . ولا قوة فى الأرض تنجيكما منى . ولابد أن تعرفا جيدا أنه لا دين لى ولا أخلاق .

بدا لهما كذلك فعلا . قصيراً سمينا ، طويل السوالف أمام الأذن ، مسترسل الشعر فى غباء ، ملغود العنق ، كثير لحم الوجه ، صغير العينين ضيقهما ، كثيف الحاجبين .

لم يستطيعا أن يشاهدا المدينة التى قابلا المهرب فيها جيدا ، فلقد إلتقيا به مصادفة نفس يوم وصولهما وكان هدفهما أن يسألاه كيف يمكنهما الوصول إلى مسعد . مجرد سؤال كما يسأل الغريب .

لبثا فى الفيللا الغريبة التى نقلهما اليها عاما كاملا لا يخرجان . يأكلان ويشربان كل ما اشتهيا فى حياتهما . فالفيللا المكونة من طابقين أحدهما تحت الأرض ، لم تكن للسكنى . كانت مكانا سريا تحاك فيه الإتفاقات المريبة . فى نهاية كل أسبوع كانت تأتى إليها العربات الفخمة تهبط منها أجمل النساء . ورجال يبدو من هيئتهم أنهم عظام . فهم يرتدون ملابس فاخرة يفوح منها عطر مبهر ويتبادلون النقود على المناضد الصغيرة أمام كروشهم بلا عدد أو حساب .

يتم بعد ذلك إحتفال تنتشر فيه سحب الحشيش ورائحة الخمر . يصعد الرجال بالنساء إلى الطابق الثانى والمهرب الكبير الذى عرفا الآن عنه ذلك ، يظل جالسا فى ركن من الدور الأرضى ومعه بعض تابعيه . يحصى نقودا كثيرة ويضعها فى حقائب سوداء .

ينفض الحفل الذى تعلما دورهما فيه جيدا . ولم يكن يزيد عن إعداد المكان وترتيبه وإحضار الطعام الذى كان المهرب الكبير يحضره جاهزا من المدينة ويقومان هما بتقديمه فقط مع الخمر . وعلمهما كيف يمسكان الجوزة ذات الغابة الطويلة ويقومان « بتكريس » الحشيش تحت أقدام الزوار .

بعد رحيل الجميع تأتيهما عجوز سوداء عجفاء . تخرج من غرفة مغلقة تدخل إليها قبل حضور الزوار ، ولا تخرج منها إلا بعد مغادرتهم المكان . هذه العجوز هى التى كان مقدرا لهما أن يلهوا معها . فطساء الأنف عوراء بيضاء الشعر ساقطة معظم أسنانها ، نفرتهما من جنس النساء فلم يقربا منها رغم غنجها القبيح . وكانت تغادر المكان دون كلمة . يران عربة جيب صغيرة تأخذها من أمام الفيللا . واستمر الحال شهرا على هذا المنوال . أقيمت فيه أربع حفلات أسبوعية وعافا العجوز أربع مرات .

فى المرة الخامسة خرجت من الحجرة بعد الحفل وخلفها أربعة رجال سود أشداء صلاب . لم يكونا قد شاهدا العجوز وهى تدخل هذه المرة ولا هؤلاء الرجال . جلسا بعد الحفل وحدهما يفكران فى الزمن الجميل الذى مضى . لم يكن ممكنا أن يستمرا على هذه الحال. لكن لم يعد ممكنا الاتفاق.فوجئابالمرأة أمامهما وخلفها الرجال السود . كان فى يد كل رجل سلسلة معدنية رفيعة وطويلة . من كان يرى هذه السلاسل لا يصدق أبدا أنها تمزق لحم الإنسان . لكنها مزقت لحمهما . كانت أربع أياد ضخمة تتهاوى عليهما بأربع سلاسل رفيعة ، ولم يكن لهما ملاذ إذ أحكمت حولهما الدائرة يحوطها الرجال . علقوهما بعد ذلك فى السقف . لم يكن أى منهما قد رأى الخطاف الذى يتدلى من السقف والذى تم

تعليقهما فيه معا وبحبل واحد يحيط بأقدامهما . الأضواء التى تنبعث فى الصالة الكبيرة من الأركان جعلتهما لا يفكران فى أن ينظرا إلى السقف . وحين تم تعليقهما بدا وكأن الخطاف قد جعل لهما أصلا .

كانا معلقين عريانين . ظلا كذلك خمسة أيام . العجوز تأتيهما كل مساء بالطعام . تطعمهما وهما فى هذا الوضع المقلوب . بعد الطعام ــ الذى يتناولانه بشراهة شديدة ويبذلان جهدا كبيرا حتى لا يسقط من الفم ــ تضع العجوز عصاة خيزران فى إست كل منهما مرة . لا تنتهى إلا بعد أن تسمع صراخهما تهتز له أركان المنزل . تعود إليهما فى مساء اليوم التالى . يكونان فى حالة من الجوع عظيمة . تفعل ما فعلت بالأمس .

لم يعرف أى منهما لماذا التهبا شبقا بالعجوز بعد ذلك . هل هو الخوف أم رغبة فيها حقا ؟. كل ما عرفاه أنهما صارا ينتظران الأسبوع بسرعة حتى يتم الحفل وينفض ، ويفرغان للعجوز . لم يعودا يهتما بالصفقات التى تعقد . بل ولم تعد النساء الجميلات تثير فيهما رغبة . وحين إنتهى العام قال لهما المهرب الكبير .

ــ هل تذكران شيئا مما حدث ؟

قالا .

ــ لا .

قال .

ــ ألم يكن خيرا كله .

قالا .

ــ كل الخير .

قال .

ــ ها هو الدليل الذى سيعبر بكما .

زودهما ببعض طعام وماء . وتردد قليلا ثم أعطاهما قليل نقود .

كان جابر قد رأى ذلك كله قبل أن توقظه أشعة الشمس بقليل . حين إستيقظ ورأى الثعبان يمر فوقهما لم يدر ما إذا كان حقيقة أم كابوسا . لقد تواترت رحلتهما كلها فى صور بشعة وهو نائم . لكنه تأكد أن الثعبان حقيقة فأيقظ حامد الذى لم يعرف هو أيضا ما إذا كان هذا الثعبان حقيقة أم استكمالا لما كان يراه . لكن الثعبان كان ثقيلا على بطنهما . أيقنا أن الأمر حقيقى . بان الفزع على وجهيهما . تذكرا ما قاله لهما الدليل . كتما أنفاسهما . أحسا بالأسف لأنهما حفرا حفرة واحدة عريضة وغير عميقة . لو حفر كل منهما حفرة واحدة وعميقة ربما تجاوزهما الثعبان دون أن يحس بهما . لكن الثعبان الطويل الضخم لم يفكر فيما يبدو فيهما . كان يعبر فوقهما فقط . وكان عبوره بطيئا حتى لتخيل كل منهما أن قطارا يمر عليه وليس ثعبان . كان رأس الثعبان قد تجاوز حامد وذيله لم يتجاوز جابر بعد . بدا لهما أصفر زاهيا . وبطول جسده خطوط سوداء لامعة . كانت أشعة الشمس كأنما تتركز عليه ، فلمع فى عيونهما مقززا بشعا . خاصة وأنهما سمعا فحيحه عاليا ، وشاهدا رأسه يتحرك شمالا ويمينا ويطير الهواء الخارج من الفحيح الرمال أمامه . ثم شاهدا لسانا عجيبا يخرج من فمه . لسانا ينتهى من الأمام بطرفين يزيد طول كل منهما عن الشبر . وكان بلسانه يلعق أشياء لايرانها .

فى تلك اللحظات النادرة تذكر حامد زينب . ابنة الطبيعة البكر الطيبة . أطفاله الثلاثة الملتفين بالخروق . رثى لها إذ يموت زوجها بعيدا عنها . عرف كم تكون القسوة بشعة حين تصير عادة . كم ذاقت زينب المسكينة من قسوته .

رأى جابر أحد طرفى لسان الثعبان كالخيط الذى تعثرت أمه فى إدخاله إلى سم الابرة . تذكر عينيها الضيقتين ، الساقطتين خلف تجاويف الجلد ، وغلب بياضهما على السواد الذى صار حائلا أصفر . لا يعرف جابر لماذا تضيع دائما من مخيلته صورة أمه وهى شابة ؟ لماذا لايذكرها إلا وهى عجوز ؟ يعرف أن أمه كانت شابه مثل كل النساء . لكنه لا يستطيع أن يراها على غير صورة العجوز المحطمة .

تذكرا الدليل أخيرا بينما كان الثعبان يكاد ينتهى من العبور فوقهما . سمعا شهيقا غريبا قادما من بعيد . دارت عيونهما ناحية الصوت . الدليل يميل على غزالة من الخلف ، وقد انحنى بوسطه الأعلى فوق ظهرها ، وأمسك بيديه فى قرونها بقوة . غزالة صغيرة غامقة الصفرة تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف فى فزع ، وكان الدليل القوى الذى ثنى ركبتيه ووقف على أطراف أصابع قدميه وثبتها فى الرمال ، ممسكا بها بقوة ، ولا يعطيها فرصة الهرب .

عبرهما الثعبان فقاما على الفور . لم يفكرا أن الثعبان قد يشعر بهما فيعود ويدركهما.أسرعا ليمسكا بالغزالة مع الدليل . إنها أيام من الجوع . انستهما الغزالة هول الثعبان . حين وصلا إلى الدليل . ترك الغزالة التى إنطلقت كالريح ووقف يلهث .

لم يكن ماهو أمامهما شيئا فكرا فيه من قبل أو دار بخلد أى منهما . سمعا كثيرا أن بعض بدو الصحراء يعاشرون الإبل والماعز والحمير . لكن لم يكن ذلك شيئا يمكن أن يبقى فى ذهن أحد . كان الدليل واقفا أمامهما . كان جلبابه منحسرا فوق وسطه من الأمام . ولسانه يتدلى إلى الخارج كلسان الثعبان ، بينما تدورعيناه بخبث شديد فى كل إتجاه وفوق وجهه ابتسامة صفراء غريبة . وسقطت أشعة الشمس على وجهه فوجداه عدوا لئيما قديما أدركاه بعد طول عناء ....

لم يدر أى منهما ماذا حدث بالضبط فى تلك اللحظات . غير أنهما بسرعة أوقدا نارا ببعض شجيرات جافة بعد أن حفرا لها حفرة مناسبة . جعلا يشويان فوق النار بعض اللحم . كان أول ما شوياه هو القلب ، ثم الكبد . كان ذلك كافيا بعد أيام الجوع . وشربا ما معهما من ماء دون إقتصاد .

أخذا فخذا واحدا فى مخلاة جابر الذى نقل ما بها الى مخلاة حامد . لم يكن باستطاعتهما حمل ما تبقى . تركا بقية جسد الدليل للطير

والوحش والثعابين والحيات . إستأنفا المسير وحدهما ، ولم ينتظرا قنوم الليل !..

لم يكن أى منهما يعرف أن الدائرة لابد أن تنته ، وأن الدورة لابد أن تتم ، ويختم عليها بأقفال الابد . الآن لابد أن يفتشا عن أصل البذرة . وأن كان هذا أيضا لا معنى له .

هل فكرا جيدا قبل الرحيل ؟.

ما يعرفه كلاهما هو أنهما التهبا نارا . وكيف كان يفكر ذلك الملتهب ؟

لو فكرا هل كانا قد عدلا ؟

كان ذلك ضربا من المستحيل . كل تفكير أوغلا فيه وصل بهما الى قلب دائرة النار . يعرفان أن النار تنتصر دائما حتى حين تنطفىء وتخمد أنفاسها . الفواريكة ، تلك الآنية التى لاقيمة لها ، حين كان جمرها تشف نيرانه ، ثم تخمد كل طاقة فيه وتموت، كان ذلك يستغرق معظم الليل. ويصبح على الكون كله أن يستجمع كل مابه من طاقة برد . أن يستدعى السحب المبعثرة فى كل مكان تحت السماء ، والريح الشاردة والمطر ، وتتكاثف كلها فى مؤامرة دنيئة غير عادلة ، وتجثم على المكان فى تصميم أعمى وغشوم ، لينهزم الجمر وينداح الدفء بعد أن تخمد النيران . وهكذا فان نيران إناء قذر لا معنى له ، له إسم لا يعرفون مصدره ، كانت هزيمته تحتاج قوى الكون جميعا ، ويستغرق هذا معظم الليل إن لم يكن كله . كيف كان للفكر اذن أن ينتصر ؟.

وهما الآن يفكران حقا . لكن بعد أن عجزا وشاخا . بعد أن نخر الوهن عظامهما ، وابيض شعر الرأس ، وتغضن جلد الوجه والفخذين ، وهدأت الحركة ، وزاغت النظرات وتخدرت الأذرع .

لم يكن أى منهما يتوقع أنهما سيكونان منطرحين هكذا فى ركنين متباعدين فى

بدروم الفيللا القائمة وسط الصحراء من جديد . فى السقف أمام عيونهما يبرز الخطاف الحديدى اللعين، فى أحد الأركان العصا الخيزران التى لاطتهما بها العجوز . على الأرض سجاد فاخرا داسا عليه من قبل عاما كاملا . من الجدران تنبعث الأضواء الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء التى تلتقى فى بؤرة الصالة ، فتعطى ضوءا كلون البحيرة عند الصباح حين تشتعل فوقها الشمس وهى تصعد ، وكلون الصحراء عند الغروب حين تختنق الشمس عند الأفق وهى تسقط .

كل منهما ينظر إلى الآخر منذ ساعة تقريبا ولم تنزل نظراته بعد . ولم يكن هذا هو اليوم الأول لهما . مرت بهما أسابيع لا يعرفان عددها . قال لهما التاجر الكبير حين قابلهما هذه المرة « سوف تعرفان كم ستمضيان هنا من أيام حتى تعودان إلى موطنكما » وكل يوم كان يقول لهما ذلك . لكن بلا مبالاة كأنه ميت يتحدث . أحيانا كان ينظر إلى عيونهما طويلا . حين يغمضان أمام نظراته الغريبة يتحدث . ولاحظا أنه هذه المرة لا توجد عجوز ولا سهرات صاخبة . قالا .

— ماذا سنفعل هنا ؟

قال

— لا أعرف . لكن لا أستطيع أن أترككما إلا بعد فترة مناسبة .

فى البداية تصورا أنه يعاقبهما على قتلهما للدليل . عرفا أنه يعلم كل شىء ، فحين قابلهما قال .

— أهلا بالسعار .

لم يفهما الكلمة . نظرا إليه فى استعطاف بالغ . قال .

— أهلا بالكلبين .

خافا . كانت ملابسهما ممزقة سقط معظمها . وأكثر جسميهما باد . العظام نائة . ذقن كل منهما طويلة تصل إلى صدره . شاربه يتهدل الى الجانبين فى طولى

مفزع ، فى الوقت الذى سدت إذنى كليهما الرمال . أما شعر الرأس فكان متجعدا مغبرا بطريقة توحى أنه لاسبيل إلى تنظيفه أبدا . والأقدام متورمة بشكل جعل كليهما يشعر أنه يجر عارضة من العوارض التى توضع تحت القضبان ، فضلا عن البثور التى انتشرت بها ، والشقوق التى ملأت باطن القدم ، ولم تفلح الخروق التى مزقاها من ثيابهما ، أن تمنع دخول الرمل إليها .

لم يتخيل أحدهما أنه سيعود ليقابل هذا المهرب مرة ثانية . أقصى أمانيهما بعد أن قتلا الدليل وتاها كان الموت . ظلا شهرا يدوران على غير هدى ، ومعهما فخذ الدليل التى قددتها الشمس فلم تتعفن . فى البداية كانا غير قادرين على أن يأكلا منها . حقا أنهما أكلا القلب والكبد بسهولة . لكن تلك كانت لحظة منسلخة عن حدود العقل . بعد ذلك أدركا أن ما فعلاه غير إنسانى . بدا كل منهما يخشى مرضا لم يعرفاه وان سمعا به . سمعا كثيرا وهما صغيرين ، الحكايات الغريبة عن الناس الذين يأكلون لحوم البشر . وعن المرض الذى يصيب أولئك الناس فترى الواحد منهم يتكلم كأنه ينبح . يغنى كأنه يموء . تستعصى أظافره على التهذيب . ينمو شعر داخل فمه . يتدلى لسانه وتستطيل أذناه . يزداد عموده الفقرى طولا فيظهر له ذنب .

كانت هذه الحكايات تخيفهما وهما صغيرين . وصار كل منهما يتذكر حين بدءا يقطعان قطعة من فخذ الدليل للمرة الأولى ، كيف ركز كل منهما ذهنه فى شيىء آخر وأكلا .

تذكر جابر أباه لأول مرة . أبوه هو الذى حكى له ولأمه عن الذين يأكلون لحوم البشر .

عاصر أبوه أياما كان يسميها أيام السلطة . وقال لهما أنه حين إقترب من سن

التجنيد حاول أبوه — جد جابر — أن يهربه بأى طريقة . وأنه سمع أمه — جدة جابر — تقول لأبيه،لو كنت جعلته يحفظ القرآن . لكنه نهرها وقال لها « وماذا سيفعل بحفظ القرآن ؟ . سيعفى من الجهادية ، لكنه سيحرم من أى عمل سوى تلاوة القرآن . وأنا لاأحب لأبنى أن يتوقف عشاءه على ميت يموت أو حلقة ذكر تقام » .

فكر الجد فى أكثر من وسيلة . أن يقطع الإصبع السبابة لابنه — أبو جابر — لكنه عدل عن ذلك لأنه عرف أن قطع السبابة لا يعفى من الجهادية . بل سيأخذون الولد ، ويوكلون إليه أعمالا دنيئة . رفض الجد أن يحرم إبنه من شرف الجندية ، فى الوقت الذى يكون فى قلبها . فكر بعد ذلك فى أن يضع الكوبيا فى عينيه . لكن الجدة صرخت وقالت تمنعه من حفظ القرآن وتجعله أعمى !. كيف ؟ ولطمت خديها . وظلا طوال الليل يبكيان .

أما أبو جابر فلم يبك مثل أبويه . فقط كان يفكر فى « طوكر » التى سيأخذونه اليها كيف تكون ؟. وهل هى فعلا كما يقول أبوه بلاد حارة شديدة المطر ؟ هل هى فعلا بلاد السخرة والعبيد ؟. هل أهلها لهم ذيول حقيقية ؟ هل يأكلون حقا لحوم البشر ؟. وكان خائفا .

قال لنفسه لو أخذوه وأرسلوه إلى الشام كما أرسلوا أباه من قبل حين كان الانجليز يحاربون الأتراك . كان أبوه فى الأربعين فى ذلك الوقت لكنهم أخذوه من القرية بالقوة . وكان زملاؤه يقولون له أنهم محظوظون لأنهم أرسلوهم إلى الشام ولم يرسلوهم إلى بلاد الخواجات كغيرهم . وكان أبوه يهرب أسلحة الإنجليز للاتراك . أسلحة الكفار للمسلمين . وأبو جابر يقول أنه كان يتمنى لو أخذوه الى الشام مثل أبيه فيفعل مثله تماما. يهرب اسلحة الكفرة الى المسلمين . لكنه كان يضحك ويقول « هذا رغم أنى لم أكن حتى ذلك الوقت أعرف أولئك من هؤلاء . ولم أكن قد تركت قريتنا المعلقة فى بطن الجبل يوما قط . لم يأت إلها إنجليزى أو تركى ، ولا حتى ملك البلاد . ولا أعرف من أين عرفوا أن لأبى أبنا هو أنا يحق عليه التجنيد .

تذكر جابر أن أباه لم يتم الحكاية . ولم يعرف منه ما إذا كان ذهب الى طوكر أم لا ؟ ما إذا كان رأى أكلة لحوم البشر أم لا ؟ لكنه ظل يعرف أن هناك بشرا يأكلون لحوم الناس . وهو الآن قد صار منهم . أى دورة تلك التى تدورها الأيام . كيف إنتهى به السعى إلى ذلك . أهكذا يكون عقاب الذى إرتاح لنداء القلب ؟.

فكر جابر أيضا فى خطابات مسعد وكيف كانت كلها مؤامرة . مسعد نفسه كان مؤامرة . إنه شخص لم يعرفه كثيرا . كان يصطاد فى البحيرة قبل إنقطاع القطار وعرفه على شاطئها . لم يعرف من أين هو ولا ماذا يفعل . كان فقط يراه كل عصر . وحين يجن الليل يرى مسعد يركب زورقا صغيرا بعد أن يضع فى داخله الشبكة والأسماك ويجذف متجهات إلى منتصف البحيرة . لم يعرف إلى أين يذهب بعد ذلك . يراه يقطع البحيرة ويتضاءل حجمه فى عينيه . ثم يشف فيصبح نقطة صغيرة ما تلبث أن تختفى كأنما ابتلعتها البحيرة فجأة . وعلاقتهما لم تزد عن ثرثرة حول الأسماك ومواسم الصيد وأنواع الطعم . ظل الأمر كذلك حتى باغته مسعد وقال أنه لن يراه ثانية هنا . فهو ذاهب إلى بلاد جديدة تفجرت بالنفط منذ زمن . وأن الناس تهرب إليها من الجوع ، ويتحول النفط فى أيديهم الى نقود بلا عدد . وأنه حين يصل هناك سيراسله وسيجد له مكانا وسيقتلعه اقتلاعا من هذه الحياة الميتة التى يعيشها وهى بئر مظلم لا قرار له ولا يدرى .

كانت عيناه لا تزالان معلقتين على حامد الذى يقول لنفسه أنه لم ير مسعد فى حياته . وأنه صدق جابر وما كان له أن يمشى وراء سراب . لقد عادا مرة ثانية إلى المهرب الكبير ولولا ذلك لماتا ، وربما أكل أحدهما الآخر ، فحامد لاينسى أنه بعد أن نفدت الفخذ ، وبعد أن تبددت قوته الباقية فى محاولاته التحكم فى معدته كى لاتقفز من فمه ، وحين عضهما الجوع من جديد ولم يعودا يقابلان آبارا بعد بئر قذرة أنقذتهما أياما بعد أن نفدت مياهما الباقية التى شرباها حين انتهيا من أكل القلب والكبد ، ثم نفدت المياه العفنة من جديد ولم يعد هناك لعاب تثيره قطعة الحصى الناعمة ، فألقى بها فى عين الشمس ، لا ينسى أنه كان يفكر كثيرا فى

جابر . كان يتكلم فيسمع صوته كأنه نباح . ويسمع أنفاثه كأنها لهاث . ولاحظ بحة صارت فى صوت كالحشرجة . وأنه صار يخرج لسانه بين كل كلمة وأخرى ، وتبرز عيناه ، ويتلفت كثيرا مشنفا أذنيه ، وحين كان جابر يبتعد ليتبرز يراه يقفز على يديه وقدميه معا سعيا وراء شيىء جاف يمسح به مؤخرته . ذلك القفز كان يخيفه . ويفكر أنه لابد يفعل كما يفعل جابر . ولابد أنه ينظر اليه نفس نظرته . وقرر فى قلبه أن أحدهما لابد آكل للآخر . لكن ظهرت قافلة الأعراب فأنقذتهما . ليتهم ماظهرواأولئك الأعراب . ليت أحدهما أكل الآخر ومات الثانى تحت الشمس .

حملهما الأعراب على ظهر جمل إلى نجع لا يعرفان موقعه فوق الأرض . قدموا اليهما الماء والطعام . لاحظا إنهما لا يستسيغان الطعام ، لكنهما أكلا . ومنعوهما عن الاستحمام لقلة الماء . ومنعوا النساء من النظر إليهما . بعد ذلك نقلوهما إلى المدينة اللعينة التى قابلا بها المهرب أولمرة . كانت فرحتهما غامرة حينما عرفا بذلك . لكنهما وجدا دليلهما فى العودة ، وكان قد اصطحبهما على ظهر جمل أمسك بطرف الحبل المربوط حول عنقه وسبقهما راكبا جملا هو أيضا ، وجدا هذا الدليل يقف أمام الفيللا التى أمضيا بها عاما من قبل . قال لهما « ستراتاحان هنا الليلة وفى الصباح نعيدكما إلى دياركما » لم يستطيعا المقاومة أو الرفض . بعد أن تركهما كان أول ما فكرا فيه أن الدليل الذى عاد بهما وصل بسرعة ، ولا يمكن أن يكون للجمل فضل فى ذلك ، فالأمر لم يستغرق الا بعض يوم .. ماذا فعل الدليل الأول بهما إذن ؟ لكنهما انشغلا بأمر الغد . فالفيللا كانت خالية . والدليل أغلق بابها من الخارج . وفى منتصف الليل دخل اليهما المهرب الكبير .

لم يفكر أي منهما أن يغير من وضعه. يبدوان وهما منطرحان في الركنين المتباعدين كأنهما شيئان مهملان. وحتى الآن منذ يوم عودتهما الأول لم يصلا إلى اجابة شافية عن سؤالهما لماذا يحتفظ بهما

المهرب ، شكا لهما فى الأيام السابقة رقة حاله وانقلاب الزمان به . تغيرت الأمور كثيرا بعد رحيلهما . هكذا قال . قامت حرب طاحنة بين الدولتين . وتعجب كيف لم يعرفا ذلك . كيف لم يشاهدا آلات الحرب وهما تائهان فى الصحراء . ذلك كان سيتقذهما بالتأكيد لأنه يعنى التقاطهما . لكن هذا ماحدث على كل حال . انقطعت بسبب الحرب سبل التهريب . وعلى طول الحدود — التى لم يصلاها — تدور معارك ضخمة بين القوات العسكرية من الدولتين . على طول محطات القطار حتى المنطقة التى كانا يعيشان بها قبل مجيئهما الأول ، تقف قوات تفتيش كبيرة تبحث عما يكون بداخل سم الابرة ، وعلى ذلك فإن دولتهم التى كان يتم التهريب إليها ، شددت من رقابتها على كل شيىء . والمدينة التى قابلهما بها أول مرة صارت خربة . فعربات التويوتا والداتسون والبيجو صارت لاتجرى على الخط ، ولاتجد من يركبها ، وتباع برخص التراب ، لقد انقطع سيل التهريب تماما وشملت الرقابة كل شيىء . فالقماش وهو أتفه مايمكن تهريبه قد يكون صبغة حارقة . وقطع الغيار قد تكون قنابل موقوته . والمخدرات قد تكون غازات سامة . هذا لم يؤثر فى حركة التهريب فقط ، ولكن فى عمل الأدلاء . اختفى الأدلاء وصاروا شحاذين . والدليل الذى **أكلاه** — ولم يستطع أى منهما إنكار التهمة — كان أقل الأدلاء الذين يعملون تحت إداراته قيمة ، لذلك فخسارته ليست فيه ، بل فى الآخرين الذين هاجروا المدينة .

أكثر من ذلك إن ماكان يترتب على التهريب من تجارات أخرى كتجارة النساء قد انتهت . فالمهربون الكبار ومن ارتبط بهم من السادة ، فى المواقع السياسية والادارية ، أصبحوا لا يأتون إلى هذه الفيللا . إكتفوا بنساء المدن التى يعيشون فيها ، وبحثوا عن سبل أخرى للكسب .

بعث ذلك فيهما الأمل فى النجاة . فالرجل والحالة هكذا لابد سيتركهما . لكن ذلك لم يحدث . كان دائما يراوغ فى الاجابة على السؤال . فكرا أن يهربا

فوجدا الأبواب كلها موصدة من الخارج ، وخلفها يقف أربعة رجال أشداء لا يمكن النجاة من بينهم . فضلا عن أنهما خافا لو نجحا فى الهرب أن يتوها مرة أخرى . إنهما لا يعرفان موقع الفيللا بالضبط . ولم يعرفاه فى المرة الأولى . فحين اصطحبهما المهرب أول مرة من المدينة التى قابلاه فيها ، كانا جالسين فى خلفية عربة جيب مغلقة . سارت العربة بهما وقتا ليس قصيرا وهما لايران شيئا حتى وصلت إلى الفيللا .

تشجعا ذات مرة وقالا له .

— إذا كان الأمر كما تقول فلماذا تتركنا هنا ؟.

لم يرد . نظر إليهما نظرة مخيفة يذكرانها الآن جيدا وعينا كل منهما فى عينى الآخر ، واختفى.صار الرجال الأشداء فى الخارج ، يلقون اليهما بالطعام من نافذة عالية كل صباح .

كست الحسرة وجهيهما وكادا يبكيان . لكنهما غرقا فى بحار من الذكرى الشجية .

سعاد . سعاد . سعاد . أى نور هذا الذى

أوقعنى فى شباك الضلال . كان كل شيىء سابحا فى لجة من النور الصافى ، الذى يجلب النشوة ، ويبعث على الطيران فى قلب الفضاء . لكنه أخافنى . وحين جريت لم أعرف إلى أين تقودنى قدماى . كنت كالنعش الطائر . أو كالسابح فوق منديل فوق عباب البحر . تلقفتنى يدا هنية ويدا أمها وتحشيش أبيها فسقطت بينهم . كيف سارت الأمور على هذا النحو الغريب ؟ أغوص فى بحار الضلال وأمشى وراء سراب . هكذا قالوا عنى دائما وأنا صغير . صبى ليس كالصبيان ، يريد أن يمسك القمر بيديه ، فهو يطارد ضوءه على الجدران ، ولا يرعوى حين يجد كفيه فارغتين . ليتنى صدقتك ياأبى حين كنت تعود مكدودا بعد يوم شقاء تمضيه معلقا فوق سفح الجبل الصلب . ليتنى صدقتك حين قلت أن الدنيا إمرأة فاجرة عرجاء لا تصطاد إلا الغزال !. دنياى ياأبى كانت

أربع نساء . نور فوق نور كانت سعاد . أغلقت دربها أمامي،فوقعت فى درب هنية وأمها وأبيها ظلام فوق ظلام . وزينب التى قطعت معى دروبا كثيرة وأخصبت تركتها بأفراخها بلا ريش . ترى، من إختارت زينب ابنة الطبيعة البكر ؟. ليتها تختار سعاد . قلبى يحدثنى أنها إختارت هنية وبئر أمها المظلم . زينب التى كانت حين تضحك أرى زهور حقول الفول الباسمة . كنت تقول ياأبى أن رائحة زهور الفول زكية ، وأن حقوله واسعة تهدهد الأعصاب . لكن لماذا ياأبى لم أشم هذه الرائحة الزكية ولم تهدهد أعصابى ، وظللت أجرى خلف ضوء كاذب للقمر ولا أرعوى ؟ أى زينب،إنى أراك الآن فى الخص فوق الجسر تحت رجال المدينة الجبناء . انتظرينى يازينب . أطردى هذا الوحش فحامد سيعود . حتما سيعود فى يوم وإن كان لايعرف حتى الآن .

سعاد . سعاد . سعاد . أى عاهرة أنت
وأى قاسية ؟ ليتك لم تقولى ياأمى أن زوجها ولى من أولياء الله . أى ولى هذا الذى يغط ياأماه ؟. لم أستطع أن أنزع قولك من رأسى . دائما كنت تخيفيننى وأنا صغير ، ولو لم تقولى ذلك لكنت قفزت . فى كل مرة كنت أراها عارية، جسمها كرخام يضوى به مسارب يتوه فيها الأدلاء . وأنا يتملكنى الخوف إذ أرى أنهار العسل تسكب من لحمها الأبيض فأخشى الغرق . كان على أن أقتلك ياشيخ مسعود . كان هذا اتفاقنا أنا وحامد . لكنا تركناك وقلنا نهرب . ولا أنسى فى تلك الليلة ، بعد أن قلت لحامد أننا سنرحل فى الصباح ، كيف تعثرت وأنا فى طريقى إلى الجامع . كنت سأنفذ القتل وحدى دون أن يعلم حامد . وحين تعثرت نظرت حولى فوجدتنى أمام باب عشة بيت المفتش الخشبية وسمعت منها صوتا لاأنساه . صوت عشق بدا كأنه كتم سنينا وانفجر . صوت لهاث شوق قديم . عرفت صوت ليلى وفريد . لم يكن أى منهما يجذب إنتباهى قط . كنت مشغولا بك يا سعاد وصهرك ولم انتبه الى رفيقتك الشقراء . أعمتنى الخيط والابرة ،

وعثرة أمى بينهم ، وخطابات مسعد التى كانت مؤامرة . انسكب المطر فجأة فلم أقتل زوجك ، عدت إلى صوابى وقلت الرحيل يكفينا كما قال حامد . لكننى كنت مشتاقا أن أدفن حقدى فى أحد . فكرت أن أدخل بيت روائح لكننى أدركت أن زوجها لابد بالداخل . وأين كان يمكن أن يذهب ذلك الذى يخاف الدفء فى ليل مطير ؟. تركت الشيخ مسعود حيا . ولعله مايزال يعاشرك حتى الآن . ويرسل أكاذيبه إليكم يلهيكم بها عن الشرور التى حولكم . تاه بيتى منى فى تلك الليلة ياسعاد . لو كنت دعوتنى فى وقت آخر لا يكون فيه زوجك نائما يغط . آه . ماذا فعلت بى وماذا فعل الولى بنا ؟. حين عثرت على باب البيت ودخلت وجدت أمى نائمة . حين غطيت وجهها نظرت إلى . أين أنت الآن ياأماه ؟ . لماذا لاأتذكرك إلا عجوزا ؟ . أراك تسيرين فى رحلة عذاب وتقبلين على الموت راضية . أراك والليل حولك وأنت كتلة ظلام فوق الجسر تنحدرين إلى الماء . جابر الذى عاش حتى الآن يجرى خلف سراب سيعود . أقسم لك بحق الدموع التى ذرفتها يوم أن أدركت أنك هرمت حين تعثرت بين الخيط والإبرة أننى سأعود . جابر لايمكن إلا أن يعود . خلف عربة المفتش أو خلف السحب سيعود . وهذا حامد صنوى فى الجرى والشقاء ، سيرافقنى فى رحلة العودة . انتظرينى ياأمى . أنا مارمت إلا وأد الخذلان ! .

سمعا صوت صرير الباب وهو يفتح ،
فعرفا أن اليوم ستنتهى كل الذكريات . أن الدائرة لابد أن تتم أول الدورة سيقفل عليها بأقفال الأبد ! .

دخل المهرب الكبير فلم ينهض له أى منهما . كان معه رجلان . أشار لهما فسحبا السجاد من كل مكان بالصالة ومن تحتهما وطوياه ، ثم أخرجاه على مرات . بعد ذلك أطفئا الأنوار . تركا ضوءا أزرق خافتا ، وانصرفا خلف سيدهما .

حين وصل المهرب إلى الباب التفت إلى حامد وجابر المنطرحين كما هما .

قال .

ـــ تريدان أن تعرفا متى سأطلق سراحكما ؟.

لم يبدو أنهما اهتما بذلك . قال.

ـــ من يدخل هنا للمرة الثانية لا يخرج أبدا .

وخرج . لم يحتجا . لم ينظرا حتى اليه . لم يهتز لأيهما هدب . كان كل منهما يعرف النهاية جيدا وراضيا بها ...

المدينة

على

لم يكن على مندهشا حين عاد ورأى مارأى . أحس بذلك منذ اليوم الأول لدخول المدينة . يومها تساءل هل جاء ليعود بهذه السرعة ؟ . وقرر الانصياع الى القوى الخفية التى أحس بها تظلمه ، وفكر أنها لابد فى رأسه . فهو بالكاد يتم الرابعة عشرة ، ولقد رأى كثيرين فى هذا العمر ، أقصى مافعلوه هو صيد الأسماك والعصافير . لكن هذه القوى التى استيقظت منذ ليلة كرات النار ، حملته هما لايدركه . أحس بظلمها حقا ، لكنه فهم أن أمامه عملا سيؤديه ، وطريقا سيسلكه .

لم يكن يعرف أن الدنيا يمكن أن تكون مضيئة هكذا ، وهو يأخذ طريقه الى المدينة لأول مرة . حين إبتعد عن المنازل ولم يعد يرى المنطقة كلها ، كان أول مارآه البحر الذى هو أكبر من البحيرة .

والذى تتقلب مياهه فى أمواج أعلى من موجات البحيرة الهادئة . كان البحر واسعا أمام عينيه ولا نهائى المدى . وكان الوقت ضحى . والشمس الصغيرة عالية فى سماء واسعة زرقاء كلون البحر .

شاهد فى البداية مجموعات من زوارق الصيد . بعضها له شراع وبعضها يجرى فيحدث ضجة كبيرة ،ويطرد الماء خلفه إذ لابد يدور كما القطار بماكينة بخارية . كان فوق أحد هذه الزوارق السريعة كومة عالية من الشباك ترتخى فى الماء ، والزورق يجرى لمسافة طويلة صانعا دائرة واسعة ، فعرف أن من فوق هذا الزورق ، ينصبون هذه الشبكة الكبيرة جدا ، كى يصطادوا سمك الدنيا كلها !.

كان مجهدا من المشى تحت الشمس . لم يكن معه طعام ولا شراب . حين صادف جماعة من الصيادين جالسين فى ظل كشك خشبى تغطيه الشباك المبتلة ، والتى تتدلى من أطرافها كرات الفلين الصفراء ، وقطع الرصاص السوداء ، اتجه اليهم ، استأذنهم أن يشرب من «قلتهم» . كانوا يشوون سمكا فتحركت معدته . لم يطلب منهم طعاما . سألهم هل يمشى كثيرا حتى يصل إلى المدينة ؟. قالوا أنه فى أولها . وسألوه أين يريد الذهاب بالضبط . قال «المدينة» فلم يردوا عليه .

سار ساعة تقريبا صارت فيها الشمس فى وسط السماء . العرق يقفز فوق جبهته وصدره ، لكن هواء البحر يجففه بسرعة . كان وحيدا يسير جوار الشاطىء . اختفت خلفه جماعات الصيادين والزوارق والشباك ، وظلت رائحة اليود والزفارة تحرك أنفه ، وتنعش صدره ، وحينا تصيبه بنفور .

شاهد على البعد أشياء صغيرة تتحرك غير واضحة . اتجه اليها وهو موقن أنه وصل الى ما يريد . وحين يدخل المدينة سيعرف ماذا يفعل .

حين إقترب أكثر ، وظهرت الأشياء الصغيرة واضحة ، رآها بشرا عراة يرتدون

مايوهات مختلفة الألوان .

سمع كثيرا عن البحر والنساء والرجال الذين ينزلونه معا ولا يخجلون . وها هو يراهم لأول مرة . لم يفكر فى خجلهم . فقط فكر فى قطارات الخواجات التى رأى فيها أكثر من مرة رجالا يقبلون نساء ، ونساء شبه عاريات ، قال لعلهم الخواجات . وحين صار قريبا سمعهم يتكلمون لغة يفهمها .

— ربما يأتون من هنا . أعدنى الى البيت.

قال فى ضيق .

— أما زلت تخافين ؟. ألا يكفيك هذه السنين الطويلة وأنت تحبسين نفسك بين الجدران ؟

قالت وهي تقاومه اذ صار يشدها بالقوة الى الماء .

— لم يمنعهم أحد . ولن يمنعهم أحد . لاأحد رأى ما رأيت .

قال فى توسل .

— لن يأتوا . صدقينى . لقد انتهى كل شيىء منذ زمن بعيد .

وحملها بالقوة فأذعنت باكية . اتجه بها إلى الماء مسرعا . ولم يفهم على شيئا من هذا الحوار الذى دار أمامه .

ترك نفسه يسير بين الناس فوق الرمال . فكر أنهم لابد ينظرون إليه . لكنه وجد الشمسيات كثيرة . تحت ظلالها استلقى الكثيرون . ولاأحد ينظر إليه . كان هو يرى المايوهات الزاهية الألوان . القطعة الواحدة والقطعتين . والأجسام البيضاء والحمراء والسمراء . الشمس حامية ، بينما هو بارد جدا لاتستيقظ فيه رغبة ولا يطفو احساس . لم يفكر إلا فى أنه اقترب من المدينة .

رائحة الطعام تأتى اليه من كل جهة ، لكنه يقاوم . لم يندم على أنه لم يأخذ شيئا معه يأكله . ولا نقودا يشترى بها شيئا . لم يعرف لماذا لم يحاول ذلك . كان يفكر وهو يرى الرجال والنساء شبه العراة ، أنه على طول ما استحم ، لايلمع جسمه مثلهم رغم أنه ليس أسمر وأنه رغم النور الذى يطل قويا طلبا من

وجهى سعاد وليلى ، إلا أن النساء والفتيات على هذا الشاطىء ينطلق منهن نور باهر ، وتلمع أجسادهن بضوء مثير . كان قد اقترب من مجموعة من الشباب والفتيات يرتدون ثيابا كاملة ، ويجلسون فى حلقة كما كان يفعل الرجال حول الشيخ مسعود فى ليالى رمضان بعد صلاة التراويح . لاحظ أنهم بعيدون عن الزحام . ولاحظ من بينهم شابا حاد ملامح الوجه . أسمر تلمع عيناه العسليتان بالنار . بدا له من تكوين جسمه قويا كأنه خلق كى يشد القطارات .

— كلمتى الأخيرة إنه بلا حرب لا يبقى إلا الموت البطىء من الخوف .

— لقد قررنا أن لا نتراجع .

— وهذا ما نريد . لقد مرت أعوام ثلاثة .

لم يفهم للمرة الثانية شيئا . الآن بعد عام صار يفهم كل شيىء . نسى طوال هذا العام وجه الفتاة المضطربة والشاب الذى حملها الى الماء.ولم ينس قط ذلك الشاب القوى.لكنه بعد أن سمعه ذلك اليوم أحس بأنه لن يستطيع أن يواصل السير . اتجه خلف احدى الكبائن ونام فى الظلال .

حين استيقظ كان المساء . لم يكن هناك أحد على الشاطىء . أيقظه شرطى سواحل يرتدى بذة من الكاكى تلمع ازرارها فى عينيه فى الظلام . قال وهو لا يدرى .

— أنا جوعان .

جلس الشرطى جواره ورآه على متعبا منكسرا .

— من أين أنت ياولدى ؟

— لا أعرف .

كان يجيب على الشرطى كأنه يحلم .

— كيف ؟. لو رآك غيرى لقبض عليك . نحن فى زمان حرب .

لم يفهم على . قال مرتبكا .

— أنا من هناك .

وأشار إلى الغرب . لكنه وهو يشير رأى الظلام أمام عينيه .

— من أين بالضبط ؟

— لا أعرف . صدقنى . عند آخر حدود القطار وجوار البحيرة . وتمر علينا قطارات كثيرة يركبها الجنود والخواجات .

بدا أن الشرطى لا يفهم شيئا . صمت قليلا ثم قال :

— وماذا تفعل هنا ؟

لم يرد على .

— أليس لك أهل ؟ هل أنت هارب من شيىء ؟

قال على وهو لا يدرى .

— أنا يتيم . وأريد أن أعمل فى المدينة .

دقق الشرطى النظر فيه . رأى عينيه الواسعتين لامعتين . جبهته عالية . قوى الجسم . استغفر الله . وكان على أثناء ذلك يفكر كيف قال عن نفسه أنه يتيم . وأحس للكلمة مذاقا ومعنى غريبين .

كان للشرطى حانوت صغير تديره زوجته فى أحد أحياء المدينة الفقيرة حانوت يبيع الحلوى للأطفال ، والسجائر والشاى والسكر للكبار ، والورق واغلفة الخطابات للغرباء والعشاق .

فى تلك الليلة قرر الشرطى اصطحاب على معه . هيأت زوجته ،

التى كانت بدينة جدا مكانا فوق سطح المنزل الصغير ذى الطابق الواحد ، لينام فيه على الذى عاد مع الشرطى فى حوالى الحادية عشر مساء .

لاحظ على أن فوق السطح كشكين خاليين . أرض كل منهما مليئة ببقايا قديمة ملتصقة بها ، صعدت رائحتها إلى أنفه فلم يخطىء أن الكشكين كانا قديما عشتين للدجاج .

فى كل من العشتين كان مصباح كهربى صغير يتدلى من السقف ، أسود السلك من فرط ما تبرز فوقه الذباب . وأسود السطح الزجاجى كذلك . أشارت لعلى إلى العشة الصغرى . وأشارت الى الصنبور الذى فى ناحية من السطح ، والمرحاض القذر . وفى الصباح قال له الشرطى أنه سيقف فى الحانوت مع زوجته عدة أيام يدبر له خلالها عملا مناسبا .

لم يعرف على إلى أين ستنتهى الأمور . لكنه وهو مع المرأة البدينة فى الحانوت ، وبينما كان يتأملها وهى تتحرك بصعوبة ، قال لها

— ياخالة . ألا تعرفين أين أجد هندسة السكة الحديد ؟

نظرت اليه متحيرة . خاف أن يكون أخطأ . لكنه كان على يقين من صوابه ، إذ أنه سمع أباه كثيرا يتحدث عن الإدارة العامة التى يتبعون لها ، والتى تقع بالمدينة ، وتسمى هندسة السكة الحديد . وكان على يقين ، كما سمع أباه ، أنه فى هذه الادارة تدار أعمال القطارات وشئون العمال .

— ماذا تريد من هناك ؟.

كانت قد نظرت إليه مليا . وبدا على وجهها إنها تعرف كل شيىء .

«أمعقول هذا» . قال .

— لاشيىء . فقط أريد أن أعرفها .

قالت بارتياب .

— فقط .؟

لم يرد . انصرفت عنه الى بيع بعض الأشياء لأحد الزبائن الذى نظر اليه متفرسا فأربكه . هل يكون وجهه غريبا عن وجوه الناس هنا ؟ هل يعرف من ينظر اليه أنه ليس من المدينة ؟ أو من منطقة معزولة تحدها البحيرة والصحراء ، ومحطة قديمة للقطارات ناظرها نائم منذ عشرات السنين ، ولا يركب منها أو يهبط فيها أحد ؟. لكن الزبون انصرف بسرعة ، ثم توقف بعد خطوات قليلة . التفت ينظر اليه بعينين ثاقبتين ومضى من جديد .

لم يكد على يفكر فى نظرة الزبون الأخيرة حتى قالت المرأة :

— فى آخر هذا الشارع ستجد شارعا واسعا تسير فيه الترام . تركب وتنزل بعد ثلاث محطات . هناك ستجدها . مبنى أحمر من طوب أصفر قديم ومن طابقين . إنها واضحة جدا .

انتشر الفرح فى دمه وأعصابه وان كان لا يعرف لماذا ، أو ماذا سيفعل هناك . لكنه فجأة أحس بأن جسمه نما نموا غريبا ولما يمضى عليه يومان فى المدينة . قال فى نفسه أنها القوى الخفية وراء الفرح والنمو . فليترك نفسه لها تحركه ، وان ظلمته بما حملته له مما هو فوق العمر والقدرة.قال .

— هل أذهب الآن ؟

قالت بحزم .

— غدا .

فى المساء ، بعد أن تناول عشاءه فوق السطح وحيدا كالكلب الأجرب — هكذا أحس والمرأة البدينة تضع أمامه طبق الفول والرغيفين ثم تمضى صامتة — تذكر أن أباه كان كثيرا ، فى ليالى الصيف ، قبل أن ينقطع القطار عن المجيء يصعد الى السطح ليتناول عشاءه وحيدا ، ثم يجلس مرتكنا على السياج بظهره ، ويشعل سيجارة ناظرا الى السماء ، فيبدو كمن

يعد النجوم . تاق الى سيجارة رغم أنه لم يدخن من قبل قط . لكنه حين رأى شابا يصعد الى السطح نسى ذلك . رأى الشاب يقف قليلا ناظرا حوله فى يقظة ، ثم يشير ناحية السلم يدعو أحدا الى الصعود . عرفه على وانقبض قلبه . إنه نفس الشاب القوى الذى رآه أمس على الشاطىء . تراجع زاحفا الى الخلف ليدخل العشة وهو يرى فتاة مقبلة ناحية الشاب ، وعلى وجهها خوف شديد . حين وصل إلى العشة رأى فتاة أخرى وشابا آخر ثم شابا ثالثا . ثم فوجىء بالشاب الأول يشير اليه كمن كان يعرف بوجوده . نهض خائفا لأول مرة من أحد .

حين صار أمام الشاب أخفض بصره كى لا يرى أحدا . فى الحقيقة كان لا يريدلأحد أن يراه . لكنه أحس بالفتاتين تبتسمان وتتبادلان النظرات . تاقت نفسه لأول مرة إلى ليلى وسعاد . هذه المدينة لابد أن يتركها فورا . وهناك لابد سيختفون اذا تأخر كثيرا . لكن هل جاء ليعود بهذه السرعة ؟. لماذا يفكر فى ذلك ويرى نفسه كالكلب الأجرب ؟. القوى الخفية تستيقظ فى رأسه الآن من جديد ، الطريق إذن مايزال مفتوحا أمامه .

— هل تستطيع أن تحضر الينا سجائر من الدكان ؟ . هاهو المفتاح . لم ينتظر الشاب إجابته .. أعطاه المفتاح فعرف على أنه ابن للشرطى والمرأة البدينة . هبط السلم مسرعا ومنتشيا .

سار فى شارع ضيق متسخ ملىء بالأطفال الذين يجرون خلف بعضهم ، يقذفون بعضهم بالحصى ، ويعفرون وجوههم بالتراب . نظر الى جانبى الشارع عله يجد مصباحا مضيئا يتجمع الأطفال تحته يعدون الشص أو الفخاخ المكسورة . يلعبون «الورق» بأغلفة علب السجائر أو «المال» بزلط السكة الحديد الصغير . يجهزون الكرة القماش أو يتفرقون مسرعين وهم يلعبون «الاستغماية» أو حتى يتحلقون صبيا يحكى لهم حكاية مسلية . لم يجد . لم ير إلا أطفالا يجرون ويعفرون وجوههم بالتراب . رأى كل النوافذ مغلقة والأبواب . بدا له أن أولئك الأطفال ينزلون كل ليلة من السماء يعفرون وجوههم بالتراب ويصعدون ، إذ لايبدو من النوافذ والأبواب المغلقة ، أن لهم بيوتا ينامون فيها .

أسرع وأنجز مهمته دون خوف أن يكون بالدكان أحد ينظر إليه . فكر وهو يصعد السلم أن يصعد بهدوء الهمس . ثم فكر أن يسير كما يفعل بحثا عن القنفذ . لكن السلم ضيق ولن يتيح له فرصة الدوران كالضبع ! صعد متمهلا سعيدا . عند نهاية السلم رأى القمر جميلا يكشف السطح فيبدو كبحيرة من النور . ويبدو الكشكان الخشبيان كمحطتى سكة حديد صغيرتين متباعدتين . وكان ضوء القمر ساطعا بهيا حتى لأحس وكأن القمر يسكن داخل صدره .

حين كان القمر يسطع فوق البحيرة كانت المياه تلمع أمام عينيه ويقول لنفسه أن الاسماك الآن ترى بعضها ، فالقمر لابد يضيىء لها الدنيا المظلمة تحت الماء . ويتخيل الأسماك وهى تسبح هناك منتشية بالنور وترقص ، وأزواج منها تنفرد لتتحدث بعيدا وتلهو .. كان القمر يفسد فقط ألعاب الإستخفاء . فكل من يختفى كان يصير له خيال . لكنه تعلم أن لايكون له ذلك ، فلم يكن أحد يعثر عليه بسهولة . كان يجلس فوق الأرض ويتكوم حول نفسه بطريقة تجعل خياله تحته . حين يمر صبى من أترابه يبحث عنه ، يقفز فى وجهه فيفزعه ثم يفر من أمامه . سأله الصبية كثيرا كيف لايكون له خيال ؟ فضحك ولم يقل شيئا . وحين انقطع القطار وانقطعت ألعابهم ، وأنامهم الأهل مبكرين كالدجاج ، لم يفكر أن يقول لأحد عن سره . كان يقول لنفسه ، من يدرى قد يعود القطار ويعود كل شيىء الى سيرته ؟ . وسأل أمه عن الذى لايكون له ظل أو خيال . قالت على الفور « النور » . قرر وهو يشعر بالزهو ، أن يلقن أبناءه حين يكبر ، أن يكونوا بلا ظل أو خيال ! أن يكونوا نورا ..

لكنه أحس فجأة وهو يقف عند نهاية السلم أن الدنيا كبيرة حقا كما قالت أمه . أن ابن آدم ضئيل لاقيمة له . أن الله قد أنزله الأرض عقابا لأنه أطاع الشيطان ، لذلك فهو معذب فى الدنيا ومسكين . الشيطان يطارده والله يهديه . وهو ضائع بينهما لا يعرف لماذا لا يقتل أحدهما الآخر فتنتهى المأساة . لكن أمه تقول أن من يهديهم الله فقط يعرفون الهداية منذ يومهم الأول . وهذا هو السبب فى وجود طفل شيطان منذ صغره ، وآخر طيب مطواع ، يمشى جوار الحائط

ولا يعص والديه . الأول من أبناء الشيطان . وحين يكبر تظهر له قرون وتخرج من عينيه نار . والثانى من أبناء الله مثل الشيخ مسعود ، أو أحسن منه مثل القطب القناوى . كاد يضحك حين تذكر يوم طرده الشيخ مسعود ، وكيف دعت أمه على الرجل وزوجته ، وقالت له أن لا يذهب الى الجامع بعد ذلك كأنما أرادت أن يكون من أتباع الشيطان . ثم كاد يبكى لأنه تذكر سعاد . وأحس كم هو صغير فى هذه الدنيا ما كان يجب أن يأتى هنا وحده .. تساءل هل يعود . وأحس بالقوى الخفية تطن فى رأسه كقطار ينفث بخارا كثيفا .

— يبدو أن الحرب غدا .
— الجنود تملأ المدينة والعربات .
— اذن علينا أن نتطوع . انهم سيتركوننا . فلنتطوع بأنفسنا . البنات فى التمريض والشباب فى المقاومة الشعبية والدفاع المدنى .
— هل ستكون هناك حاجة للمقاومة الشعبية ؟
— كل الاحتمالات قائمة .
— لو لم يمت فريد . كان من الممكن أن يتغير .

أمضى ليلة لائبة . أيكون سر كل شيىء هنا فى هذه العشة الصغيرة الحقيرة ؟ إنه على يقين أنهم يتحدثون عن فريد ابن المفتش . أيكون كل شيىء فى بطن هذه المدينة التى لم ير منها إلا شارعا ضيقا قذرا حتى الآن ؟ ثم هذه الحرب ما هى ؟. وما هذا الخوف الذى سمعهم يتحدثون عنه على الشاطيء ؟ حين قال الشاب للفتاة المضطربة أنه قد انتهى كل شيىء ماذا كان يقصد ؟ أى حرب هذه التى ستقوم بعد يومين من دخوله المدينة ومع من ؟ كيف أنهم هناك لم يعرفوا شيئا عن ذلك ؟ أولئك الجنود الجرحى الذين حدثوه ماذا كانوا يقصدون ؟ لماذا لم يوضحوا له شيئا ؟.

هؤلاء الشباب يعرفون كل شيىء عنهم ولاشك بذكرهم لفريد . أما هم فقد دارت حياتهم فقط حول قطار إنقطع . رأوا قطارات وجنودا مبهمة .

شاهدوا خواجات لا يعرفون عنهم إلا أنهم خواجات !. اصطادوا سمكا نتنا . ماتت طيورهم . ورحل الرجال والنساء . والمرأة البدينة التى سألها عن مقر هندسة السكة الحديد لماذا ارتابت ؟ والزبون الذى نظر إليه ؟. أى ظلام هنا أو أى نور ؟ القوى الخفية التى فى رأسه تتدافع . موجها لاهب يكاد يفجر رأسه .

انقطع حديثهم بعد أن أعطاهم السجائر ولم يعد يسمعهم . حين سار على قدميه ويديه ، ولبد خلف الكشك الذى يجلسون فيه يسترق السمع ، لم يسمع شيئ . صمتوا طويلا حتى كاد الليل ينتصف . لم يعرف كيف ظلوا صامتين كل هذا الوقت . لابد أنهم كانوا يتحدثون بلغة غير مسموعة . مياه البحيرة تفعل ذلك . أمواجها الهادئة تأتى الى الشاطيء فى حنو . يكون للموجة الكبيرة صوت . الموجات الصغيرة لا يكون لها صوت . تأتى وادعة تفرش الشاطيء فى قوس رقيق ولا تعود . تتشربها الأرض من فرط رقتها . تكون دائما أحلى الموجات وأبهاها . كان ينتشى وهو يرى مسام الأرض تتشرب المياه الرقيقة . وحين تهب نسمة ندية تكون بلاصوت أيضا ويشعر أن جسمه صار ناحلا كخيط رفيع لا يرى ، معلق فى الفضاء الوادع يتثنى فى دعة ، ويسبح بانتشاء فائق . ويكاد وهو يشعر بذلك يدخل فى بعضه وهو واقف من الغبطة والجذل ، ويغمض عينيه . والأسماك أيضا تتحدث بلا صوت . لم يكذب أبوه حين قال له أن لكل شيىء لغة . فالأسماك لابد تتكلم تحت الماء لكن لا نسمعها . وغمزات السمكة للطعم وعدم اقبالها عليه مباشرة ، ما هو الا نتيجة لمكرها ، أو لتحذيرات تسمعها من الأسماك الأخرى فتتردد . وحين تكون الأسماك فى السلة الصغيرة بعد الصيد ، تقفز دائما سمكة كبيرة الى الخارج وتنتفض فوق الأرض . ما يكاد يحاول إمساكها حتى تقفز سمكة أخرى ثم ثالثة فرابعة . أمه قالت له أن يغطى السلة . لكنه كان كثيرا ما يرفع الغطاء ، وينتظر حتى تقفز السمكة ووراءها الأسماك الأخرى . يراقب المشهد فى متعة . وكلماتنتفض السمكة الكبيرة ، انتفضت الأسماك الصغيرة . الأكبر فالأصغر على الترتيب . إنه متأكد من ذلك . حين تكف السمكة الكبيرة يكف السمك الصغير . يقول لنفسه أن السمك الصغير يطيع السمكة الكبيرة ، وحين يئست يئس . يتساءل لماذا تيأس السمكة الكبيرة

بسرعة فتعلم الصغير اليأس ؟. أبوه أيضا قال أن للطيور لغتها وللحشرات جميعها حتى النمل . وهو لا ينسى أنه حين كان يسمع ديكا يؤذن للفجر يسمع بعده بقية الديوك تؤذن . إنها لاتؤذن مع بعضها مع أن موعد الفجر واحد . لكن الديك الكبير لابد هو الذى أذن أولا فابلغهم أن يؤذنوا . إنه على يقين من صواب ذلك . دليله أنه كثيرا ماكان يسمع آذان الديك فى منتصف الليل ، أحيانا قبل ذلك ، ولا يسمع الديوك تؤذن بعده . حين سأل أمه لماذا يؤذن هذا الديك مبكرا ؟ قالت أنه «الديك الكذاب» . عرف أن أمه صادقة لأن الديوك الأخرى لم تؤذن خلفه . إذن تفهم الديوك لغة بعضها ويفهمون أيضا الخطأ من الصواب . حدثه أبوه كثيرا عن سيدنا سليمان وكيف كان يعرف لغة الطير والحيوان والحشرات ويحدثها جميعا . تمنى الليلة ، لو كان هو سيدنا سليمان وهو يلبد خلف العشة يسترق السمع . لكنه أدرك أنهم ليسوا طيورا ولا حيوانات ولا حشرات . فكيف كانوا يتحدثون وبأى لغة ؟.

ظل حتى الصباح يتقلب فوق الفراش الخشن . ذهب إلى مبنى هندسة السكة الحديد كان ملتاعا . رأى الناس تجرى فى الطرقات . رأى لافتات كبيرة وأضواء . النوافذ صارت مفتوحة والأبواب . الأطفال تجرى خلف بعضها لكن لا يعفرون وجوههم بالتراب . ابتلعه الشارع الواسع الملىء بالضجة . أقبلت الترام واستقلها لينزل بعد ثلاث محطات كما قالت له المرأة البدينة . تذكر المحطة وناظر المحطة النائم وعم عبد النور عبد الليل وسليله . سمع الناس تتحدث عن قوات من الجيش تعبر الأسوار . ومعارك ضارية بدبابات وطائرات . ورأى راديو صغيرا فى يد أحد الركاب . تعجب كيف أنه لم يكن لدى أى من البيوت العشرين راديو . كيف أن المفتش وهو الوحيد الذى كان عنده راديو كان لا يتحدث عن شيىء . وأنه قليلا ماتسربت أغنية من خلف العشة الخشبية . وأنه حين كان يذهب الى الجسر مع أمه كان يسمع أغانى كثيرة تنطلق من أكثر من راديو فلا يميز شيئا وكان الراديو يعلن عن أرقام يهلل لها الناس ويتحدثون بفرح .

— قلنا أنهم جبناء .
— وملعونين فى الكتاب .
— والأيام دول .

جاءت المحطة الثالثة وهو لا يفهم شيئا . أدرك أن المسافة بين المنطقة التى كان يعيش بها والمدينة ليست قصيرة أبدا . إن لم تكن مستحيلة .

حين نزل جعل ينظر حوله فرأى المبنى الأحمر الضخم يبدو مثل جبل عريض احترق منذ زمن بعيد . حول المبنى بيوت كثيرة منخفضة . تعجب كيف أنها جميعا مغلقة كأنها لا تشعر بالحرب أو هياج الشوارع . لا يعرف لماذا تذكر قوله للشرطى إنه يتيم . ثم رأى اللافتة الكبيرة ، وصورة قطار على الواجهة . سأل نفسه ماذا يريد بالضبط ؟.

ان أحدا لم يأت هنا من قبل ويسأل عن القطار . حين قالوا أن المفتش يتولى أمر ذلك كانوا كذابين . المفتش لم يتحدث فى ذلك قط . أما هو فسيعرف الآن كل شيىء .

رأى شرطيا نحيلا جالسا فوق أريكة لامعة أمام الباب الواسع فاتجه إليه .

— هل هذه هى هندسة السكة الحديد ؟
— أجل .

نظر اليه الشرطى نظرة ذكرته بالزبون أمس . فكر أنه قد تكون ثيابه هى السبب . فقميصه الواسع جدا والممزق من فوق الكتف ، يختلف عن القمصان الضيقة التى يرتديها كل من شاهدهم من شباب وصبية . سرواله واسع جدا من أعلى وضيق من فوق القدمين ، بينما هو يرى سراويل الناس عكس ذلك . حذاؤه صندل قديم من كاوتش السيارات لم ير أحداً يرتدى مثله .

— أين مكتب الكبير ؟.
— أى كبير ؟ تقصد المدير العام ؟.

سأل على مرتبكا وأجاب الشرطى مندهشا . هز على رأسه بالإيجاب ، وقرر أن لا يتحدث أكثر من ذلك فهو لابد يخطىء فى الحديث . أشار الجندى إلى أعلى بلا مبالاة ، وبدا كأنه يهش ذبابة بيده . تركه على ودلف من الباب الواسع . أحس بالجو رطبا . فكر أن الجو بالخارج كان جحيما وهو لا يدرى . ثم وقف متحيرا فى الردهة الواسعة المعتمة قليلا . كانت الردهة تفضى الى طرقتين طويلتين عن يمينه ويساره . فى نهاية كل منهما سلم خشبى عريض ، درجاته من العوارض المسيجة بالحديد . تماما مثل سلم البلوك . كان بعض الرجال يمرون من خلفه وأمامه فى سرعة طائشة . بعضهم كان يحمل أوراقا تحت إبطه أو فى يده . أدهشه أنه رأى أحدهم يضع صفارة فى فمه !

جعل يتلفت عله يستأنس وجها يحدثه . كانت الوجوه كلها جهمة . والملابس كلها خضراء قاتمة تذكره بملابس أبيه والرجال . قال فى نفسه لعل عمال السكة الحديد كلهم يرتدون هذه البذات الخضراء . قرر أن يدخل أول حجرة عن يمينه، تلك التى يسمع أصواتا تصدر منها وضحكات .

— من أنت يا ابنى ؟

كان قد دخل من باب الحجرة فرأى أمامه مكتبا عريضا من الخشب الثقيل الأسود اللامع . خلفه رجل فى فمه سيجار رآه مرة فى فم أحد الخواجات . كان الرجل وسيما رغم ما يبدو من تقدمه فى العمر . حرك الرجل السيجار الى جانب فمه وسأله هذا السؤال فى الوقت الذى كان الجالسون حوله ، وكانوا أربعة ، ينظرون إليه نظرات مدققة ، أحس بها تخترق جلده وعظامه كإبر باردة . لكنه وجد الشجاعة لأن يحكى كل شيىء للرجل الذى كان ينصت مندهشا . ظن أنه وصل إلى غايته . فالرجل أشعل السيجار أكثر من مرة ، وطلب منه أن يستمر حتى النهاية ثم باغته .

— هل تريدنى أن أترك شئون الحرب والتفت الى قطار كنسة لم يأت منذ أكثر من عامين ؟.

لم يستطع أن يرد . تبخر كل ما كان فى ذهنه ، ضج الجالسون بضحك بغيض . غلى دمه وكاد يبكى منفجرا بالشعور بالضآلة . لكن الرجل بدا وقد أحس بذلك ، فقال برقة .

— لن أقول لك يا ابنى لماذا تهتمون بهذا القطار هكذا . ولكن يمكن أن تعود الينا بعد الحرب فقد نستطيع مساعدتكم — ثم صمت برهة — ألا يوجد يا ابنى شخص كبير عندكم ؟ رجل يعنى بدلا منك .؟

انتظر فى تلك الليلة صعود الشاب وزملائه الى السطح فلم يحدث . تذكر أن المرأة البدينة لم تحدثه بكلمة بعد عودته . أدرك أكثر من أى وقت أن ماسيجده حين يعود لن يدهشه . لقد كانت رحلته الى مقر الهندسة على غير ماتوقع . فبعد أن خرج من المكتب الأول قرر أن لاينصرف قبل أن يصل الى حل . دلف الى مكتب آخر فأشار له الموظف الجالس بيده إلى المكتب المجاور دون أن يسمعه أو يعرف منه شيئا . فى المكتب الثالث وجد ثلاثة رجال تسبقهم نظاراتهم اللامعة ، يبسطون أوراقا عريضة فوق منضدة واسعة ، وفى أيديهم عصى طويلة يشيرون بأطرافها فوق الورق ويتحدثون همسا . كانت قمصانهم بيضاء لامعة وسراويلهم منضبطة عليهم . أرهبته العصى الطويلة وخرج الى غرفة أخرى . وجد بها رجلا يشرب شايا ويدخن سيجارة . حكى له الحكاية كلها والرجل صامت . فى النهاية قدم له الرجل كوبا من الشاى فرفضه وخرج . صعد الطابق الثانى متذكرا أن الشرطى كان قد أشار الى أعلى حيث مكتب المدير العام . وجد الطابق لامعا ونظيفا . أرضيته مغطاه بسجاد فخم تغوص فيه قدماه . رأى فتيات رشيقات ، تخطرن مسرعات من غرفة إلى أخرى عن يمينه ويساره . فى أيديهن أوراق ، ويتبادلن الابتسامات وهن يتقابلن . كانت ملابسهن بهية زاهية . قصيرة تكشف جزءا كبيرا من السيقان . ورأى بطول الصالة الواسعة التى تمتد بين نهاية السلمين الصاعدين من أسفل ، ابوابا مغلقة يجلس أمامها رجال مسنون على مقاعد واطئة . كانت الأبواب تفتح وتغلق بسرعة ، تخرج منها الفتيات

أو تعدن اليها . الرجال المسنون جالسين جميعا بلا حركة كالأصنام التى لم يرها ، وعرف أن الناس كانت تعبدها قبل سيدنا محمد . لم يعرف أين حجرة المدير العام . لكنه بعد أن تحير قليلا أدرك الغرفة . ذلك أنه وجد أن أكثر الفتيات تخرجن من المكاتب المختلفة ، وتتجهن إلى باب واحد يدلفن منه ويغبن قليلا ثم يخرجن . قال فى نفسه أن هذا الباب لابد يفضى الى مكتب المدير العام . فلابد أنهم يعودون اليه فى كل شيىء . لكنه وهو يتجه الى الباب رأى عددا من الرجال المسنين ينهضون ويتجهون اليه . وقف متحيرا . أمسكوه من كتفيه وذراعيه وأعادوه الى أول السلم الذى صعد منه وأشاروا الى أسفل فنزل .

قال كأبيه ، اللهم إجعل من أمرى رشدا . هل هذا معقول ؟. هل هذه سميرة حقا ؟.

قال كأبيه . اللهم يسر وأعن . لو كانت هى لن يعود . فالدنيا ستكشف أستارها القبيحة الآن . وهو لن ينسى ما عرف أنه جاء من أجله . والقوى الخفية دائمة فى رأسه . وجسمه ينمو كل يوم نموا هائلا . لكن هل هذه سميرة حقا ؟.

كانت تتلوى شبه عارية أمامه على خشبة المسرح . الأضواء حوله وفوقه . النساء جالسات فى الصفوف الأمامية والفتيات والأطفال . فى الخلف كان هو وسط الرجال الذين يتحلقون مناضد كثيرة . الليلة باردة بلا مطر . وسميرة تتلوى ببدلة الرقص الشفافة . الطبال ملتهب حماسا . عازف الاكورديون سابح فى النشوى . الرجال جميعا يعبرون عن متعتهم بأصوات خشنة ، ونداءات بذيئة . رائحة الحشيش تملأ الجو ، ودخانه يكون سحبا فوق الرؤوس .

نهض من بين الرجال واقترب من خشبة المسرح . إنها سميرة الجميلة ولا أحد غيرها . ظل ينظر اليها علها تنتبه له . قرر أن يحادثها فى النهاية . لكنها بعد أن إنتهت ، ولم تكن قد انتبهت اليه ، دلفت خلف السرادق حيث أقيمت غرفة للفرقة . غابت قليلا بينما كان هو قد انتقل ليقف على باب الغرفة ينتظرها . حين خرجت كان حولها الطبال وعازف الاكورديون . كانت فى يدها حقيبة صغيرة

سوداء ذات سلسلة معدنية مذهبة . رأى على وجهها أصباغا ثقيلة . هتف « سميرة » لكن خرج الصوت مختنقا ، ولم تنظر اليه . فقط رشقه الطبال بنظرة غضب . رآها تتجه الى تاكسى قريب كان فيما يبدو ينتظرها . رأى الطبال وعازف الاكورديون يركبان خلفها . رأى على المقعد الأمامى جوار السائق عجوزا قبيحة جدا . اختفى التاكسى فى الشوراع الضيقة .

ظل واقفا فى مكانه للحظات يسأل نفسه هل تدور الأرض حقا كما سمع الشيخ مسعود يقول ذات مرة ؟ أم تدور الشمس كما تقول أمه دائما ؟ لقد انتهت الحرب بعد أيام قليلة ، وعرف القصة كلها . قالت له صفاء أن الشباب استطاعوا أن يجبروا الدولة أن تحارب . قالت بعد ذلك أن ابن الشرطى قد استشهد بعد أن التحق بفرق المقاومة الشعبية . وأن الخسارة فيه كبيرة ، فقد كان وطنيا غيورا . وأنه هو الذى كان ينظم الطلاب فى الجامعة للقيام بمظاهرات . وشرحت له كل ذلك . ولما كاد يسألها عن فريد حدثته هى بعد أن عرفت من أين أتى . قالت له أنها تعرفه قبل أن تراه . وأن فريد كان ينقل اليهم صورة واضحة عن حياتهم . وأنها تعرف أن له أختا شقراء . وأن بينهم تسكن أجمل إمرأة فى الدنيا إسمها سعاد ، وجد زوجها مقتولا صباح ليلة مطيرة . ثم قالت له ألا يسألها عن أى شيىء . وان يفكر فى العودة بسرعة . كانت قبل ذلك وفى اليوم الثالث للحرب قد أخبرت إبن الشرطى أنها وجدت عملا لعلى فى الجراج الذى يملكه أخوها والذى به ورشة ميكانيكا . لم يكن على يعرف أن الشرطى قد طلب من إبنه أن يسعى فى البحث له عن عمل . عرف منذ ذلك اليوم اسمها . وكان قبل ذلك يراها تصعد الى السطح فقط . كانت حلوة دقيقة الملامح . ذات شعر أسود وعينين عسليتين ووجه مستدير قليلا وأنف دقيق وشفتين مثل حبتى عنب وتبدو وهى تتحرك مثل طفلة مبتهجة . وكان حديثها لعلى بعد أن ألحقته بالعمل عند أخيها . ثم قالت أن هذا هو العمل ، لكن لابد أن يعود فهذا أفضل . وكانت خائفة .

زارت صفاء بعد ذلك أخاها بالورشة أكثر من مرة . فى كل منها كان على هو الذى يقدم اليها الشاى . كانت تسمح له بالجلوس معها فى المكتب خلف الجراج

الكبير . سمعها توصى أخاها الذى كان فى سن الأب أن يعلمه الميكانيكا . ودائما كانت تقول له أن على لن يظل فى الجراج طويلا . حاول هو أكثر من مرة أن يسألها لماذا استحق فريد ماحدث له لكنه عجز . وفى احدى المرات كاد ينطق لكنه لمح دمعة تترقرق فى عينيها !. قالت لم يكن فريد مخلصا دائما ..

ظل طوال الشهور الستة التى انقضت يحاول أن يصل الى إجابة فى مبنى هندسة السكة الحديد . لكن كان دائما يتكرر معه ما حدث أول مرة . بعد الحرب قال له نفس الرجل الأول انهم يعيدون ترتيب القطارات ، بعدها ينظرون فى أمرهم .

ظل على أمل واه ، ويدرك أنه أمل واه . يسأل نفسه ما شأن القطارات بالحرب التى حدثت بعيدا جدا ، فى الوقت الذى تقدم فيه فى فهم الميكانيكا فقرر أن يفهم أكثر . صارت السينما هى ملاذة حين يضيق صدره ، فجعل كل مساء يتوه فى خيالاتها . ثم يعود لينام فى الجراج ، وهو يشعر أن القوى الخفية تدوم فى خلايا مخه ، حتى إصطحبه زملاؤه بعد هذه الشهور الستة ، الى هذا العرس الذى رأى فيه سميرة ترقص ، فطار منه العقل ، وتاق لرؤية صفاء وسؤالها عله يجد إجابة . هل يمكن أن يقول لسميرة لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسى فيحدث كل هذا ؟. تذكر عبد الله أبا سميرة وهو يسير رفيع العنق عالى حدبة الظهر ، حاملا المقطف العالى المعلق فى العتلة فوق كتفه ، مرتديا الزى الأخضر القاتم المرتق فى أكثر من مكان . لقد خرج بعد إختفاء سميرة ولم يعد قبل أن يغادر هو المنطقة . وبالتأكيد لم يعد حتى الآن . فهاهى سميرة الجميلة حقا أمامه راقصة بالمدينة الغريبة .

قرر أن يحضر كل الأعراس التى يسمع عنها أو يراها عله يجد سميرة مرة أخرى ويحدثها . لو نظرت اليه ستعرفه . لا يمكن أن تنسى آخر مرة التقيا فيها ، وتخيلته مرسى خطيبها المسافر فوق القطارات . والذى سأل عنه فى أحد مكاتب الهندسة فلم يصل اليه . قال له الرجل الذى لديه كشوف أسماء العاملين جميعا «أنت

تسأل عن وهم . شاب اسمه مرسى يعمل مسفراً فوق القطارات !؟ هذه مهنة مؤقتة . فالمسفر قد يعمل عملا آخر . ثم إنك لا تعرف الأسم كاملا . وهناك مئات باسم مرسى . ثم صمت قليلا وقال ، يا ولدى أنت أسئلتك غريبة وحكاياتك عجيبة !». وفى مرة أخرى قال له «صرت تترددأكثر مما ينبغى حتى صرت معروفا ومشبوها ، وأخشى عليك بعد ذلك» .

صارت المدينة مشغولة بأحاديث غريبة .

فهناك سخط وهناك تأييد . بعض الناس يقولون لماذا كانت الحرب اذا كانوا سيأتون هنا ؟. وآخرون يقولون أنهم شاهدوهم يمشون فى أماكن مختلفة من المدينة يشربون البيبسى أو يلحسون الجلاس فى عز البرد . وعرف أن تلك المخلوقات التى عاشت تهدد الدولة قد ظهرت فى المدن . وأن الاعداء تصالحوا على دم الشهداء . فأدرك أن ما قالته صفاء عن ضرورة عودته فى أسرع وقت هام لكن كيف ، ولماذا ؟

لكنه فكر إذا كانت فعلا حدثت حروب كثيرة مات فيها شهداء كثيرون فكيف تنقلب الأمور بهذه السرعة ؟. ان صبيا كان يعتدى على المنطقة التى يصطاد فيها كان يتشاجر معه ويضربه ، ويظلان متخاصمين . فما بالك اذا كان فى الأمر دم سال؟اقتنع أنه لاقبل له بما يحدث حوله وأن ماقالته صفاء ضرورى ولكن كيف !؟

عرف أن صفاء غادرت المدينة مع والدها الذى انتقل للعمل بمدينة أخرى . وظلت كلماتها فى آخر مرة حين قالت له أن يعود فيدرك أهله تتردد فى أذنيه كأنها عالقة بهما . لكن من جديد ، كيف ؟

كان بين أهله فلم يدركهم ، وأحس ببعض المقت لهم . جاء هنا فلم

يدركهم أيضا . تضايقه القوى الخفية التى لا تريد أن تنزاح عنه . ويضايقه كبر جسمه على هذا النحو .

صار الآن مثل شاب فى الخامسة والعشرين يحس بطاقات كثيرة تغلى فى عروقه . كره السينما لأن صورها العارية تثير فيه غرائز قوية لاقبل له بكبحها . خاصة حين يعود لينام وحده ليلا فى الجراج المعتم . وهو لا يريد أن تزكم أنفه الرائحة الكثيفة التى كانت تتسلل اليه من سرواله منذ أكثر من عامين مرة أخرى . وبالسينما أيضا راقصات كثيرات يرددن ذهنه الى سميرة التى إختفت ولم يعد يعرف كيف يجدها .

لكنه سمع العاملين بالجراج يتحدثون ذات صباح عن راقصة تملأ المدينة اسمها «نانا». وعن السرادقات التى تقام فى الخرابات وعلى الشاطىء تقدم ألعاب السيرك والبهلوانات وألعاب القمار . وأن «نانا» هذه تقدم نمرها فى كل مكان .

قرر أن يذهب ليرى هذه الراقصة وفى داخله يقين أنها سميرة . وأنه وقد فشل تماما فى الوصول الى شيىء عن القطار فى مبنى الهندسة ، فلابد سيصل الى سميرة الجميلة ويعود بها . بعدها سينفض يده من الأمر كله . وهذه المدينة سيتركها . ولن يهمه أن يتصالح الأعداء على دم أو فوق ماء !

صار يدخل كل مساء أكبر قدر من السرادقات . يرى على واجهة السرادق صورة قبيحة لراقصة تتأود ، وجهها قريب الشبه بوجه سميرة لولا أنه يشع بذاءة . إنه لن ينسى وجه سميرة البرىء كوجه طفلة أبدا . تحت الصورة مانشت ضخم يعلن عن الراقصة النارية «نانا زمبلك». يدخل السرادق الذى يقف أمامه باعة لكل شيىء . وأصحاب ألعاب لم يرها من قبل . ألعاب نارية وورق وقذف أثقال ورماية . يفض الزحام بيديه ويوسع لنفسه طريقا . يرى وجوها غريبة شوهاء لبشر سود وبيض . ونساء متشحات وسافرات ، والأصباغ تعلو وجوههن بطريقة مقززة . فوق خشبة المسرح رجل يعلن عن الساحر ثم البهلوان ثم عن الراقصة

النارية . تظهر سميرة ترقص بقرف شديد وهو ينظر اليها يكاد يبكى . حين تخرج يجرى الى الباب عله يحدثها . لكنها الآن صارت تخرج محاطة بالطبال وعازف الاكورديون ، ومعهما اثنان يبدو إنهما حارسان خصوصيان ، قويان يستطيعان الفتك بمائة رجل . يترك السرادق ويذهب الى آخر . يحدث نفس الشيىء .

ظل ليال كثيرة يفعل ذلك ، وكل ليلة حتى الفجر . لم يفز إلا بعناوين اللافتات التى صار يحفظها . والتى تعلن عن الراقصة النارية ، والراقصة البهلوانية ، وراقصة كل ليلة ، نانا زمبلك وكبريت وهوا وكهرباء ونحو ذلك . بعد أن أمضى حوالى شهرين فى هذه المطاردة الخائبة ، اكتشف إنه نسى كل شيىء عن أهله وعشيرته ، فقرر للمرة الأخيرة أن يحدث سميرة ولو كلفه ذلك حياته ، وبالفعل استطاع . رآها تخرج من أحد السرادقات فتوجه اليها كطلقة نارية . أمسك بذراعها ولم يدر ماحدث بعد ذلك أو كيف ؟.

وحتى الآن ، بعد انقضاء عام كامل ، وقد قرر أن يعود فى الصباح ، والجراج يتسع أمامه متوحشا فى هذه الليلة الصيفية التى تجمعت فيها حرارة ورطوبة السنين كلها ، والعربات الواقفة أمامه تبدو مثل قبور مهدمة . حتى الآن لا يعرف هل كانت الضحكة الطويلة الممدودة الرفيعة العميقة التى انقذفت الى أحشائه كسكين ثلمة ، ضحكة سميرة حقا أم لا ؟.

هل كانت سميرة التى ضحكت أم أن شيطانا داعرا تلبسها ؟. حتى الآن لا يذكر صورة لما حدث الا كصور أفلام العصابات . حين تحدث معركة سريعة تطير فيها الأجساد بطريقة محكمة ، وتنتهى فى ثوان مخلفة وراءها قتلى وجرحى . ثم يقف بطل الرواية سليما معافى ويتقدم الى الأمام معيدا ترتيب ثيابه فى أناقة ، ويقبل الفاتنة الحسناء .

لكنه فى تلك الليلة لم يرتب ثيابه ولا قبل الفاتنة الحسناء . فما كاد يمسك بذراعها حتى هجم عليه الشخصان القويان . أسرع من الخفاش طار فى الهواء ، وضرب أحدهما بقدميه والآخر بيديه معا فى وقت واحد فسقطا فوق الأرض فاقدى

الوعى . وقف ينظر إليهما والنار تطير من عينيه ، ولا يكاد يصدق أنه هو الذى فعل ذلك . الذى ينظر اليه حين هجما عليه كان يرى أنه ميت لا محالة ، فجسمه الذى نما نموا هائلا لا يضاهي نصف جسم أى منهما . وهو لا يعرف من أين واتته هذه السرعة فى الحركة . ولا كيف استطاع أن يتفوق عليهما . وقف عازف الأكورديون والطبال مبهوتين وقد تملكهما الخوف ، فرفع كل منهما آلته أمام وجهه يحتمى بها . لكنه كان قد أدرك ما يريده بالضبط . أسرع الى سميرة وأمسك بذراعها فصرخت إذ أحست أن ذراعها تكاد تنفصم تحت أصابعه . كان يعرف أن الزحام الشديد أمام السرادق مركز الأبصار عليه ، وكان يتوقع هجوما من كل جهة ، فصار متحفزا كله . لكنه وجد نفسه يقول لها بألم بالغ .

— أنت سميرة . ألا تذكرينى ؟ أنا على أخو ليلى .

لكن سميرة نظرت اليه من أعلى إلى أسفل . وكان قد ترك ذراعها فتنفست. بدا أنها تتذكره. راحت عيناها تترقرقان بدمع شفيف. ثم انطلقت فى ضحكة فاجرة طويلة رفيعة عميقة كسكين ثلمة تلوت فى أحشائه . وتركته واقفا لا يعرف ماذا يفعل ؟

غير أنه بعد ساعة ، وجد نفسه يدق بعنف باب بيت أحد زملائه من العاملين فى الجراج . حينما خرج له زميله قال بسرعة وحدة .

— ارتد ثيابك فورا .

— ماذا جرى .؟

— ستعرف فى الطريق .

أحس بالذل والتفاهة . كان غاضبا . وكان مشتاقا . قال لزميله فى الطريق .

— المرأة التى حدثتنى عنها كثيرا هل نجدها الآن ؟

قهقه زميله مندهشا . فطالما عرض عليه أن يذهب معه الى هذه المرأة التى حدثه عنها كثيرا ، لكنه كان دائما يرفض .

أخذه الزميل الى شارع ضيق بعد أن استقلا تاكسيا قطع بهما مسافة طويلة وأنزلهما على شاطىء البحر عند الطرف الشرق للمدينة . كانت البيوت على جانبى

الشارع الضيق مغلقة . والوقت بعد منتصف الليل بساعتين . أسلمهما الشارع الضيق الى حارة أضيق ، قذرة امتلأت أرضها بمصاصات القصب والبراز الذى تصعد رائحته اليهما. عند باب واسع أكثر مما ينبغى دخلا . صعد الزميل السلم الخشبى القديم مكسور السياج ، وصعد هو خلفه . وضع زميله سبابته على شفتيه إشارة له أن لا يصدر صوتا . صعدا طابقين . عند الطابق الثالث الذى كان مظلما جدا توقف على مقطوع الأنفاس يشعر بالعرق يغطى جسمه ، وبشعر رأسه يقف مثل شوك القنفذ ، بينما جعل زميله يطرق الباب ثلاث طرقات خفيفة .

بعد لحظات أضيئت لمبة صغيرة معلقة أعلى الباب من الخارج . فتحت الشراعة وأطل منها وجه عجوز متلفحة بشال أبيض . أشار لها زميله اشارة متفق عليها ففتحت الباب بهدوء . دخل وعلى خلفه .

وكأنما قرر شيىء ماقى الكون أن يواجهه بكل شيىء مرة واحدة ، بدا كأن القوى الخفية التى دوت فى رأسه ومازال ، ودفعته الى مدينة يجهلها ، قد قررت أن تكشف له عن المستور كله .

فى تلك اللحظات ما كان يريد غير أن يدفن غضبه فى ساعة هروب عقيمة . وكان قد نسى تماما أن المكان الوحيد الذى يمكن أن يجد عنده حلا ، وهو هندسة السكة الحديد ، لم يصل فيه الى شيىء . أن سميرة التى ملأت المدينة قد سخرت منه ، ولم يستطيع أن يعود بها فيكسر دائرة الزمن الجهنمية . وصفاء التى أضاءت ذهنه رحلت ، ولم تتم حديثها الذى كم ود لو اكتمل ، بينما كادت سعاد أن تمحى من ذاكرته تماما ، وأحس وهو جالس فى الردهة يتطلع الى المقاعد العريضة المغطاة بقماش مورد حالت الوانه ، والى المناضد الصغيرة فى الأركان فوقها أكياس قطن وزجاجات صغيرة لا يعرف ماها ، أن هناك اصرارا فى الكون على سحقه .

كانت العجوز المتشحة بالبياض قد دخلت حجرة مواجهة وعادت بعد

لحظات فقدمت لهما سجائر وهى تقول «قليلا وسيخرج الزبون . لقد تأخرتما كثيرا !»

دخن لأول مرة فى حياته ، ود لو أكل السيجارة وابتلعها ، لم يغب عن ذهنه أن الكون مصمم على سحقه . وخرج الزبون الذى رآه رجلا أسود ضخما ذكره وجهه الملىء بالحفر بوجه زيدان الذى لا يعرف أين وصل الآن . وبعد لحظات قليلة يئس خلالها من كل شيىء ، ولم يعد يشعر حتى بوجود زميله جواره ، خرجت اليهما زينب زوجة حامد !

انها زينب ولا أحد غيرها . يعرفها جيدا والا مادب النمل فى ساقيه ، وما اضطرب قلبه . زينب التى مارآها إلا محتشمة فوقها تل من الثياب ، وفى ذيل جلبابها تعلق أطفالها الثلاثة ومخاطهم سائل حتى صدورهم . ترتدى الآن قميص نوم أبيض يفضح جسدها البرونزى . يقف زميله لاستقبالها ويبتسم وهو يقول أنه جاء من أجله ، يعنى على ، وأنه سيتركه لها . ثم يقول متخابثا أنه غشيم ! ويقهقه بينما تبتسم زينب وهو محترق الصدر والرأس ، يشعر أن شخصا فتح رأسه وقلب داخله فحم الفواريكة كله .

انصرف زميله وظلت هى واقفة أمامه متعجبة لأمره اذ وضع رأسه بين كفيه ، وأطرق ناظرا الى الأرض من بين ركبتيه .

كان يحس بالعجوز وهى تقف بعيدا أمام باب إحدى الحجرات تنظر اليهما فى دهشة ، ويفكر أن زينب قد لا تعرفه أبدا . إن جسمه هذا الذى نما نموا هائلا لاشك أمر مضلل . أما وجهه الذى لم يره فى المرآة منذ شهور ، فلن يختلف عن جسمه بالتأكيد .

جلست زينب فوق الأرض باسمة متحيرة قليلا . كانت جميلة تبدو كمصباح صغير شاحب فى ليلة مظلمة . قال .

— كيف حالك يا زينب ؟

اضطربت .. قالت بهدوء .

— ماذا تقول ؟

رفع وجهه ونظر اليها نظرة طويلة ثابتة . قال

— كيف حالك يازينب . ألست زينب ؟

أخذت شفتاها فى الارتعاش . لم تستطع أن تسيطر عليهما . أشارت للعجوز أن تدخل . لم ينتظر أن تتكلم . قال .

— انظرى الى وجهى جيدا .

نظرت .

وحدثته كثيرا بعد ذلك . كان طوال حديثها يردد لنفسه «أى روح شريرة تلبستنا جميعا ؟» . قالت له أنه قد كبر كثيرا كأن أعواما طويلة قد مرت ولا أحد يدرى . فقال لها دون إرادة أنه قد شاخ وانتهى . وبكت فى النهاية .

أخذته بعد ذلك الى حجرة مغلقة . حين فتحتها رأى أم جابر العجوز متكومة فى ركن والأطفال الثلاثة فى ركن . قالت أنها — العجوز — صارت تخرف ولا تتحرك ، وتبول على نفسها وتطلب الموت الذى لا يجىء . تقول أن جابر خدعها وناداها وهى توشك أن تغرق فقررت أن تنتظره لكنه لم يأت .

لم يكن على يعرف أن أم جابر قد غادرت المنطقة هى أيضا . سألها كيف جاءت إلى هنا ، فقالت له أن الذى أحضرها هو الذى عاد وأحضر أم جابر والأطفال . وجدهم فوق الجسر نائمين جوار خص مهجور . سألها عن ذلك الذى أحضرهم ، فقالت له المهم الآن أن تراه كثيرا فهو رائحة طيبة من الماضى الجميل !

خرج ساخطا . قال يارب لماذا حملتنى أن أخرج خلف مالا

أعرفه دون العالمين ؟ . وكان أبوه حين ينتهى من الصلاة يدعو الله قائلا «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا». وقال أنه لو كان واظب على الصلاة خلف الشيخ مسعود لأسعفته الذاكرة بأدعية كثيرة . فهذا زمن لم يبق لبنى آدم فيه غير الدعاء . يصل الى السماء أو تطيره الرياح ! ثم قال «اللهم ان لم تكن لى عونا فلا تكن على نقمة». وأسرع يمشى فى الطرقات .

كان الفجر قد مضى وشابورة كثيفة تغطى المدينة فأحس كما لو كانت قد انتقلت الى السماء . تذكر حين يخرج مبكرا لصيد السمك والشابورة تغلف الدنيا ، وهو يتبارى مع أترابه فى من يخرج من فمه مع الزفير بخار ماء أكثر .

حين بدأت موجات البخار تشف ، وظهرت له المبانى العالية وكادت تملأ عينيه ، وكان قد وصل الى شاطىء البحر ، أحس بها تكاد تسقط فوقه . كانت أرض الشارع مبللة،رائحة البحر تملأ أنفه ، برد الصباح يكاد يطويه على بعضه . لكن صوت الموج الهادر كان داعيا مبهما فخلع ثيابه وهبط الى البحر . غطس بسرعة فى الماء ثم وقف بالقرب من الشاطىء متخشبا يقاوم الارتعاش ، نصفه الأسفل تحت الماء والموج يضرب فى نصفه الأعلى .

المدينة حوله طويلة منحنية كأنها حضن أم غريبة ! . خلفه وأمامه قوارب كثيرة فارغة متفرقة بلا نظام ، وشباك منشورة فوقها ، أو على الرمال فوق أعمدة خشبية رفيعة ، فتذكر يوم مجيئه ، وأول ما قابله من المدينة عند طرفها الغربى . لكنه حين رأى الكورنيش الطويل الممتد منحنيا مع امتداد الشاطىء وخاليا ، والبيوت العالية الممتدة بازائه مغلقة النوافذ،تساءل على أى شيىء نامت وعلى أى شيىء تنهض هذه المدينة . أحس بالخطايا تملأ الأركان ،، وتشع من خلف الجدران ، وتمرح فى الطرقات تزحم الفضاء الذى خلقه الله رائقا نظيفا .

غادر الماء وارتدى ثيابه وهو يتساءل متى كان حضن الأم الغريبة حنونا ؟. أخذ طريقه الى الجراج ماشيا رغم بعد المسافة .

صارت المدينة تستيقظ من حوله . جعل ينظر فى وجوه الناس . ولأول مرة يرى الغرباء الذين سمع عنهم . والذين انقسم الناس فى شأنهم . تذكر أن آخر قطار رآه يحمل الخواجات كان يقف بعيدا عن المحطة ، وأنه اندهش لذلك . الآن بدا له كأن هذا القطار كان متحفزا لشيىء . تماما كما يبتعد الانسان أو الحيوان للوراء قليلا حين يقرر أن يهاجم شيئا أقوى منه أو يتوقع أن يكون قويا . أحس أن هناك دخانا غير مرئى يملأ عينيه تصدره محرقة عظام بريئة . وفى هذا اليوم بعد أن وصل الى الجراج متعبا جاءت صفاء فى زيارة سريعة لأخيها عند الظهر . لم يطلب أخوها منه أن يقدم اليها الشاى . لكنها أرسلت فى طلبه فذهب لا يتوقع خيرا .

— أما زلت موجودا .؟

— ....

— لايغرنك جسدك القوى . أنت صغير وهذه المدينة ستشهد أياما صعبة .

تردد قليلا ثم قال .

— كنت أريد أن أحدثك فى شيىء ..

قالت بحزم غريب .

— لا معنى لأى شيىء .

أراد أن يحدثها فى أمر سميرة وزينب فسدت الطريق بكلام ملغز . أحس بالإلتياع يجتاح صدره ، وبالشوق العارم للأيام القديمة . لكن تبقى له بعض أيام يقضيها يتحدث مع زينب .

أصبحت حياته فى الجراج على وتيرة واحدة ، عمل بالنهار ونوم بالليل . لم يعد يذهب الى السرادقات التى عرف بعد ذلك أنها إزيلت عن آخرها . أن الأجانب الذين يفدون على المدينة بكثرة هذه الأيام ، قد استغلوا أماكنها فى اقامة فنادق ضخمة يقول الناس عنها أنها ستكون بيوت دعارة لأجمل فتيات العدو القديم . ويتحدث البعض بسخرية ، الآخرون يتحدثون بشبق ، ويقولون أن الشوق قد طال لهذا النوع من الفتيات والنساء اللاتى كن يملأن المدينة قبل دوران السنين . عزف عن حضور الأفراح . وعرف بيقين قاطع أن سميرة لن تظهر فى المدينة مرة أخرى .

زار زينب للمرة الثانية بعد أيام قليلة . حدثها بأمر سميرة فقالت له كثيرا مايكون الخيال كالحقيقة . وأنها لو كانت سميرة لتحدثت اليه كما فعلت هي .وحين رأته يتلفت حوله ليرى أم جابر والأطفال إذ أن الوقت نهار ، قالت له أنهم لا يخرجون من الحجرة . وبكت وهى تقول أن الأطفال لم يعودوا يكبرون بينما تتضاءل أم جابر يوما بعد يوم !

لكنه رأى على وجه زينب صفرة عميقة ، وفى عينيها هروب الى شيىء غامض اتضح له فى الزورة التالية . لقد وجد العجوز التى فتحت الباب اول مرة ووجد معها امرأة أخرى . حين سألها عن زينب قالت أنها لا تعرف أحدا بهذا الاسم . حدثها عن أم جابر والأطفال فقالت أنه يهرف بأشياء غريبة . انطلق كمجنون يبحث فى الحجرات فلم يجد إلا ثلاث نساء عاريات قبيحات ، وثلاثة رجال سود مكتهلين . خرج بعد أن توقف فى الردهة قليلا يكاد ينفجر بالغضب . لم يفعل شيئا للمرأة الأخرى التى تقدمت نحوه بعهر عارم .

بات تلك الليلة يتساءل أين الحقيقة وأين الخيال ؟ . أين ماقالته زينب التى لم يمسسها . ؟ أين زينب ؟ جعل يحصى الأيام التى أمضاها فى المدينة فوجدها أحدى عشر شهرا لم ينجز فيها شيئا ، ففكر أنه قد آن أوان الانطلاق .

فى الصباح لم يأت صاحب العمل . سمع العمال يتحدثون عن سفره المفاجىء الى المدينة التى انتقل اليها أبوه . حدس غامض أسر اليه أن شيئا سيحدث . فى اليوم التالى سمع العمال يقولون أنه – صاحب الجراج – كان قد تلقى فى منزله مكالمة تليفونية من أبيه ، فعلم أن صفاء أخته قد قبض عليها ضمن مجموعة كبيرة من الطلاب يناؤون دخول الأعداء الى البلاد .

لم يكن سير العمل على ما يرام فى هذا اليوم اذ وردت اليهم سيارات من أنواع لم تكن ترد من قبل . سيارات فارهة الطول والعرض يقودها صبية وفتيات صغار . أو رجال قبيحو الوجوه لهم كروش بارزة . يتحدثون بصعوبة . واذا ضحكوا

يضحكون بشراسة . شاهد الميكانيكية يتشاحنون على استقبال هذه العربات . شاهدهم يلعنون العربات وأصحابها بعد أن تمضى . وقالوا عن أحد أصحاب هذه السيارات ، وكان يجلس فى الخلف ويقود سيارته سائق أسود ، انه بدأ حياته حمالا فى الميناء ، ثم استطاع أن يضرب ضربة كبرى فى صفقة مخدرات ، تحول بعدها إلى أكبر تاجر أخشاب فى البلد . والغريب أن معظم هذه السيارات لم تكن مصابة بأعطال !.

ابتعد هو وقبع فى ركن . تذكر فريد فارتعد خوفا على صفاء . فتلك الفتاة الجميلة، صغيرة الجسم كالفراشة تتحرك كالعصفور حين يدور قافزا حول « الناطور » الحجرى ، ويقفز ويتقافز فوقه قبل أن يأكل الطعم الذى فى الفخ المغطى بالتراب ، فيطبق عليه الفخ . وأحس بشيىء يطبق على قلبه .

قالت له أمه أن الطائر لا يقع فى الفخ لأنه غبى ، ولكن لأنه يستسلم للجوع . من يستسلم للجوع يفقد العقل . فقال لها وكيف اذن يقاوم الجوع ؟ قالت بأن يفكر كيف يأكل !. لكنه لم يفهم إلا أن الطائر الجميل يقع فى نهاية الأمر . رأى صفاء تنظر اليه من خلف سور عال ، وتناديه عبر فضاء النهار ، قائلة لقد طال الانتظار .

فى اليوم التالى وجد كل العاملين متكومين حول أحدهم يقرأ لهم من صحيفة والدهشة على وجوههم . سمعهم يقولون ألفاظا بذيئة يوجهونها لأحد الأشخاص تظهر صورته فى الصحيفة . اقترب منهم ونظر مثلهم فرأى صورة غريبة لجثتين متجاورتين .

كانت الصورة بشعة لدرجة كادت تفقده الوعى . انتقل للصورة الأخرى جوارها ، والتى بدا أن العمال يوجهون الشتائم اليها . كانت لرجل يبدو على وجهه العنف والشراسة والخبث الشديد . عرف القصة كلها .

كان المنشور تحت الصورتين يقول أن المهرب الكبير الذى كان يقوم بالتهريب من الدولة المتاخمة للحدود الغربية أفلس وتحول بعد أن انفض عنه شركاؤه وعملاؤه — ولم تشر الصحيفة الى أسمائهم — الى التجسس . وأنه قد تم

القبض عليه فى قضية تخابر واسعة . ووجدوا أنه قد بنى فيللا فى مكان بعيد فى الصحراء كانت مركز التهريب . وأنه احتبس فيها شخصين مجهولين لفترة طويلة بلا طعام ولا شراب حتى ماتا وتعفنا .

دقق النظر فى صورة الجثتين . تعرف على الوجهين المختفيين تحت الشعر والموت الأصفر .

رأى ليلى وردة تذبل أمام عينيه . سعاد قمرا تحاصره السحب السود . شاهد أباه يسجد فى الصلاة فلا يقوم . أمه تأخذ أخته الصغيرة وتقطع فوق الجسر رحلة لا نهاية لها . ماكاد يسأل نفسه كيف نسى الجميع ، وأى عام قضاه ، حتى ملأت عينيه سيارة كاديلاك سوداء وقفت أمامه تماما . كانت الشمس لاهبة . وكان العام قد دار دورة كاملة .

هبط من العربة صاحب الجراج الذى لم ينظر الى أحد واتجه مباشرة الى مكتبه، خلفه رجلان غريبا الهيئة . وقف العمال مبهورين وشل المشهد حركتهم وعقد الألسنة . أما هو ، على ، فقد اتخذ قراره .

•

أقبل اليوم الذى لم يكن يتصور أنه سيأتى . كان الجراج يتسع أمامه موحشا فى هذه الليلة الصيفية التى تجمعت فيها حرارة ورطوبة السنين كلها !. وبدت العربات التى ستختفى فى الصباح أمامه مثل القبور المهدمة !!. وكان مايزال لا يعرف هل كانت الضحكة الطويلة التى تلوت فى أحشائه كسكين ثلمة ضحكة سميرة أم لا !؟. لكن الذى صار يعرفه جيدا أنه لو فتش فى أركان المدينة سيجد نعمة زوجة زيدان وسيجد المفتش وزوجته . ولعله يجد زيدان وعبد الله . والذى صار يعرفه جيدا أيضا أن القوى الخفية لم تعد تطن فى رأسه . بل صار يحس به فارغا يكاد يسمع داخله صوت الهواء السابح

فى فجواته . هذه الليلة الأخيرة ، كيف كانت كعام كامل . لايعرف احساس الانسان اذا وضع داخل فرن،لكنه يشعر أنه داخل فرن مترب برماد عظام كثيرة سبقته .

فكر طوال الليل فى أمر الجراج وكيف آل الى مالك جديد . كيف أن هذا المالك الجديد سيهدم المبانى القليلة التى به ليبدأ فى ارساء الأساس لفندق كبير . فندق قالوا أنه ليس هناك مثله فوق أرض الله . جدرانه كلها من زجاج صقيل . يرى فيها الناظر من الخارج نفسه ويرى من بداخلها كل ما هو بالخارج . يرتفع مائة طابق . فوق سطحه سيعد مهبطاً للطائرات . والجدران الداخلية ستكون كلها من زجاج أيضا ، لكنه شفاف بحيث يرى نزلاء الحجرات بعضهم . عرايا أو فى أى وضع . فالمهم هو أن لا يراهم أحد من خارج الفندق . أما بداخله فليكونوا عائلة واحدة . ولضيق المكان سوف يشترى المالك المنازل والشوارع المحيطة بالفندق وسيهدمها . سيقيم مكانها سينما يدخلها النزلاء فقط . وسيشق مجرى مائيا من البحر الى حوض واسع أمام الفندق . سيكون المجرى واسعا بحيث يسمح للامواج أن تدخله عالية عريضة كما هى ، ويسمح بدخول السفن . وهكذا سيكون نزلاء الفندق من القادمين بالبحر فقط ، أو بالطائرات التى ستهبط فوق السطح . ولن يسمح لأحد أن يأتى بسيارة لأن هذا يعنى أنه أتى من داخل المدينة أو الوطن . وسيتم اعداد سيارات خاصة تقل النزلاء فى رحلات سياحية ، وان كان النزلاء لن يفضلوا مبارحة هذا الفندق الساحر . أما لماذا قرر المالك الجديد أن يفعل هذا كله فيقولون أن السبب ليس كثرة الأموال لديه . فهذا أمر يأتى فى المقام الثانى . السبب الرئيسى أنه مشلول . ولد هكذا قعيدا . ولأنه لا يستطيع السفر ليرى الدنيا فى الخارج قرر أن يأتى بالدنيا هنا ويراها عن كثب . وذلك ماجعله يفكر فى هذا التصميم الجهنمى . .

لم يصدق . ثم قال لنفسه لماذا لايصدق ؟ ورأى صاحب الجراج يلملم أوراقه وأشياءه القليلة فى حقيبته ويحملها الى العربة الكاديلاك ثم رآه يعطى بعض النقود للملاحظ كى يدفع منها مستحقات العمال، ورأى العربة تنطلق به والعمال

يشتمونه لأنه لم يودعهم ، بينما كان هو يفكر هل يستطيع أن يسأله عن صفاء . ؟

اختفت العربة فأحس أن رأسه قد فرغ من كل شيىء ، وبالليل أحس أن جسمه يعود شيئا فشيئا الى حجمه الطبيعى . نظر الى النجوم المتزاحمة فى السماء ، الى القمر ، وتساءل على أى شيىء تنظر . حين نهض من نومه الذى لم يحدث أراد أن يرتدى سرواله وقميصه فلم يجدهما . طال بحثه عنهما ثم اكتشف انه لم يخلعهما . ترك كل ماتجمع لديه من أشياء طوال العام وأخذ طريقه مغادرا المكان قبل أن يستيقظ سكان المدينة إلى حيث جاء منذ عام . ترى ماذا سيحدث الآن ؟ هذا ماسأل به نفسه ، وأجاب بأنه لن يكون خيرا أبدا ، لذلك يريد أن يضحك .

كان الوقت مبكرا جدا . عرج على مقهى صغير فى ركن من شارع ضيق . لم يكن بالمقهى أحد . والنادل مايزال نائما . جلس ولم يشأ ايقاظه . حين استيقظ كانت المدينة أيضا قد بدأت تستيقظ . جعل يشاهد الخارجين من بيوتهم . لا يعرف لماذا أعجبه ذلك . رآهم متعثرى الخطى كأنهم يستيقظون بعد نوم مئات السنين . جعل يتفرج على الحدبة الغريبة التى فى ظهر كل منهم . رأى أن أكثرهم يسير ناظرا الى الأرض . لم ير إثنين يسيران معا . قال لنفسه أنه لو استمر يراقب الناس سوف يجن . لكنه لم يستطع أن يكف . رأى أن من يقبل على المقهى يقف قليلا ويتلفت حوله أكثر من مرة ، ثم يختار مقعدا بعيدا عن الجالسين . رآهم لا يتحدث أحدهم الى الآخر . بدت له المدينة وكأنها تستيقظ على خصام عنيف .

ارتفعت الشمس ثأرية النيران . كأنما الظهيرة أقبلت فى الصباح الباكر . قال فى نفسه أن كل شيىء قد فارق الميزان . والمدينة هذه وزوجة الشرطى البدينة تعرفان كل شيىء وتتحركان بصعوبة . نهض .

أخذ طريقه تحت الشمس اللاهبة . كان يعرف أنه على طول الشاطىء لن يجد أحدا . على عكس مارأى وهو قادم لأول مرة . تساءل فقط لماذا لم يعد يتذكر أهله جيدا . لذلك لم يكن مندهشا حين عاد ورأى مارأى .

القيامة

— ماذا ستفعل أنت الآن ؟

ابتسم ناظر المحطة العجوز ذو العينين الصغيرتين لا يميز لونهما ، والشعر الأبيض والوجه الأحمر المليء بالغضون . وأشار الى الأريكة .

نظر علي حيث أشار فبادره الرجل .

— هذه المرة لن تطول . فغدا على الأكثر سيأتي شاب من هؤلاء ليحل محلي .

وأشار الى المنطقة أمام البحيرة . الى البيوت المهدمة . بينما كان علي ينظر الى السلة الكبيرة المغطاة بقطعة الشاش الأبيض وتبدو عليه الحيرة . قال ناظر المحطة :

— لا تبتئس . فهاهو بائع الروبابكيا يأتي من المدينة بعربته وحماره ويمكن أن يحملكما اليها .

كان على قد أمضى ليلة أمس مع ناظر
المحطة . سمع منه خلال الليل مالن ينساه . كان قد وصل من المدينة فرأى الشمس تبرح مكانها فى منتصف السماء . بدا له أنها مثله تلقى نظرة أخيرة على البيوت التى صارت مهدمة . ورأى من بعيد نباتات الحلفاء جامدة لا تتحرك ، وهو الذى كان يعشق هسيسها حين تمر بها نسمة ليل أو ريح نهار .

وقف عند رصيف المحطة ينظر الى البيوت التى صارت أكوام أحجار يرفعها بلدوزر ضخم ، يقوده شاب عارى الصدر يلمع جسمه من بعيد ، ويلقى بالأحجار فى مياه البحيرة . تخيل مئات الأسماك وهى تموت تحت تلال الأحجار والتراب . الأسماك التى لاشك قد تكاثرت طوال انقطاع الصيد كى يحصدوها يوما اذا انفك الكرب . أدرك من زحام البلدوزرات ، ومعدات وأدوات البناء الضخمة أو الأعداد الكبيرة التى تلمع من الأجساد نصف العارية ، أنه لايجب أن يقترب من هناك . خاصة أنه رأى ثلاثة يمدون سلكا شائكا يحاصرون به المنطقة . لكن هل يستطيع أن يمنع الدفق العنيف الذى يتفجر داخله ويكاد يطيره فى الفضاء دافعا به الى الاقتراب ؟ ..

أسرع يعبر القضيبين الرئيسين اللذين تمر فوقهما القطارات الذاهبة الى الصحراء والقادمة منها ، واللذين كان يصطاد القنافذ من بينهما . وحين وصل الى قضيبى القطار اللعين ، وجدهما حائلين ، التويا فى أكثر من مكان وارتفعا عن العوارض التى تحتهما . رأى عارضة التصادم الخشبية قد ازيلت وصارت ملقاة فوق الأرض . حولها عصافير قليلة تلتقط ديدان صفراء تلمع تحت أشعة الشمس . عصافير لم ير مثلها من قبل . ذات شعر وليست بذات ريش !

فكر أين ذهب الناس ؟. أين يجد أسرته الآن ؟. هذا مايقوله له الدفق العنيف الذى صار داخله . أسرع أكثر وهو يشعر بأنظار الخواجات نصف العراة مصوبة اليه من بعيد . رآهم يشيرون اليه ثم ينصرفون الى العمل . كانوا يتحدثون ولا يسمعهم . ويملأ الجو غبار التراب ترفعه الآلات الضخمة . رأى بعينا ناحية

اليمين بعض مبانى خشبية تخرج منها فتيات وشباب ويعودون اليها . شاهد أبعد من ذلك ناحية الغرب تجمعات من الدبابات والعربات المصفحة ، والجنود فوقها كأصنام .حين صار بين تلال الأحجار البيضاء الصغيرة ، تلك التى كانت بيوتا لهم يوما ما ، أحس بالشمس كأنها أقعت داخل رأسه وأشعلت فيه النار . وأحس أن الأرض ، لأول مرة ، تدور وتدور حقا . وأن ملح البحيرة ، والبحر الذى هو أكبر منها ، هما من دموع الناس ، وسقط جالسا فوق التراب جامدا كحجر .

ظل طويلا ساقطا فوق الأرض . حين
أفاق أدرك أن النهار قد انقضى لأنه رأى حوله الظلام . لم يشعر بالجوع ولا العطش . تذكر فقط أن النهار الذى بدا بمدينة متخاصمة ، انتهى بماض تبخر .

قرر القيام بعد أن سمع صوت طلقات نارية أدرك أنها التى أيقظته . تلفت حوله فوجد صواريخ زاهية الألوان تطير فى الظلام . سمع صوت ضحكات عربيدة ، وصرخات عاهرة ، قادمة اليه من المبانى الخشبية البعيدة . كانت أضواء المبانى شديدة فرآهم يرقصون فى عنف . حين غمر الأرض ضوء متسع رنا ببصره الى السماء ، فوجد القمر مسرعا فى الصعود .

بانت له البحيرة كما عهدها صافية جميلة تلمع على سطحها أضواء القمر السارة . لكن شاطىء البحيرة ، وبداية مياهها فى أكثر من مكان ، صار بشعا من أكوام التراب والأحجار الكثيرة التى ألقيت عليه . فكر أنهم لابد سيردمون البحيرة كلها . ولا يعرف ماالذى جعله يرنو ببصره بعيدا الى الجسر .

صار يبحث عن أضواء مصابيح قديمة كانوا يرونها كل مساء فيعرفون أن فى

الدنيا بشرا خلقهم الله غيرهم ، رغم أنهم كانوا يذهبون كثيرا الى الجسر بالنهار ويرون أولئك البشر . لكنه لم ير المصابيح ولم يستطع أن يميز مكان الجسر . فكر أين يذهب الآن فى هذا الليل . نهض يترك نفسه يمشى فى بطء شديد .

الأرض التى درج عليها تشده أن لايبرحها . لكنّ أين الناس والأطفال والمبانى والعشش ونقنقة الدجاج ؟.

•

قام كل شيىء حوله كما كان . المبانى المنخفضة ذات الدور الواحد . أطلت عليه الميازيب المعوجة . جرى الأطفال خلف بعضهم واستخفوا . وجعلوا يجهزون أدوات الصيد ويصلحون الفخاخ . أقبل أحدهم يحمل سلة من السلك مليئة بالعصافير التى اصطادها ووجهه معفر بالتراب . ثم جرى من بينهم لا يريد أن يرى أى منهم ما اصطاده . فأمه قد حذرته من الحسد . وأبوه علمه أن يقضى حاجته فى الكتمان . لكنه عاد يحكى لهم عما اصطاده وعدده وصفاته . ثم حكى لهم كثيرا عن أبيه الذى يشخر طول الليل ويضرط ! ضجوا بالضحك وضربوه استحسانا . وتهامسوا حول سعاد والرجال . وحول روائح التى تجلس بعيدا ولا تدرى أن فخذيها يظهران من تحتها . قال أحدهم أن لعرفة عسكرى لئيم وابن كلب لأنه يضرب النساء على مؤخراتهم . ضحكوا على زيدان الذى كان يبكى وهو منطرح على الأرض بعد أن دفعته نعمة زوجته وهددته بالرحيل . وقال آخر أن أقوى رجل هنا هو عم حامد لأنه نحيف ويستطيع أن يجرى بعربة المفتش طول النهار . لكن احدى بنات عبد الله قالت أن أباها أقوى لأنه عجوز ويمشى وحده طول النهار وسط الصحراء ولا يخاف . ثم قرروا جميعا أن يذهبوا كى يقذفوا الشيخ مسعود بالزلط الصغير وهو جالس وحده فى الجامع . وبعد ذلك يذهبون ليقذفوا ناظر المحطة النائم بالتراب . قام هو من بينهم ليصطاد القنافذ . أخذ يدعو أن تأتى سحابة تغطى القمر حتى لا يكون له خيال وهو يسير . أن يشترى له أبوه صندلا من فوق الجسر حتى لا يؤلم الزلط قدميه ولا تتسخان بالمازوت . ثم قال ولد أن فريد سيكون رئيسا للسكة الحديد وأنه سيمنع قطار الكنسة ، ويرسل بدلا منه قطار سمن وثياب . وجاءت أم أحدهم تناديه فأخفوه . لكنها سحبته من بينهم وأوسعته ضربا وشتما وهم يضحكون ويجرون الى كل ناحية .

كاد يسقط فوق الأرض من جديد . لكنه انحنى يمسك بحفنة من ترابها يقبلها . أجل يقبلها الصبى الصغير الذى نما جسمه نموا هائلا ، وصار يتضاءل الآن . الذى طاردته قوى خفية سكنت رأسه عاما كاملا . وتاق يوما أن يلقى حجرا يطير فى الفضاء ولا يسقط . من بات يعرف أن الماضى الذى كان ينسحب من رأسه كان ينسحب أيضا من الوجود . صار الصبى الصغير يعرف ما يعرفه الكبار ، لكنه يحن الى هذه الأرض رغم كل شيىء . وانه لو عرف أن لله طريقا واضحا ، ولو كان طول الدنيا وعرضها ، لذهب اليه كى يسأله السؤال الذى يدوى فى رأسه الآن . لماذا خلق الناس وخلق الشيطان وظل يتفرج عليهم كل هذه السنين ؟ وكيف تكون الهداية والغواية ؟ ولماذا كذبت أمه عليه ؟. ولسأله ايضا ما بال كل شيىء حوله يتهاوى حتى لو أقامه الخيال ؟ فالمبانى التى قامت حوله منذ لحظات طارت فى الفضاء مجللة بالأضواء ثم سقطت فى البحيرة . والأطفال الذين تحلقوا منذ قليل فى دائرة بريئة طاروا مع المبانى وسقطوا معها فى الماء . لقد سمع صوت السقوط المدوى .ورأى ماءالبحيرة وهو يرتفع حولهم الى السماء ثم وهو يسقط من جديد .

لكنه تمالك قوته وبدأ السير . تعثرت قدمه بشيىء حاد فانحنى ليلتقطه . لقد تعود دائما وهو يسير أن ينحى جانبا كل ماقد يعوق الطريق . هكذا علمته أمه ، وقالت أن الطرق لله . أمسك بذلك الشيىء الحاد وجذبه فوجده ثقيلا . أدرك أنه أمسك بأذن فواريكة . وتماما كرجل طيب ينحنى ليرفع ابنه من الأرض ، جعل يحفر التراب من حولها ليخرجها . ولما خلصت له عرفها . كانت من الزنك الصقيل الأبيض . انها فواريكة حامد . فالمفتش الذى كان لديه مثلها رحل وأخذ معه كل شيىء . دق قلبه وهو يتساءل ، هل عرفت زينب الآن فى مستقرها المجهول ما حدث لزوجها ، هل عرفت أم جابر ما آل اليه أمر ابنها ؟ وسقطت الفواريكة من يده وبدأ يمشى . فكر أن يقترب من المبانى الخشبية اللاهية .عدل وأخذ طريقه الى المحطة المضيئة .

قال له ناظر المحطة :

— هذه ياولدى الحكاية من أولها . ولم يبق غير ما حدثتنى به سعاد .

بدا له الرجل الذى نام طويلا كأنما كان قد أغلق عينيه على الدنيا . كان الوقت قد صار منتصف الليل . خلال حديث الناظر كان النوم يدور بعلى بعد أن أمضى يوما صعبا . كانت سعاد فى مخدعها الجديد فى ركن من غرفة الناظر ، الذى كان يلقى اليها بين الحين والحين بلقمة صغيرة من الخبز الجاف . قال على فى نفسه علها قد نامت الآن . ولم يكن قد رأى وجهها بعد . لم يكن يعرف كيف يكون نوم هذا المخلوق الجديد !

تساءل هل كان هناك من يعرف قصة ناظر المحطة ؟. كل من كانوا هنا كانوا لا يعرفون الا أنهم هنا فقط . حتى المدينة كان ما يربطهم بها بائع روبابكيا يأتى كل أسبوع ليبتاع ما يكونوا قد جمعوه من فوق القطار . لكن بائع الروبابكيا انقطع مع انقطاع القطار ، فهل كان يعرف ؟ وهل كان عليهم أن يعرفوا ما حكاه الناظر مما حدث قبل حضورهم ، وربما ، بل وبالتأكيد ، قبل ميلادهم جميعا بعشرات السنين ؟.

ما حكاه الناظر عن أول قطار جاء هنا منذ مائة عام ، تاريخ لم يذكره أحد . حتى ولا الشيخ مسعود الذى كان عالمهم .

قال ناظر المحطة أن ذلك القطار كان مكونا من ثلاث عربات مكشوفة الجانبين ، تجرها آلة بخارية صغيرة ، تخرج دخانا كثيفا كأنه سحب . بداخل هذه العربات الثلاث التى كانت بيضاء ، كان هناك عدد من الانجليز الذين يرتدون قبعات ذات جوانب عريضة ، وعدد من الأتراك برموا شواربهم ورفعوها من الجانبين ، وأمالوا طرابيشهم الحمراء الى الخلف . وأنهم جميعا نزلوا فى هذا المكان فأشاروا الى موقع المحطة الذى كان خاليا فصار محطة . ثم أشاروا الى موقع عارضة التصادم الخشبية التى صارت الآن ملقاة على الأرض ، وكان أيضا خاليا ، فكانت العارضة ، وكان القضيبان اللذان كان يأتى فوقهما القطار . وأشاروا أيضا الى

الصحراء فامتد القضيبان اللذان جاء فوقهما قطارهم الى قلب الصحراء وبلغا نهايتها .

قال ناظر المحطة أنهم بعد أن أشاروا تلك الاشارات عادوا بقطارهم ذى العربات الثلاث ، ثم جاء قطار آخر وبدأ بناء كل شيىء . حمل القطار الآخر مئات من الرجال من شمال البلاد وجنوبها يقودهم انجليزى عنيف ، وبعض الأتراك الذين كانوا يمسكون بسياط يلوحون بها قليلا ، ويضربون بها كثيرا .

كانت الرمال رقيقة لكن تحتها قشرة صخرية صلدة لابد من حفرها بامتداد القضبان . مد الرجال من شمال البلاد وجنوبها قضيبى قطار الكنسة أولا ، ثم استغرقوا وقتا طويلا فى مد القضيبين المتجهين الى الصحراء .

حين انتهوا من بناء المحطة جيىء بأول ناظر لها كان هو سائق القطار الأول ، وهو أيضا جد ناظر المحطة الحالى . وهذا الناظر الأول هو الذى رأى ذلك كله . وهو الذى رأى الرجال من شمال البلاد وجنوبها يغيبون عن بصره فى الصحراء وراء القضيبين اللذين يمدونهما . لكن ماهى إلا أيام قليلة تمضى ، ثم يراهم يعودون اثنين اثنين كل يوم ، محمولين على العربة التى صارت فيما بعد عربة المفتش ، وكان يدفعها رجلان فيهما بعض القوة .

كانت العربة تتوقف عند المحطة . ويحمل الرجلان اللذان يدفعانها الميتين من فوقها الى البحيرة ويلقيان بجثتيهما فيها . ولاحظ ناظر المحطة الأول أن بعض من كان يدفع العربة يعود محمولا عليها بعد أيام جثة هامدة ، يلقى به رجلان آخران الى البحيرة . وحين يسأل ناظر المحطة الأول لماذا لا يعيدونهم الى بلادهم فيدفنون هناك ، كان الرجلان اللذان يدفعان العربة يقولان له لا أهل ولا وطن لأحد هنا . كان ناظر المحطة الأول قد رأى من قبل الانجليز والأتراك حين أشاروا بإهمال الى البحيرة وتحدثوا بلغتهم !.

بعد ذلك عاد القطار ذو الثلاث عربات يقوده سائق جديد .

سأله ناظر المحطة الأول لماذا جاء . أجاب السائق كى يعود بمن بقى . وتوغل بالقطار فى الصحراء . بعد أيام عاد يحمل الأتراك والرجل الانجليزى فقط . لم يسأل ناظر المحطة الأول عن أهل البلاد من شمالها وجنوبها . أدرك أن من لم يفز بالإلقاء فى البحيرة ، طوته رمال الصحراء التى تطوى كل شيىء . وذلك كان السبب فى أن ناظر المحطة الأول قال لابنه — والد ناظر المحطة الحالى — أنه لا يجب أن يعيش حتى يرى اليوم الذى تضج فيه البحيرة بأرواح القتلى . لأنه فى هذا اليوم لن ترحم الدنيا أحدا .

فكر على فى زيدان والبحيرة . عبد الله والصحراء . قال له ناظر المحطة أنه سيأتى ذكرهما بعد قليل . دهش على من قدرة الرجل على معرفة مادار فى ذهنه . ثم قال الناظر أن هذه البداية لم تكن النهاية . قامت حرب كبرى فى الدنيا . وكان أبوه الذى صار ناظر المحطة الثانى ، يرى قطارات كثيرة تأتى محملة بالرجال الحفاة ممزقى الثياب من شمال البلاد وجنوبها ، وتلقى بهم بعيدا وسط الصحراء فى معسكر ضخم أعد لتدريبهم على القتال . رآهم ناظر المحطة الثانى يعودون بعد ذلك وقد ارتدوا البذات العسكرية ، وحملوا البنادق التى كانت أطول منهم . لكن سحناتهم ظلت كما هى صفراء ، عيونهم كما هى زائغة ، عظام وجوههم كما هى يشف عنها الجلد ، سيقانهم البارزة أسفل السراويل القصيرة ظلت رفيعة تجرى فيها العروق النافرة ، التى تتشابك فى أكثر من مكان كما تتشابك القضبان عند نقط التحويلات .

ظل ناظر المحطة الثانى وقتا طويلا يرى القطارات تأتى بأهل البلاد من شمالها وجنوبها تلقى بهم فى المعسكر البعيد ثم تعود بهم جنودا وتأتى بغيرهم . لكنه لم ير أولئك الجنود يعودون مرة ثانية .

ذات يوم أتى القطار القديم ذو الثلاث عربات ، وفوقه بعض الضباط الانجليز . لم يكن هناك أتراك هذه المرة . عرف ناظر المحطة الثانى من حديث الضباط وكان يعرف لغتهم ، أن الذين يصيرون جنودا يحملون ليحاربوا فى بلاد الخواجات البعيدة

وراء البحار الواسعة ، وأنهم يموتون هناك ويلقون بجثثهم فى البحيرات والأنهار ، أو يتركونها فوق الجبال وفى الوديان تحت الشمس أو الثلج تلتهمها الطيور .

اغتم ناظر المحطة الثانى كثيرا لأنه من كثرة مارأى من عدد ظن أن البلاد ستفرغ من أهلها . لكن الحرب سرعان ماانتهت وانقطع مجيء القطارات .

فى يوم شديد الحرارة ، بعد حوالى عام من انتهاء الحرب ، قفز ناظر المحطة الثانى من فوق الاريكة — نفس الاريكة الخالية التى ينام عليها ناظر المحطة الثالث — وضرب جبته بكفه غاضبا . وترك المحطة مجنونا وخائفا . ظل يجرى فى قلب الصحراء . لقد تذكر فجأة ، وبعد هذه الشهور ، أنه قبل نهاية الحرب بأيام قليلة ، جاء قطار كبير ملىء بأهل البلاد من شمالها وجنوبها ، واتجه بهم الى المعسكر وعاد فارغا بلا جنود ، ولم يأت بعد ذلك قطار يحملهم ولم يرهم يعودون .

قال ناظر المحطة الثالث أن أباه ناظر المحطة الثانى، ظل يجرى اسبوعين كاملين بالليل والنهار ، لا يأكل ولا يشرب ولا يرتاح ، حتى زكمت أنفه رائحة نتنة تملأ الفضاء . أدرك أن ما فكر فيه كان صحيحا . ووجد — كما كان قد فكر بالضبط — زحاما من العظام والجماجم . ووجد أيضا آثار أقدام . أجل آثار أقدام رغم مرور حوالى العام تحركت فيه الرياح بالرمال .

كانت الأقدام متجهة إلى كل ناحية . بعضها الى البحيرة من ناحية الجنوب . وبعضها الى الشرق فى اتجاه المحطة . وبعضها الى الغرب حيث اللانهاية أو الى الشمال . وحين تنقطع آثار الأقدام يجد عظاما . رأى ذلك حين كان يتجه الى الشمال أو الشرق . لكنه لم يستطع أن يمشى خلف الآثار المتجهة الى الجنوب أو الغرب . فهذه تتجه الى البحيرة أو تتوغل فى الصحراء ولاتنتهى . كان هو متعبا فعاد ولم يقل فيما بعد كيف تحمل ذلك كله . لكنه قرر أن لايرى شيئا من أحوال الدنيا . خاف من قولة أبيه له أن لاينتظر يوما تضج فيه البحيرة والصحراء من

القتلى فشاخ بسرعة . ماكادت تشتعل فى الدنيا حرب أخرى كبيرة ، حتى مات ، بعد أن أوصى ابنه ناظر المحطة الثالث أن ينام فلم يعد فى الدنيا شيىء يستحق أن يراه أحد . وكان من قبل قد حكى له كل مارآه .

لكن ناظر المحطة الثالث قرر أن يفعل شيئا آخر ــ هكذا قال ــ أن يدرب نفسه على النوم واليقظة فى آن . ونجح أن يكون الرجل النائم متيقظ الحواس . قال لعلى أنه رآه كثيرا وهو يقذفه بالتراب ، لكنه لم يشأ أن يستيقظ . أنه رأى قطارات لن ينساها . لم تكن تحمل رجالا من شمال البلاد وجنوبها فقط ، لكن تحمل هنودا واستراليين ونيوزيلنديين وأفريكان ، تلقى بهم وتعود فارغة . وكان قد حضر الى المنطقة الرجل الأول أبو جابر ومعه زوجته . كان ابو جابر يقضى مع الناظر معظم النهار . ويسأله لماذا أتوا به هنا وحده وسط عشرين بيتا ؟. أنه لا يعرف له رئيسا أو مرؤس . أن القضبان لا يمكن أن يصونها رجل واحد . ثم أن القضيبين اللذين ينتهيان عند عارضة التصادم لا يأتى فوقهما قطار . ولم يكن قطار الكنسة قد ظهر بعد . وكان ناظر المحطة لم يزل يتدرب على النوم واليقظة فكان يجد متسعا للحديث مع الرجل . لكنه ظل يتساءل أين يذهب هؤلاء الجنود ؟.

وفى ليلة شهدت غارة كثيفة ، كان الألمان والطليان يقتربون قادمين من الغرب تسبقهم طائراتهم ، شاهد كأن الليل قد ملأته آلاف من أشعة النور تأتى من البحيرة والصحراء . عرف أنها أرواح الموتى الذين تحدث عنهم جده ، والذين مشى أبوه وراء آثارهم . لم يصدق قط أن الجنود الذين يأتون من الشرق يعبرون البحر من الجهة الأخرى ، فأشعة النور كانت تزداد كل ليلة . وعرف أنهم لابد يلقون بجثثهم فى البحيرة من بعيد . أو يتركونها فى العراء فوق الرمال .

وحدثه أن أبا جابر قرر ، إذ لا رئيس له ولا مرؤس،أن يصطاد السمك . كاد ناظر المحطة أن يحذره من ذلك لكنه تراجع . ثم فوجىء به يأتيه ليحدثه عن سمكة ذهبية تخرج اليه من الماء تكلمه . اعتاد ناظر المحطة فى ذلك الوقت أن

يسهر مع الرجل فى بيته . وحين قال له الرجل أنه يعود من الصيد مرتعشا بعد كل حديث ، وينام طالبا الغطاء من فرط البرد الذى يهز جسمه ، قرر ناظر المحطة أن يقاطعه نهائيا . كان قد قطع شوطا كبيرا فى التدريب على النوم واليقظة . وقال أنه لم تكن تمر ليلة دون أن يسمع أصواتا تأتى بالليل من البحيرة والصحراء . ضحكات وصرخات وبكاء طويل .

لم يكن على يستمع لحديثه كرواية قديمة .
كان يفكر أين الخطأ والصواب فى هذا كله . تاق لأن يسمع ماقالته سعاد . لكن الرجل قال له أنه استيقظ لأول مرة فوجد البيوت العشرين قد إمتلأت . وكان يرى العمال وهم يتغيرون . لكنهم فى كل الأوقات كانوا ينطرحون خلف المحطة بعد العمل ، فيبدون كأن الدنيا قد نسيتهم .

وحين أتى الشيخ مسعود كان قبل أن يحال الى المعاش ويعتكف فى الجامع ، يمضى معه بعض الوقت بعد صلاة العشاء . فأوقات الصلاة لم يفته أن يستيقظ لها . أراد كثيرا أن يحذر الشيخ مسعود من بلاء قادم . لكن الشيخ مسعود كان يسترسل فى حديث قديم عن الجن وما كان يفعله بها . كان يقول له أنه ظل لفترة طويلة يعتبر أن رسالته فى هذه الدنيا هى تعذيب الجن . فقد كانوا أعداء لكل الأنبياء . ولم ينصاعوا إلا لنبى واحد هو سليمان . أنه أنفق كثيرا من وقته فى معرفة أسرارهم وأختامهم . وصار بعد ذلك يعذبهم مثلما فعل رجل علمه الأسرار . كان إذا عرف أن جنية عشقت شابا من البشر ، يستحضرها ويأمرها أن تعشق مايختاره لها غير هذا الشاب . ودائما يختار عجوزا . وحين يعلم أن جنيا عشق امرأة من البشر ، يستحضره ويجعله يعشق عجوزا بالقوة . عجوزا شمطاء . وكثيرا ماكان يزوج الجنى الذكر الى جنى ذكر والجنى الأنثى الى أنثى ، ويقول أنه سيدمر عواطفهم . لذلك لابد أن الجن هم الذين قتلوه . فالظلم أمر

سيىء حتى لو وقع على الجن . ولا يشفع للشيخ مسعود أنه أقلع عن ذلك كما قال بعد أن تزوج من سعاد .

وتقدم من السلة ينظر داخلها ليرى ما اذا كانت سعاد تسمعه أم لا ، فوجدها مبتسمة . فكر أن ينقطع عن الحديث لكنه استمر .

قال لعلى أن الأصوات التى كان يسمعها من البحيرة والصحراء لا يسمعها إلا الطيبون والأشراف والمنحدرون من نسل الأولياء . لكنه ، يعرف أن الاستجابة لها موت . وذلك مالم يكن يعرفه الرجل الطيب زيدان الذى كان جسمه رغم سواده ، وآثار البثور التى تغطيه ، مقدودا من نور فائق . لذلك لم يخرج زيدان من البحيرة ، وليس معقولا أن تكون الجثة التى عثروا عليها هى جثته .

قال على بدهشة .

— هل مات زيدان ؟

— عثروا على جثة تشبهه . لكنه لا يموت .

— اذن جثة من ؟

— لابد أنها لأحد أبناء المدينة قتله ساكنو الجسر وألقوها فى البحيرة . أو لعلها جثة قديمة لواحد ممن ألقوا بهم فى البحيرة .

قال على وهو يزداد ارتباكا .

— وهل يمكن أن يحدث ذلك ؟

قال الناظر فى ثقة .

— الطيبون يحدث لهم أكثر من ذلك .

قال على فى نفسه متى يطلع الصباح . لكن ناظر المحطة باغته وقال .

— حتى الجثة التى عثروا عليها فى الصحراء ليست لعبد الله .

— هل مات أيضا ؟

تساءل على فى حزن .

— عثروا على جثة رجل فى ظهره حدبة .

قال على بصوت لا يكاد يسمعه أحد .

— لماذا تقول إذن أنه ليس هو ؟

— لأنى أعرف ماذا كان يريد الرجل . كان يريد أن يوقف الشمس أو يغير اتجاهها . ولقد استطاع أن يفعل ذلك ؟

قال على فى ألم .

— إنى متعب للغاية . أريد أن أنام الوقت القليل الباق .

قال ناظر المحطة مستنكرا .

— أليس لديك ما تريد أن تسأل عنه ؟

قال على باستسلام .

— لا أعرف . يمكن أن تكمل على كل حال .

قال ناظر المحطة .

— لقد انقطعت الشمس عن الظهور أياما طويلة . حين عادت منذ شهر ، لم يكن قد بقى خلال الظلام غير هؤلاء — وكان يعنى الخواجات الذين رآهم على — والمفتش الجديد ومن جاء بدلا من حامد وجابر وزيدان والشيخ مسعود .

تحدث بعد ذلك ناظر المحطة بالذى قالته له سعاد . فبعد أن أشرقت الشمس من جديد ، عم الفرح أولئك الذين بقوا أحياء بعد الظلام الطويل . سمعت طلقات الرصاص تأتى من ناحية المبانى الخشبية للخواجات . وأقيمت السهرات الصاخبة . قال ناظر المحطة أنه رأى ذلك بالفعل . لكن تساءل الباقون فى البيوت العشرين عن سر ما وقع . كيف اختفى القدامى جميعا ولم يبق غير الجدد ؟. ولم يكن هؤلاء يعرفون أن سعاد وليلى من الذين بقوا .

قالت سعاد أنها ظلت طوال الظلام ملتصقة بليلى . وكلما استمر الظلام ازداد خوفهما ، فازداد التصاقهما وصارتا تبكيان . وأن الدموع الغزيرة التى سالت بينهما ، كانت تنسال لزجة تغطى وجهيهما وصدريهما ، وتتحول الى شيء كالصمغ يزيد التصاقهما .

وقال ناظر المحطة أنه بعد أن أشرقت الشمس ، جاء قطار به بعض الشرطة ، وحملوا من بقى من العمال وأسرهم ، ونقلوهم بالقطار الى موقع بعيد فى الصحراء . وأن الشرطة لم تنتبه لليلى وسعاد لأنهما صارتا رقيقتين شاحبتين للغاية من فرط الجوع والعطش . ذلك أنهما لم تأكلا شيئا طوال الظلام سوى ملح دموعهما الذى تكلس بينهما . وعلى هذا الوضع وجدهما ناظر المحطة . لقد أحس بعد أن أشرقت الشمس بعد الظلام الطويل أن قدرته على المعرفة وهو نائم قد نفدت . بل إنه لم يعد قادرا على النوم مرة أخرى . ظل أياما يفكر ماعساه يفعل . حتى رأى القطار الذى جاءليحمل من بقى من العمال وأسرهم . فذهب بعد رحيله يتفقد البيوت بدافع داخلى عجيب وعثر على ليلى وسعاد فى أحد أركان المنزل .

وجد سعاد تزحف على يديها وقدميها تبحث عن خبز عفن تقتات به . ووجد ليلى تشرب زاحفة من صنبور المرحاض .

أحضر لهما طعاما وشرابا وتركهما . ثم خاف أن يهدم الخواجات البيوت فوقهما ، فاصطحبهما الى المحطة فى اليوم التالى الذى صارتا فيه أكثر عافية . ظل يطعمهما وهما ذاهلتين عما حدث حتى استردتا وعيهما فبكيتا كثيرا .

بعد ذلك قررت ليلى أن تهبط الى المدينة تبحث عن على . فهو الوحيد الآن الذى تعرف أين هو ؟. رفضت سعاد أن تصحبها . قالت أنه سيعود . وظل ناظر المحطة يطعمها . صارت تزداد عافية يوما بعد يوم .

بعد أن صارت سعاد فى أبهى صورة ، فوجىء بها تتغير على عكس

ماتوقع . صارت تشحب وتتضاءل . ولم تمض أيام قليلة إلا وصارت على هذه الصورة . وجه جميل لم يعرفه البشر بلا جسم . وتبرز الساقان رفيعتين فى حجم الأصابع من العنق مباشرة . وكذلك الذراعان الدقيقتان كعودى ثقاب . وضعها ناظر المحطة فى هذه السلة وغطاها بقطعة الشاش وهو يسبح بحمد من له الأمر فى كل شيء .

صمت ناظر المحطة بينما شاهد على الحجرة لأول مرة . بها أريكة نام عليها الناظر كثيرا ومكتب صغير ، ودولاب زجاجى به مفاتيح . فى ركن علقت بعض ثياب . تحتها موقد كحولى وبراد وبعض أكواب . فى ركن آخر تليفون قديم سقطت سماعته على الجانب . وفى ركن ثالث كانت السلة التى بها سعاد . قال له ناظر المحطة الذى رأى على دمعا يترقرق فى عينيه .

ـــ ألا تكون القصة قد انتهت هنا ؟

كان على يفكر فى ليلى والمدينة المباعة . فى أهله الذين تاهوا فى الظلام . فى كابوس انتهى وحلم يبدأ . أو حلم انتهى وكابوس جديد . أحس أن فى أحشائه نارا . فالحنين الطاغى لمعرفة الصدق من الكذب قد يقتل بعض الناس . كان دائما يعرف رغم قوته التى ازدادت فجأة ، وجسمه الذى نما ، أنه لم يزل صغير السن والادراك . والآن يعرف جيدا أنه قد فقد فى اليومين السابقين جزءا كبيرا من جسمه وقوته ، فى وقت هو أحوج مايكون اليهما فيه . يتساءل ما سر هذا ؟ وأى قوى خفية تصمد أمام هذا الطلسم المجهول ؟ لكن صوت قطار قادم من ناحية الصحراء قطع عليه تفكيره .

•

توقف القطار أمام رصيف المحطة . سمع على صوت احتكاك العجلات بالقضبان واصطدام العربات الخفيف ببعضها . بدا له أنه يسمع لحنا شجيا طال الزمان بغيبته . لكن الوقت كان ليلا والقطار

جاء فى المنتصف .

خرج هو وناظر المحطة ينظران . عربات القطار محملة بأجولة ضخمة . أحد الأجولة كان ممزقا . مابداخله ينسكب على جانب العربة جوار الرصيف . كان ماينسكب رمالا صفراء !.

نظر على الى ناظر المحطة فوجده يفتح عينيه على اتساعهما . تماما مثله . عرف كل منهما مايفكر فيه الآخر . لكن العجوز ضحك وقال ساخرا .

— لعلهم ينقلون الصحراء !

تحرك القطار الى الامام قليلا فصارت أمامهما عربة ركاب قديمة مفتوحة النوافذ لكن لا يبدو أن بها أحدا . ومن يركب عربة ركاب ملحقة عرضا بقطار بضاعة ؟ لكنهما لمحا رجلا يرتدى ملابس ثقيلة ، ويلف نصفه العلوى بدثار قاتم مثل ملابسه، يهبط من باب العربة الأخير ، ويتجه اليهما .

٥

حين اقترب منهما بدا تحت ضوء المحطة الشحيح كأنه جذع شجرة قصيرة تركت الأرض وجعلت تتحرك . حياهما الرجل الذى بدا غريب الهيئة تماما . وسأل ناظر المحطة .

— هل أنت قديم هنا ؟

— منذ أكثر من ثلاثين سنة .

قال ذلك مبتسما ويائسا .

— هل تعرف عمال السكة الحديد الذين يعيشون هناك ؟.

وأشار الى حيث كانت البيوت التى كانت حجرة الناظر تحجب أطلالها . تنبهت حواس على وكاد يقف على أصابع قدميه . قال ناظر المحطة فى نبرة تشى بأنه يتكلم عن زمان قديم .

— أجل . عرفتهم جميعا .

قال الشخص غريب الهيئة بسرعة .

— القطار لن يقف طويلا وليس لدى وقت للذهاب اليهم. ماأرجوه هو أن تبلغ شخصين ، أحدهما يدعى جابر والثانى حامد ، بأنى ، واسمى مسعد ، أنتظرتهما طويلا حتى مللت .

أحس على أنه صار كعارضة التصادم الملقاة فى العراء وتحت الشمس بينما قال ناظر المحطة بلا مبالاة .

— سأخبرهما .

— وقل لهما إنى سأحاول الإتصال بهما فيما بعد . المهم الآن ألا يرحلا الىّ فقد عدت كما ترى . وهما يعرفان كل ماأعنيه .

تحرك القطار فتركهما وقفز داخل عربة الركاب الخالية . كان القطار يتحرك ببطء شديد كأنه لا يريد أن يبرح الأرض . وكان القمر عاليا خلف المحطة فتحرك بسرعة نحو القطار وهو ينخفض ويزداد نورا وتألقا . أحس كل من ناظر المحطة وعلى بذلك . صار القمر الذى اقترب من البدر ، بدرا كاملا . أحس كل منهما أنه شمس تسطع وسط الليل من فرط النور الذى غمر المكان . استمر انخفاض القمر حتى لقد فكر كل منهما أن يقفز ليمسكه . ومضت العربات أمامهما لامعة ، فظهرت على جوانبها الكتابات الطباشيرية التى يكتبها الأطفال عليها فى المحطات ، فى حروف متداخلة وكلمات غير مفهومة .

حين صارت آخر عربة أمامهما صار القمر أكثر اشعاعا للنور . رأى كلاهما فوق العربة شابا يلتف بدثار أسود ليتقى رطوبة الليل وهواء السفر . لكن وجهه كان مكشوفا ومضيئا بين الدثار .

قال ناظر المحطة .

— انه المسفر ، على آخر عربة دائما .

لكن على لم يسمعه . ركز عينيه على الوجه المضيء ، ورغبة فى أن يقفز فوق القطار الذى أسرع تكاد تعصف به .

في الوقت الذى صار القمر فيه يعود الى مكانه العالى فى السماء متضائلا حزينا، كان ناظر المحطة يتلفت بحثا عن على حوله فلا يجده. كان على يجرى بسرعة مجنونة بين القضيبين خلف القطار . رآه الناظر وسمع صوته ينادى «مرسى . مرسى» فيملأ الفضاء .

لم يؤثر انسحاب القمر فى وجه المسفر الذى ظل مضيئا وعلى يسرع خلف القطار وينادى . وكان على يعرف أن المسفر يركز عينيه عليه كما يركز هو عليه عينيه .

لكن لم يبد أن المسفر استجاب للنداء ولو حتى باشارة . ظل جالسا جامدا كحجر أسود تطل منه فرجة صغيرة بيضاء هى وجهه . ورآه على يرفع الى فمه يديه وبينهما شيىء لا يراه . لكنه من وضع اليدين ، ومن الصوت الذى سمعه ، عرف أنه ناى . وأن المسفر صار يعزف عليه . وبدأت ظلال باهتة تخفى وجه المسفر ويديه . كثفت الظلال فالتحم الوجه بالدثار الأسود ، والتحم الجميع بالعربة ، ثم بالليل الساجى لكن الصوت كان ما يزال فى أذنى على .

أدرك على أنه جرى مسافة كبيرة حين عاد ماشيا يلهث . استغرقت عودته ساعة كاملة . تعجب كيف لم يتعثر وهو يجرى بين العوارض والزلط المغطى بالمازوت . تذكر زينب حين قالت له أن الخيال أحيانا يكون كالحقيقة . لكنه كان يعرف ، وهو حزين ، أن ما رآه حقيقة كاملة . فهو لا ينسى أبدا وجه مرسى الذى طالما رآه ينفرد بسميرة فى السبنسة ، يعطيها ما يكون قد خبأه لها من سبائك ونحاس .

تمنى على لأول مرة لو صار مثل سعاد . شيئا قبيحا لا ينظر اليه أحد . لو تضاءل وتضائل حتى اختفى . ولاحت له أضواء البلوك فتذكر عم عبد النور . لكنه أحس أنه لن يقوى على المزيد من القسوة . وصل الى المحطة فوجد الناظر جالسا يبكى بلا صوت . وماأن رآه حتى قال .

— لم يبق غيرك ياولدى فدبر نفسك على الوجه الصحيح .

كأنما كان على فى حاجة لمن يقول له ذلك ، سرت الراحة فى خلايا جسمه . وداعب النوم جفنيه حلواً لأول مرة منذ زمان طويل .

أشار ناظر المحطة الى بائع الروبابكيا القادم من بعيد. رآه على وهو فوق عربته التى يجرها حمار ، كأنه خلق الكون لنفسه كى يسير وحيدا فيه . وقال لناظر المحطة .

— اذن دعنى أودعك .

احتضن الناظر وقبله على خديه . ربت الناظر على ظهره وقال :

— لم أعد أخشى عليك . لقد تحملت الكثير ويبدو أنك رجل بحق .

انصرف على يجاهد البكاء . حمل السلة برفق وهو يشعر بقلبه يتفتت فى ضلوعه . ويشعر بالسلة ثقيلة فى يده . قبل أن يصل الى عربة الروبابكيا التى وقفت بعيدا عن المحطة قليلا ، وكان صاحبها صامتا ، وحمارها عجوزا أسود جربان ينكش بقدمه الأمامية اليمنى فى الأرض ، التفت يلقى نظرة أخيرة على المنطقة .

كانت الشمس تتجه الى منتصف السماء ، صفراء أكثر مما ينبغى . والبلدوزرات تعمل بنشاط . التراب يعلو من كل ناحية فيحجب البحيرة ونبات الحلفاء والأجساد العارية . بدأت الصورة تختفي . لم يعد يرى إلا خلاء واسعا لا نهائيا . ولا يذكر سوى كلمة ناظر المحطة الأخيرة .

وضع السلة فوق العربة برفق وقفز جوار الحوذى الصامت الذى يبدو من صمته أنه جاء لمهمة يعرفها سلفا . استدار الحوذى بالعربة بعد أن غمز حماره . وسارت العربة تهتز على الأرض غير الممهدة ، فمد ذراعه يمسك بالسلة من جانبها حتى لا تقع ، فتحت قطعة الشاش البيضاء هذه توجد أجمل إمرأة .

وغمره شعور بأن الدنيا خلت إلا منهما وعليه هو وسعاد أن ينسلا نسلا جديدا كما فعل آدم وحواء فى الأزل . هذه المرأة الجميلة انتظرته وهو جنين . أجل . قالت له ذلك وهى تودعه . لكن . آه . لقد خانها . ففى اليوم الذى قررت فيه أن تعطيه سرها ، وتفتح له باب البهجة ، قرر هبوط المدينة وعللها بالانتظار . لكن القوى الخفية التى استيقظت فيه هى التى دفعته . وماذا كان الغلام الصغير بقادر أن يفعل ؟

أخذه الأسى من كل جانب، وعصفت بقلبه مشاعر ذنب طاغية كريح الصحراء فى يوم خماسينى . فتساءل معذبا أى ذنب جناه القلب الصغير ؟

ورأى وجه الرجل الأسود قد صار رفيعا متغضنا . والحمار الأجرب يحك نفسه فى سرجه أكثر مما يمشى ، فقال لنفسه لم تكن السنون التى مرت بكثيرة لتفعل هذا كله . ثم أشار للحوذى أى يقف .

عرق كثير بدأ ينتفض على وجهه . نار حارة تتدفق من قلبه الى شفتيه . كان يريد للمرة الأولى ، وربما الأخيرة ، أن يرى وجه سعاد . أن يقبلها . فالمرأة التى عاشت تنتظره مذ كان فى الأحشاء لم تفز بشيىء منه . وهو نفسه يشعر أنه لو قبلها الآن ستستوى أمرأة أجمل مما كانت ، وسيبدأ معها عهدا لم يعرفه البشر ، وسيعلو بها فوق كل الهموم ، سينزل بها المدينة المتخاصمة يعرف مالم يعرفه . يحذر الناس مما لم يعرفوه ، ومالم يحذرهم منه أحد ، وهى معه ، لا يطالها أحد ، ولا يقف أمامها أحد إلا هو . ذلك الولد الذى نما جسمه نموا هائلا ذات يوم ، والذى أراد أن يلقى حجرا لا يهبط من الفضاء .
وبهدوء العاشق الحزين زحف الى الخلف . انحنى فوق قطعة الشاش الرقيقة . ارتعشت يداه وهو يمسك بها يرفعها عن السلة .

يعرف أنه سيحتاج لقوة كبيرة ليقاوم ذلك المشهد الغريب لأجمل امرأة . لبقايا جسد تعطش لرجال ليسوا من هذا الزمان ، وبرغبة وشبق عارمين لم تعرفهما

نساء العالمين . لكن الشعر الأسود الكثيف الذى سيشرب ضوء الشمس سيدفع عنه كل خوف ، وسيجعل رؤيته للجمال مبهرة ، وسيشعر به يحتويه كبيت صغير آمن ، ولن يجعله يرى ما تحت الوجه الوضاء من بشاعة .

ورفع قطعة الشاش فرأى كأنما الشمس قد أقعت داخل السلة يحوطها ليل حانى يشرب حرارتها ويترك على وجهها الأمان . وكانت تبتسم بهدوء كطيف قمر ينكسر فى مياه البحيرة ، أو على نباتات الحلفاء الخضراء فى ليلة خريفية ناعمة . رأى العينين الواسعتين تلمعان وتتحدثان بلغة الحنين الدافق يظل محبوسا آلاف السنين ، ثم ينهمر برغبة لا توقف ، وخوف لا يعرف أحد مصدره . وكانت الأهداب ترتعش ، والدمع البارز كاللؤلؤ ينحدر على الوجنتين صامتا طيبا ، وارتعشت الشفتان وأشعت الابتسامة ، وملأت الدعوة عينيه ، فملأ رأسه سطح السلة وهو ينحنى أكثر . لكن رأسه لم يمنع ضوء الشمس فلم ير ظلا ينعكس على الوجه المضيىء . ظل مشرقا كما هو كأن أشعة الشمس تنفذ من خلال رأسه . أو كأن رأسه ووجهها صارا أطياف شمس صباح بهية فى تلك اللحظة التى خرجت عن الزمان ، وأحس فيها بأن الكون كله يتركز منسكبا بالفرح داخل السلة القديمة .

حين اقترب أكثر شعر بالحرارة تصعد الى وجهه تهدهد الروح والجسد . واقتربت الشفاه ولم يغمض عينيه . لن ينسى ذلك فيما بعد . وحين تلامست الشفاه أحس بدم جديد أبيض يجرى فى جسده ، ولم يغمض عينيه . لن ينسى ذلك فيما بعد . وظلت عيناه تران أجمل عينين لامرأة ، تزوجها عجوز والتاع بها شباب ورجال ، ونامت بسببها نساء على النار ، وضج منها الكون فباغتها كاسرا لأنه لا قبل له أن يكون فى وجودها !. امرأة تعرفها السماء جيدا فطالما صعدت تناجى قطرات مائها ، وفتحت لها صدرها . وتعرفها الشمس التى غابت ثم عادت ذليلة لأنها تتألق من ضوء هذه المرأة ، ولا تستطيع أن تغيب أكثر من ذلك ! . امرأة تقول عيناها بأن ليلى التى ذهبت الى المدينة ستكون أجمل امرأة هناك ، فقد التصقت بها فى ظلام طويل وشربت من دموعها ، وعليه الآن

أن يلحق بها ينقذها مما يراد لها . وكانت عيناه مفتوحتين أمام عينيها . انه لن ينسى ذلك أبدا !. وسيظل يذكره حتى يحتضر ويرى الأحجار الطائرة تسقط أمامه . ويقول له الناس هذه الأحجار ياعلى هى التى قذفها الناس حين قلت لهم ذلك فى الزمن القديم ، قد عادت لتراك قبل أن تموت ، وستطير مرة أخرى فلم يعد هناك سبيل لايقافها ، وأنهم مايزالون يقذفون أحجارهم الجميلة ، بعيدة المدى والصيت ، من كل بقعة وفى كل وقت ، ويرددون ما قلته أن ليس الخيال كالحقيقة وليس الصدق كالكذب !

ورأى عينى أجمل امرأة وأذكاهما بالنار تغمضان وأحس أن الشفتين الدافئتين تبردان ، وأن ظل وجهه يرين على الوجه الجميل الذى صارت تشيع فيه الصفرة . لم تعد الشمس تنفذ من رأسه اليه . ولم يعد رأسه ووجهها أطياف شمس صباح بهية . امتلأت السلة بالظل وأظلمت فلم يعد بها شيىء وهو يدرك ذلك الآن بوضوح . ويرفع وجهه غير باك ولاحزين . لقد همست له أن يترك العربة . انه لن ينسى ذلك فيما بعد . والكون صار أكثر اشراقا لا يعرف لماذا ، وقوته صارت أكثر ثباتا ، ودمع عينيها مايزال ساخنا فوق وجنتيه . فليترك الآن هذه العربة الهالكة ، وحوذيها العجوز ، وحمارها الأجرب .

وقفز الى أرض الطريق . أسرع الحوذى بعربته كأنما كان ينتظر ذلك . شاهد السلة تتمايل أمامه فوق العربة المهتزة التى بدت صغيرة جدا وسط الكون الأبيض الواسع القادر على احتواء كل شيىء .. رأى حجرا يسقط أمامه لايعرف مصدره . ثم حجرا آخر . ثم ثالثاً . انحنى وأمسك حجرا وقذفه بقوة . طار الحجر أمامه ولم يسقط . تابعه بعينيه فرآه قد اختفى فى الفضاء . أمسك بحجر ثان وقذفه . تابعه مثل الأول فرآه يختفى فى الفضاء . قذف حجرا ثالثا . أحس بنفسه يطير فى الفضاء ، وأن ثيابه صارت فضفاضة . أدرك أن جسمه قد عاد الى

صورته الأولى . ظل يقذف الأحجار التى تختفى حتى وصل الى أول الطريق المعبد الى المدينة . تساءل كم من أحجار يريدها ليقذفها هناك . تذكر حين قال للشرطى أنه يتيم . وأمسك أول حجر قابله على الطريق المعبد . قذفه بقوة فسقط غير بعيد . ضاعت كل الصور القديمة من ذهنه ، وهتف من أعماقه ، من للفتى الغريب الآن ؟ . وأدرك أنه قد ودع الى الأبد ، زمن الحلم والخيال ....

ـ انتهت ـ

١٩٧٧ — ١٩٨٠

رقم الايـداع في دار الكتب والوثائق ببغـداد ـ ١٤٠٨ ـ لسنة ١٩٨٩

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٨٩

السعر ديناران ونصف

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة